الأمين والمأمون

رواية تاريخية غرامية

هي الحلقة الحادية عشرة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام

وتشتمل على مادار بين الامين والمأمون من الخلاف بعد وفاة والدهما
الرشيد وقيام الفرس لنصرة المأمون حتى فتحوا بغداد
وقتلوا الامين وأعادوا الخلافة الى ابن اختهم (المأمون)
ويتخلل ذلك وصف دخائل السياسة بين العرب
والفرس وما يقتضي المقام ذكره من الآداب
الاجتماعية والعادات والاخلاق

تأليف

جرجي زيدان

منشىء الهلال

« الطبعة الخامسة »

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة

الطبعة الاولى

بلغنا في الحلقة الماضية وهي العاشرة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام الى نكبة البرامكة وفيها قضى الرشيد على سطوة الفرس بقتل زعيمهم ووجيههم جعفر بن يحيى البرمكي وعاد العرب الى نفوذ الكلمة واضطر الفرس الى الرضوخ والتربص حتى تسنح لهم فرصة يثبون فيها على الدولة ويعودون الى القبض على أزمة أمورها

وتوجهت أنظارهم الى المأمون أحد أبناء الرشيد لان أمه فارسية وفيه ذكاء وفهم وكان جعفر قبل نكبته قد رباه في حجره وغرس فيه حب الفرس والشيعة منذ نعومة اظفاره — عهد بذلك الى رجل من الفرس كبير المطامع اسمه الفضل بن سهل فلما قتل جعفر أركن الفرس الى السكون حتى مات الرشيد وكان قد بايع بالخلافة بعده لولده الامين ثم المأمون فطمع الامين بنقل الخلافة بعده الى أولاده

فخلع أخاه فحرض الفرس ابن أختهم المأمون على المطالبة بالخلافة ووعده الفضل بن سهل أن يعيدها اليه على شرط أن يبايع بعده لعلي بن موسى الرضا زعيم الشيعة فى ذلك العهد فقبل الشرط فنصروه وأعادوا الخلافة اليه فلما قبض عليها وأدرك قصدهم اخراج الخلافة من بني العباس ورأى أهله قد تقموا عليه هذا الفعل وهموا بخلعه لم ير خيراً من أن يتخلص من الفضل وعلى الرضا فدس اليهما من قتلهما سراً فخلصت الخلافة وتوارثها أهله بعده

فموضوع هذه الرواية (وهي الحلقة الحادية عشرة) بسط الخلاف الذي قام بين الاخوين بعد موت أبيهما الى مقتل الامين سنة ١٩٨ هـ وما تخلل ذلك من الدسائس والمساعي واختلاف الاحزاب مع بيان الاحوال السياسية والآداب الاجتماعية وطبقات الناس في ذلك العصر ونسبتها بعضها الى بعض وغير ذلك مما تلد مطالعته وتجزل فائدته وبالله التوفيق

obeikandl.com

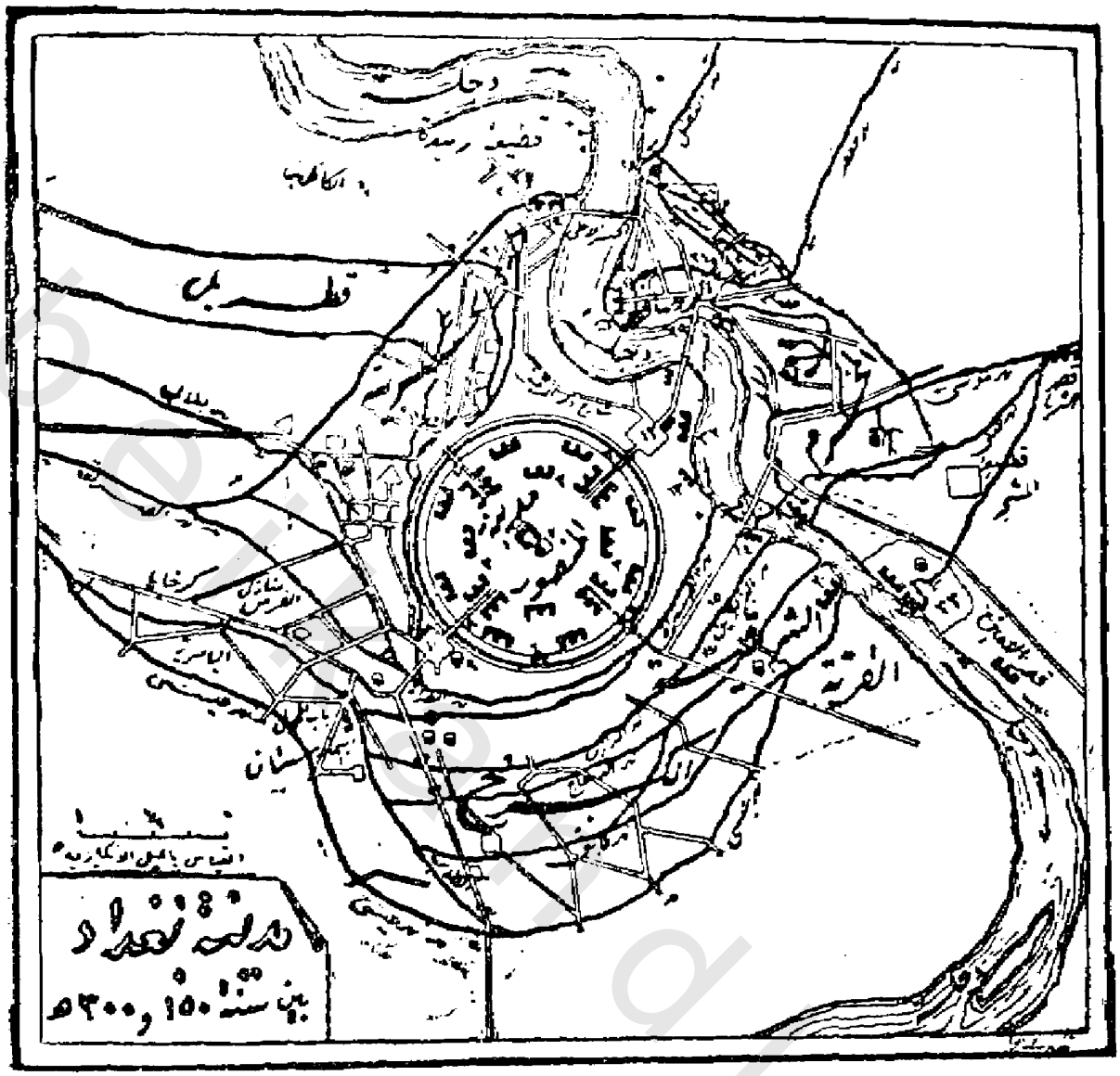

١ قصر الذهب أو القبة الخضراء
٢ جامع المنصور
٣ أبنية الحكومة لمصالح الدولة
٤ الطاق
٥ باب البصرة
٦ باب خراسان
٧ باب الشام
٨ باب الكوفة
٩ جامع المسيب
١٠ ديوان الصدقة
١١ سجن باب الشام
١٢ الميدان وبجانبه الاسطبل
١٣ دار القرار
١٤ دار حميد بن عبد الحميد وباب شعير
١٥ جامع معروف الكرخي
١٦ مشهد علي
١٧ القصر الجعفري ثم صار القصر المأمون
١٨ قصر التاج
١٩ قصر الفردوس
٢٠ دار عيسى
٢١ قصر ابن الحصيب
٢٢ قصر المعتصم
٢٣ دار الروم (البطركخانة)
٢٤ دار البرامكة
٢٥ باب الطاق
٢٦ قصر المهدي
٢٧ جامع الرصافة
٢٨ باب الشماسية وقصر موسى
٢٩ قصر الحريم الطاهري
٣٠ قصر زبيده
٣١ دار الرقيق
٣٢ قصر الخلد
٣٣ حدائق المنصور

obeikandl.com

الفصل الاول

خان سمعان

بنى المنصور مدينته المستديرة سنة ١٤٥ هـ وجعلها معقلا له ولجنده ورجال دولته وبنى في وسطها قصراً له سماه قصر الذهب وأقام بجانبه جامعاً عرف باسمه وشاد الابنية في مابقي من المدينة لرجال خاصته ومصالح حكومته وأحاط المدينة بسور مثلث الجدران فتح فيه أربعة أبواب سماها باسماء الجهات التي تؤدي اليها . فسمى الشرقي الشمالى باب خراسان والشمالى الغربي باب الشام والشرقي الجنوبي باب البصرة والغربي الجنوبي باب الكوفة واقطع رجاله مايحيط بالمدينة من الارباض فابتنوا فيها القصور وعرفت تلك الارباض بأسمائهم . ولم يمض زمن حتى تألف حول المدينة أحياء عرفت بأسماء خاصة بها أشهرها الحربية في الشمال والكرخ في الجنوب . وقامت الابنية في شرقي دجلة ونشأت هناك أحياء الشماسية والرصافة والمحرم وغيرها . وبنى خارج باب خراسان قصراً كبيرا عرف بقصر الخلد وجعل بينه وبين ذلك الباب ميداناً كبيراً ينشأ من بين يديه طريق متجه نحو الشمال الشرقى إلى الجسر الاوسط القائم على دجلة ويمتد ذلك الطريق شمالا ثم شرقاً حتى يمر بين الرصافة والمحرم ، يعرف بطريق خراسان ويتخلل تلك الاحياء كثير من القصور والحدائق والانهر (أو الترع) المنشقة من دجلة الى كل الجهات

وكان في جملة هذه الانهر نهر يسير من دجلة شرقاً حتى يخترق الرصافة والشماسية يعرف بنهر جعفر . وكان على جانبي هذا النهر أو الترعة وراء الرصافة بساتين فيها الاغراس والاشجار وبعض الابنية في جملتها بستان واقع على طريق خراسان من جهة وعلى ذلك النهر من جهة أخرى بيت اتخذه بعض الخمارين من أنباط السواد خاناً ينزل فيه القادمون على بغداد من الغرباء . وجعل في البستان مما يلى الطريق بيتاً يبيع فيه الخمور والانبذة ويصنع فيه الاطعمة لمن شاء من الغرباء أو البغداديين . ونظراً لموقعه على

قارعة الطريق وبعده عن العمارة كان يقصده الراغبون في ترويح النفس أو طلاب المسكر من طبقات العامة لرخص الاثمان وقرب التناول . وإذا اراد بعض الخاصة شرب الخمر سراً خوفا من رقيب أو فراراً من العار رأى في ذلك البستان مستتراً

وكان صاحب الخمارة كهلا في حدود الستين من عمره قد عركه الدهر ولانت نفسه حتى كادت تسيل رقة وعاصر ثلاثة من خلفاء بني العباس المهدى والهادي والرشيد وشهد كثيراً من الاهوال آخرها نكبة البرامكة منذ ستة أعوام وظل ثلاثة منها يشاهد جثة جعفر منصوبة على جسر بغداد — والخمارون يتعودون دماثة الخلق مما يعرض لهم من مخالطة الناس في أحوال سكرهم وعربدتهم فيضطرون لمسايرتهم ومجاراتهم على طباعهم فيهون عليهم احتمال الضيم والصبر على السب والشتم لمراضاة « زبائنهم » ولذلك كان الخمارون من ألين الناس عريكة وأطولهم بالا وأكثرهم اطلاعا على نقائص البشر وأكتمهم لاسرارهم بما يظهر لهم من عيوبهم في أثناء سكرهم . ولهذا السبب كانت هذه الحرفة خاصة بأهل الذمة ممن ضربت عليهم الذلة والمسكنة من اليهود أو الانباط سكان البلاد الاصليين فضلا عن امتناع هذه التجارة على المسلمين لتحريم الخمر عليهم

وكانت حانة ذلك النبطى عبارة عن غرفة من ذلك البيت في أرضها حصير عليه وسائد من الخيش محشوة بالقش وفي جدران الغرفة كوى كالجيوب فيها أدنان الانبذة والخمور مما صنع من العنب أو التمر أو التفاح أو غيرها من الأثمار وفوق الكوى رفوف عليها زجاجات أو أباريق وأقداح من الزجاج أو الخشب يكيل بها الخمر أو النبيذ تسع الواحدة رطلا أو نصف رطل أو ربعه . وقد علق بصدر الغرفة بربطاً وعوداً ودفاً ترغيباً للمترددين عليه في أسباب السرور . ويغلب أن يكون الخمار رخيم الصوت يحسن الضرب على بعض هذه الآلات أو كلها . وكان بعض الخمارين في بغداد يجعلون في حانتهم قينة رخيمة الصوت حسنة الصنعة جميلة الطلعة يشرب الطلاب على صوتها أرطالا

الفصل الثانى

العيار والجندي

ففي يوم من أيام سنة ١٩٣ هـ مضى على ذلك الخمار نهاره ولم يأته زبون لبعده عن مركز المدينة . وكان أكثر ارتزاقه على المارة وهو طبعاً يفضل الغرباء على أهل المدينة لما يرجوه من بيعهم بالاثمان الغالية لأنهم يجهلون الاسعار ولأن الغريب أبعد عن السوم من البلدي فلا يبالى أن يدفع ثمن الرطل النبيذ خمسة دراهم على حين أن ذاك لايدفع غير درهمين ـ فلما انقضى النهار ولم يأته أحد أوقد في بعض جوانب البستان ناراً ليشوي عليها سمكة أعدها لعشائه . وفيما هو ينفخ في الوقود والدخان يتصاعد على وجهه حتى يتخلل لحيته ويغشى عمامته وقد استوفز وشمر قفطانه وشكه من أطرافه بزناره اذا هو يسمع جلبة وصوتاً من باب الحان يناديه « يامعلم سمعان » فخفق قلبه سروراً وأسرع فرأى رجلا من العيارين وهم كثيرون يومئذ في بغداد ومعظمهم من أهل البطالة الذين يعيشون بالدعارة والنهب ومعه رفيق . فلما رأى العيار تراجع واستعاذ بالله ولكنه تعود الكظم في مثل هذا الموقف وعلم انه لامفر له من المسايرة أو يصيبه شر فتجلد وتقدم باسما مرحباً

وكان العيار لابساً خوذة من الخوص وعلى صدره دراعة من الجلد المدبوغ عليها نقوش ملونة وهو عاري الذراعين وقد علق بكتفه الايمن بانحراف نحو خاصرته اليسرى مخلاة فيها حصى وعلى حقويه سراويل من الخيش الثخين تكسوه الى الركبتين والمقلاع معلق بكوعه وهو سلاح العيارين . وكان مكشوف الساقين حافي القدمين وبيده الواحدة عصاً قصيرة غليظة وبالاخرى رغيف قد أكل بعضه وفي فمه لقمة يمضغها وهو يقول « اسقنا يامعلم »

فرحب به الخمار وعمد الى رطل صب فيه نبيذاً وناوله ونظر الى رفيقه فاذا هو بلباس الجند وهي الدراعة على ظهرها طراز الدولة « فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » وعلى رأسه قلنسوة مستطيلة مدعمة بالعيدان وقد علق السيف

بمنطقته فوق قباء أسود . فتوسم الخمار بذلك الجندي خيراً لعله أن الجنود يدفعون ثمن ما يأخذونه اذا قبضوا رواتبهم . فاذا هو يشير اليه أن يعطيه رطلا . فبادر اليه وناوله ورحب به فشرب الجندي وهو واقف . ثم تجشأ ومشى متبختراً وأما العيار فتناول القدح وأدناه من فيه وهو يقول « بورك فيك يا معلم سمعان والله اني متى صرت عريفاً أو مقدما جعلتك عياراً عندي »

فقهقه الجندي وتقدم الى سمعان فوضع يده على كتفه وقال وفي لهجته بجمة لانه فرغاني الاصل من ابناء الجنود الذين استقدمهم المنصور في أيامه « وأنا أعاهدك متى حدث الانقلاب القريب وقبضنا الرواتب المعلومة أعطيك ثمن هذه الارطال وزيادة وأظنني مديوناً لك بشيء من قبل . . ولكن ما العمل لابد من الصبر . . »

فقطع العيار كلامه قائلا « وأنتم أيضاً تشكون القلة والفقر ولكم رواتب تقبضونها ؟ »

قال « صدقت ياصاحب اننا نقبض رواتبنا ولكنها لاتفي بالمطلوب للمرأة والاولاد وهل يقوم بالجندي غير الغنائم في الحرب أو ؟ . . » وتوقف وهو يحاول التكلم همساً خوفاً ممن يسمعه فسبقه العيار وقال « أوعندحصول التغيير والتبديل في قصر الخلافة تقبضون الرواتب وأضعاف أضعافها غير حق البيعة . ولكن طب نفساً فان ذلك قريب »

فوضع الجندي يده على فم صاحبه يريد اسكاته حذراً من الفضيحة وكان سمعان يسمع جدالهما ولا يهمه مما يسمعه الا ما يتوسم من ورائه قبض دينه . فلما رآهما يحاذران الكلام وهما بالباب تقدم اليهما وقال « تفضلوا وادخلوا » وأشار الى الحصير كأنه يدعوهما للجلوس فدخلا ومد العيار يده الى البربط المعلق على الحائط فتناوله ودفعه الى الخمار وقعد وهو يقول « بلغني انك تحسن الغناء والضرب على البربط لقرابة بينك وبين برصوما الزمار . . فاسمعنا »

فتناول سمعان البربط وهم باصلاحه وهو يتمتم « ياليتني كنت من أقارب برصوما فانه من المقربين عند مولانا أمير المؤمنين يقبض الجوائز والرواتب . . »

فقال الجندي « لو كنت تحسن النفخ بالمزمار لكنت أصبت مثل حظه أو حظ ابراهيم الموصلي المغني أو . . ولكن أشكر الله على حالك فان التقرب من ذلك القصر لا يخلو من الخطر على الحياة ومهما يكن من حسن حظك فهل يكون أحسن من حظ البرامكة ؟ وأنت تعلم مصيرهم . . . »

فقطع العيار كلامه قائلا « أراك ياصاحبي من الفلاسفة ورجال الزهد. أما أنا فادخلني قصر الخلد واجعلني مغني الخليفة أو زامره أو شاعره ولما يأتي الخطر يفرجها الله . أو اجعلني على الاقل جنديا مثلك . تتناول الراتب وأنت قاعد وإذا ذهبت الى الحرب عدت بالغنائم والاسلاب ومعك السبايا من النساء الجميلات » وتنحنح مبتسما

فابتدره قائلا وهو يهز رأسه « اذا عدت حياً . . »

فاتم العيار كلامه « لماذا لم تذهب في الحملة التي سار فيها أمير المؤمنين الى سمرقند منذ بضعة أشهر لمحاربة رافع بن الليث . ألا تتوقع منها فوزاً ؟ »

قال « لايعلم المستقبل إلا الله . . وأما ذهابنا فلا يتعلق برأينا وانما هو يرجع الى ارادة قوادنا . وزد على ذلك أن الرشيد خرج في هذه الحملة وهو مريض وأناب ابنه محمد الامين في بغداد والامين كما تعلم كريم الخلق جواداً لايخشى بأسه مثل أبيه وأظن هذا من حسن حظكم أيضاً لاني أرى كبيركم الحسن الهرش مقرباً من البلاط كانه صار من رجال الدولة »

فقال العيار « يظهر كذلك . . ولكن لايتم حظنا الا . . (وتلفت يميناً وشمالا وخفض صوته) الا متى صار الامين خليفة فربما حسدتني على العيارة كما أحسدك الآن على الجندية . . . » ثم حول وجهه فجأة نحو البستان وصاح « اني أشم سمكا يشوى »

وكان الخمار في أثناء هذا الحديث لايزال مشتغلا باصلاح البربط والليل قد أسدل نقابه فظهرت النار الموقدة هناك والدخان يتصاعد عنها

فوضع الخمار البربط من يده وصاح « نسيت السمكة على النار » ولم يكن له بد من انارة السراج . . فتقدم الى سراج من الخزف موضوع على مسرجة مسمرة بالحائط فأصلح فتيلتها بسبابته وأخذ في انارتها فأتى بالقداحة والصوانة

والعطبة أو الصوفانة فوضع الصوفانة على طرف الصوانة وضرب عليها بالقداحة (الفولاذ) فخرجت شرارة أشعلت الصوفانة فأتى بعود رأسه مغموس في الكبريت وأدناه من رأس الصوفانة فاشتعل الكبريت وأشعل العود فقربه من الفتيلة فأوقدها فأضاء السراج . واغتنم العيار اشتغال الخمار بهذه العملية واسرع الى السمكة فتناولها عن النار بيده وهو لايبالى بحرارتها وهرول الى الجندي فوضعها على رغيف بين يديه وصاح بالخمار « الى بقدحين من النبيذ القطربلي »

فقال « ليس عندي من نبيذ قطربل ولكنني أسقيكما نبيذاً مصنوعاً من الدوشاب البستاني مع العسل » وجاءهما بخمر قوية وناولهما وهو يظهر الترحيب ويسايرهما ويستعيذ بالله منهما وهما يضحكان ولايباليان وهو يشاركهما بالضحك

الفصل الثالث

الملفان سمعدون والهرش

وبينما هم في ضحكهم وهرجهم سمعوا رجلا ينادى « السمك الطري أربعة أرطال عند بيطار حيان » وهي مناداتهم على السمك في ذلك العهد . فوثب وهو يقول « لقد سنحت لنا فرصة نكافئك فيها يامعلم سمعان » وتناول حصاة من المخلاة وضعها في المقلاع وخرج من باب الخمارة وقال « اسرع والتقط السمك عن الارض » فعلم سمعان أن العيار سيرمي ذلك المسكين بالمقلاع فأشفق عليه وأمسك العيار بيده فأوقفه عن الرمي ونظر الى البائع في الطريق وهو لايكاد يميزه من العتمة فاذا هو فقير عارى الساقين والذراعين لايستره الا ثوب خلق وعلى رأسه فوق العمامة طبق من القش والسمك ظاهر فوقه . فانتثر العيار من يد الخمار وقال « دعني أعوض عليك السمكة سمكتين »

فقال « أخاف أن تقتل الرجل . . لا حاجة لى بالسمك »

فضحك العيار وقال « لاتخف اني أرمي السمك فقط ولا أمس الرجل ولا طبقه وسترى » قال ذلك وأطلق الحجر من المقلاع فلم تصب إلا أعلى السمك فسقط بعضه والرجل ماش لم يشعر . وكان للعيارين مهارة عظيمة برمي الحجارة وكان بيد السماك رغيف فقال العيار للحمار « وأرمي لك الرغيف اذا شئت » فوقعت هذه الالفاظ في اذني الرجل فالتفت ولما رأى العيار ذعر ورمى الرغيف الى الارض وصاح « هذا الرغيف خذه ودعني » وولى هاربا . فأسرع العيار ومعه السمكتان والرغيف وهو يضحك فتناولها الحمار وهو يعجب من تلك الخفة ودخل ليشويهما وهو يتوسل الى الله في باطن سره أن ينقذه من تلك الورطة بالتي هي أحسن

وكأن الله استجاب طلبته فانه ماعتم أن سمع وقع حوافر وصلصلة لجام انتهت عند باب بستانه وآنس سكوتا بعد تلك الضوضاء وكأن الرفيقين أصيبا بالجمود فالتفت نحو الباب وعيناه تدمعان من الدخان ويكاد الدخان يحجب بصره فرأى رجلا طويل القامة مع انحناء قليل تدل هيئته على السكينة والوقار وعلى رأسه عمامة سوداء اللون كبيرة الحجم وقد اكتسى جبة طويلة تحتها ثوب عسلي اللون حوله زنار مشدود وهو لباس أهل الذمة في ذلك العصر وقد شك في الزناد دواة من الفضة . وكان وجهه صبوحاً مع رقة ونحافة حتى يكاد يلتصق الجلد بالعظم مع بروز الوجنتين . وعيناه سوداوان براقتان تدلان على الذكاء وأنفه كبير منحن قليلا وله لحية كثيفة مسترسلة قد دب فيها الشيب تتصل من الجانبين بسالفين كثين . دخل الرجل وهو يتوكأ على عكاز بيمينه وقد تأبط بالذراع الاخرى شيئاً تحت الجبة

فلما رآه الحمار علم انه من وجهاء الصابئة أو عالماً من علمائهم فاستغرب مجيئه اليه لان الحانات لا نصيب لها من أمثال هذه الطبقة من الناس فتنحى العيار والجندي وتقدم الحمار وانحنى كأنه يستفهم عما يأمر به

فقال الرجل بصوت خشن هادىء « أليس هذا خان المعلم سمعان ؟ »

ففرح الحمار باشتهار اسمه على ألسنة أكرم القوم وقال « نعم يا سيدي »

قال « وهل في بستانك مكان للاستراحة ؟ »

قال « نعم يا مولاي تفضل . . »

فدخل الخمار مهرولا نحو البستان ودخل الرجل في أثره وهو يقول له « اذا سألك المقدم الهرش الليلة عن الملفان سعدون قل له انى في انتظاره هنا » — والملفان رتبة علمية عند السريان تقابل (دكتور أو علامة) اليوم

وكان العيـار والجندي واقفين ينظران الى الرجل فتذكر العيار أنه رآه قبل هذه المرة فلما سمعه يذكر الهرش مقدم العيارين أجفل وتذكر أنه شاهده مع الهرش غير مرة فرأى حينئذ من الحكمة ان يخرج من ذلك المكان قبل مجيء مقدمه . فتحول وخرج وأما الجندي فأحب البقاء ليطلع على ما عساه أن يكون من هذا الاجتماع وهو يندر في مثل هذا المكان خارج المدينة فجلس على وسادة فوق الحصير بقرب الحائط وجعل سيفه في حجره والحائط بينه وبين البستان

أما الخمار فسره قدوم ذلك الصابىء وما يتوقعه من قـدوم الهرش فربما تعشيا هناك أو شربا فيقبض منهما ما يعوض خسارته في ذلك المساء فأسرع بين يدي الرجل وكان هذا لطول قامته يخاف ان تعلق عمامته ببعض الاغصان فمشى مطأطىء الرأس حتى وصل الى مصطبة مطلة على نهر جعفر تظللها شجرة كبيرة وفوق المصطبـة حصير عليه وسادتان فأجلسه الخمار هناك وهرول راجعاً حتى اتى بالسراج الذي كان في الحانة فوضعه على أرومة شجرة بجانب المصطبة كان قد قطعها منذ أيام وسأل سعدون هل يحتاج الى شيء من طعام أو شراب فقال « كلا » واتكأ على إحدى الوسادتين ووضع العصا بجانبه واستخرج من كمه جراباً صغيراً وضعه بين يديه . فتركه الخمار وعاد ومكث الرجل جالساً يتشاغل بتمشيط لحيته بأنامله ويستأنس بعنين ساقية تدور في بستان قريب

ولما رجع الخمار الى الحانة أتى بسراج آخر أضاءه فرأى الجندي وحده هناك فسأله عن رفيقه فقال « انه فر خوفا من أميره الهرش . وما رأيك بهذا الصابىء أظنه سيعوض عليك ما خسرته علينا . . »

قال « إن شاء الله »

فقال الجندي « لابد من سبب هام لالتقاء هذا والهرش هنا »

قال سمعان إني أرجو ذلك وهؤلاء الصابئة أهل سحر ونجامة لاتخفى عليهم خافية ولعل الهرش بما اشتهر به من كشف المخبآت انما يستعين على كشفها بسحر هذا الصابىء »

فهز الجندي رأسه وأومأ بعينيه أن (نعم) وأصبح خائفاً من أن يطلع سعدون بسحره على أفواله فيؤذيه فسكت . واشتغل الخمار عنه بالتقاط ما وقع في أرض الحانة من آثار الاكل والشرب استعداداً لمجيء الهرش

ثم ما لبثا ان سمعا فرس الصابىء يصهل صهيلا قويا وكان مربوطا بجانب الطريق يحرسه غلام وأجابه صهيل مثله عن بعد فاستبشر الخمار ان أناساً من أهل الوجاهة قادمين اليه ثم اقتربت اليه الاصوات واتضح وقع الحوافر واذا بفارس وقف بالباب وبين يديه غلام بلباس العيارين الذى ذكرناه وهو ينادي « يا معلم سمعان ... »

فاسرع الخمار وقال « نعم » ونظر الى الفارس فرأى لباسه فاخراً وعلى رأسه قلنسوة قصيرة حولها عمامة وسراويله قصيرة وقد تقلد السيف وحول ساقيه لفائف من الجلد (طماقات) الى الكعب فوق النعال فقال الغلام « هل جاءك الملفان سعدون ؟ »

قال « نعم هو في هذا البستان » وعلم للحال ان الفارس هو الهرش مقدم العيارين فتقدم وأمسك بلجام الفرس والركاب حتى ترجل الهرش ومشى وكان قصير القامة ممتلىء الجسم ومع ما يظهر من كهولته لا يزال سريع الحركة قوى البدن اذا مشى تبختر تيهاً وخيلاء وكان غليظ الشفتين خفيف اللحية والشاربين أشيبهما وعلى جبهته ندبة غائرة من أثر جرح أصابه في صباه في بعض المعارك كاد يقضي عليه وهو يفاخر أقرانه بهذا الاثر . وكان كبير العينين لا يبرح الاحمرار ظاهراً فيهما كأن صاحبهما ناهض من رقاد عميق . واذا علمت ان الرجل أمير العيارين هان عليك الحكم على اخلاقه والعيارون يرتزقون بالسرقة والتعدى ونحو ذلك والحكومة ساكتة عنهم

لانهـا كثيراً ما كانت تستعين بهم في بعض الاحوال واذا أعانوها وأخلصوا لهـا نفعوها لانهم أقدر الناس على كشف أخبار الدعارة وتتبع اللصوص . وكانت الحكومة يومئذ تستعين بهؤلاء وأمثالهم حتى باللصوص أنفسهم وكان عندها طائفة منهم تابوا عن اللصوصية ففرضت لهم الرواتب وسمتهم التوابين تزعم أنها تستخدمهم في كشف السرقات (١) ويندر ان يخلصوا لها الخدمة والغالب أن يشتركوا مع اللصوص عليها — وتكثر أمثال هـذه المفاسد في الحكومات الاستبدادية اذا ضعف صاحبها وطمع رجاله بالأموال وفسدت النيات وأصبح الناس عيوناً بعضهم على بعض

الفصل الرابع

الكيمياء

أما الهرش فدخل البستان ووقف غلامه بالفرس في منعطف الطريق . وأسرع الخمار في أثر الهرش حتى أوصله الى المصطبة فوقف له الملفان ورحب به والهرش يهش له ويبش حتى جلس الى جانبه وأشـار الى الخمار انهما لا يحتاجان الى شيء . ففهم أنهما يريدان الخلوة فرجع حالا وأشار على الجندي أن ينصرف لئلا يكون وجوده باعثاً على شك فانصرف آسفاً

أما الهرش فنظر إلى رفيقه وتبسم قائلا « أظنني أبطأت عليك »

قال « لم يطل انتظاري الا قليلا »

قال « اني في شوق الى رؤيتك ولولا ذلك لم أستطع المجيء اليك ولاسيما اليوم لغياب أمير المؤمنين الرشيد عن بغداد »

فقال « أليس ابنه الامين مكانه فيها ؟ »

قال « بلى . ولـكن هذا الغلام — وأنت أعلم مني طبعاً — لايستطيع ضبط الامور كما يضبطها أبوه فضلا عن اشتغاله بالجواري والغلمان والـكاس والطاس . . فتراني لا أخرج من منزلي إلا قليلا وترى رسول صاحب الشرطة

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ٤٦ ج ٥

ذاهباً جائياً يحمل الى الاسئلة عن بعض الغوامض كأني الملفان سعدون الصابىء الحراني أضرب المندل واستطلع الغيب بالنجوم . . . » قال ذلك وضحك وهو انما أسرع الى ذكر الرجل لينتقل الى الغرض الذي جاء من أجله. فادرك سعدون غرضه وتجاهل قائلا « العفو أيها الامير ان ما يستطيعه مقدم العيارين يعجز عنه مثلي وأنا اذا عرفت شيئاً فيدلني عليه الكتاب والحساب وأما أنت فتعرفه بفراستك وشجاعتك »

فاعجبه ذلك الاطراء فقال « هب اني اعرف كل شيء فيكفيني عجزي عن معرفة مقرك لاني قلما ابحث عنك واجدك الا اذا كنا على موعد »

قال « ذلك لايدل على عجزك بل هو من سوء حظي لان اشتغالي بالكيمياء فضلا عن المندل والنجامة يقضي علي بالانزواء معظم الايام ولذلك رأيتني تركت أهلي وهجرت حران لئلا يشغلوني عن عملي . وقد طال بعدي عنهم حتى أصبحوا لايعرفونني ولا يدرون مقري ولو سألتهم عني لانكروا أمري »

ففرح الهرش بتطرق الرجل الى ذكر الكيمياء ليسأله عما فعله بقطعة من النحاس دفعها اليه منذ أيام ليطبخها له ويحولها الى ذهب فقال له « أظنك طبعاً نسيت صديقك الهرش ولم . . . »

فقطع سعدون كلامه قائلا « كلا اني لا انسى مولاي المقدم وابشره ان حظه في أسمى الطوالع لاني وفقت في طبخ نحاسه توفيقاً غريباً يندر مثله . »

فاستبشر الهرش بالغنى القريب لانه كان قد دفع اليه قطعة كبيرة من النحاس فاذا صارت ذهباً اعطاه غيرها حتى يصير غنياً فلم يتمالك عن القول « هل صحت الطبخة ؟ »

فتبسم سعدون ومد يده الى ذلك الجراب وحله واستخرج منه سبيكة من الذهب الابريز وهو يقول « نعم ياسيدي وهذه هي القطعة التي جربتها ومتى نضج الباقي دفعته اليك » ثم قال همساً وهو يناوله السبيكة واظنني لا احتاج الى تنبيهك ان تكتم ذلك عن سائر الناس فاني لا أحب ان . . وأنت تعلم السبب »

فتناول الهرش السبيكة وادناها من لهيب السراج وتفرس فيها فاذا هي ذهب لاريب فيه . على أنه خاف أن يكون في الامر خداع لانه تعود المخادعة والمداجاة وكانتا رائجتين في ذلك العصر لفساد النيات وتجسس الناس بعضهم على بعض . وهو أكثر أهل بغداد اطلاعاً على ذلك لان منصبه يسهل عليه كشف الاسرار فجعل يروز تلك السبيكة بيده ليتحن وزنها . فلما رأى سعدون شكه قال بهدوء ورزانة وفي صوته لهجة العتاب « لاتشك ياسيدي . فاذا بعتها في سوق الصياغ غداً تعلم صدق قولى . . ولا ألومك على الشك لان الناس لم يتعودوا الصدق ولا تحققوا نجاح الكيمياء إلاقليلا ويغلب في من يصح طبخه أن يستأثر بالذهب لنفسه . . »

فخجل الهرش لهذا التوبيخ اللطيف وزاد احتراما للملفان سعدون وثقة به وأسرع للاعتذار فأنكر ارتيابه وقال « حاشا لي أن ارتاب بصدقك ولست حديث العهد بمعرفتك فكم كشفت لى من المخبئات وأطلعتني عليه من الاسرار حتى صرت أعدك أخى بل أعز من اخي »

فقال « كيف تكون مسلماً ويكون أخوك صابئاً ؟ هل ترضى ذلك لنفسك؟ » وضحك وهو يلف درجاً كان يقلبه في أثناء الحديث وجعله في الجراب الذي استخرج السبيكة منه

أما الهرش فأدرك أنه يمازحه فقال « اذا كان الصابئة كلهم مثل الملفان سعدون فانهم اخوتي جميعاً وأكرم بها من طائفة عندها علم النجوم . . و . . » ثم سكت وهو يصغى كأنه يسمع صوتاً ثم قال « كأنني اسمع قرقعة لجم البريد »

وكان الصابىء قد ربط الجراب فوضعه تحت إبطه وتحفز للنهوض وهو يقول « انه بريد خراسان ومعه خبر هام . . . ألا ترانى أتهيأ للنهوض من قبل ؟ . . »

فازداد الهرش اعجاباً بمقدرة سعدون وهمه قوله ان البريد قادم من خراسان بخبر هام . فنهض وهو يصلح قلنسوته ويحمل سيفه بمنطقته ويقول «صدق من قال — ان لقرقعة لجم البريد رهبة — دعنى أذهب لملاقاة

صاحب البريد لعلى أستطلع منه خبراً . . إني أسمع قرقعة اللجام تقترب من هذا المكان »

ومشى مسرعا وسعدون يمشي في أثره على مهل وقبل أن يصل الهرش الى باب الخان رأى بغل البريد وقف بالباب وراكبه ملثم وقد شد وسطه بهميان عريض والبغل يلهث من التعب وقد تصبب العرق عن صدره وارغى بعضه تحت اللجام وصاح الفارس بالخمار « اسقني يا سمعان »

الفصل الخامس

الخبر الهام

فاسرع الرجل الى كوبة ملأها ماء ودفعها اليه وكان الهرش قد وصل فلما وقعت عينا حامل البريد عليه ترجل قبل ان يشرب وهم بتقبيل يده فأومأ اليه أن يشرب ففعل ودفع الكوبة الى الخمار واقترب من الهرش فأسر اليه كلمة وجعلا يتهامسان وسعدون واقف على عتبة الخانة مما يلي البستان لا يسمع شيئاً ولكنه لحظ من بغتة الهرش عند سماع كلام الرجل ان الخبر الذي يحمله من خراسان عظيم الاهمية ولم يطل تهامسهما فاعتذر البريدى وركب البغل وأطلق له العنان . فتحقق سعدون من هذه السرعة عظم أهمية الخبر وإلا لتمنى حامله ان يقف هنيهة مع مقدم العيارين . فدخل سعدون الخانة فرأى الهرش مقبلا عليه والبغتة ظاهرة في وجهه يمازجها ارتياح . وآنس مع انقباض اسرته ابتسامة حول فمه فأدرك بفراسته ان الخبر يتعلق بالرشيد لأنه في خراسان وقد ذهب اليها مريضا وكان قد علم من أخبار خصوصية ان المرض اشتد عليه ولا يرجى شفاؤه . ولذلك لما سمع قرقعة لجم البريد قال إنه من خراسان يحمل خبراً مهما فترجح عنده ان البريد انما يحمل موت الرشيد فلما رأى الهرش قادماً اليه تبسم وهز رأسه وقال « لكل أجل كتاب . . »

فبغت الهرش لقوله وعده نبوءة وأمسك بيده وتنحيا على انفراد وخاطبه همساً هل علمت بموته .. وكيف عرفت ذلك ؟ »

قال « رحم الله الرشيد إنه مات غريباً وقد كنت أتوقع موته منذ خرج فى هذه الحملة عرفت ذلك من طالعه . . وأراك سررت بموته . ويحق لك السرور كما يحق لسائر الامراء والاجناد لانكم ستقبضون رواتب جديدة — وخصوصاً أنت فانك أوفر حظاً من سائر الامراء في هذا الشأن لان الأمين اذا تولى الخلافة زاد في تقريبك . . » وتنحنح وتظاهر أن السعال شغله عن اتمام كلامه

فتناول الهرش الحديث عنه وقال « ولكن حامل البريد مع ثقته بي ورغبته في ارضائي كتم عني خبراً آخر قال انه في غاية الاهمية واعتذر انه لايقدر أن يقوله لى الآن وانني سأعرفه قريباً . . »

فقطع سعدون كلامه وقال « لاشك انك ستعرفه لانه سينشر على رءوس الملأ ولو كان كتاب المندل معي لاستطلعته في هذه الدقيقة ولكن . . » وتحفز للخروج كأنه يستعجل في الذهاب لعمل المندل ونادى غلامه أن يأتيه بالفرس فاستوقفه الهرش قائلا « أراك مسرعا وأنا في حاجة اليك . . »

قال « انى رهين ماتريد ولكنني أحب الاطلاع على بقية الخبر . »

فقال « حسناً ولكننا تواعدنا على الاجتماع هنا لنتكلم فلم يطل مقامنا وزد على ذلك أن اخانا علي بن عيسى بن ماهان صاحب الشرطة يحب أن يراك لانني كثيراً ماذكرتك بين يديه وحكيت له عن معجزاتك . . »

فقطع كلامه قائلاً « اخاف انك ذكرت الكيمياء . . »

فضحك الهرش وهو يتشاغل برفع حمائل سيفه وقال « الكيمياء ؟ . كلا ولكنني قصصت ما أنت عليه من المهارة في النجامة والمندل فرأيت فيه ميلا لرؤيتك وأوصانى ان آتيه بك واظنه يفيدك لانه صاحب شرطة بغداد وله شأن كبير ولا سيما بعد هذا الخبر فان مولانا الامين يعول عليه ويحبه . . وهذه فرصة لى ايضاً لأكافئك على حسن صنيعك . .

فاطرق سعدون هنيهة وهو ينتف عثنونه وينكث الارض بعكازه ثم قال « دعني أذهب وأعود اليك بالخبر الليلة اذا شئت »

قال « اذا كنت تقدر على الرجوع الليلة فلا بأس من ذهابك ولو جئت

في منتصف الليل فانك تجدني في قاعة العيارين بالحربية وانت تعرفها . ومتى جئتني أسير معك الى منزل صاحب الشرطة وسيكون ساهراً . ولا أظنهم ينامون الليلة اذا بلغهم ما بلغنا من أمر الرشيد لان موته سيحدث تغييراً مهماً أرجو ان يكون لى منه نفع . . ولك أيضا . . » قال ذلك ومد يده الى يد سعدون كأنه يحييه ثم نادى غلامه فجاء وهو يحمل صندوقا صغيراً وعصا وملاءة مما قد يحتاج اليه الهرش في أثناء الطريق فأشار اليه أن يدفع للحمار فدفع اليه صرة صغيرة فيها دراهم فأثنى الحمار وهرول وأكب على يد الهرش يقبلها فمنعه فالتفت سعدون اليه وقال « هل جاء الامير الهرش اليك الليلة ؟

فأدرك الحمار انه يعرض برغبته في كتمان ذلك فأجابه « كلا يا مولاي ولا الملفان سعدون . كن مطمئناً »

فالتفت الهرش الى سعدون وهو يضحك فقال سعدون « اركب انت أمامى ثم اركب أنا حتى لانترك أثراً لاجتماعنا »

فقال الهرش « اراك تبالغ في الكتمان يا صديق وليس في ما فعلناه ما يوجب هذا التستر . . ولا كان ثمة باعث لخروجنا الى طرف المدينة لهذا الاجتماع . . »

فقال وهو يخفض صوته « يهمني التكتم بأمر الكيمياء فقط . . واني أرى للجدران آذاناً وللشوارع ألسنة فاعذرنى . . »

فقال حسناً وركب الهرش ومشى الغلام بركابه في شارع خراسان غربا نحو الجسر ومنه غرباً جنوبياً نحو الحربية

فلما تحقق سعدون ذهابه ركب وأدار شكيمة جواده جنوباً شرقياً نحو المخرم يلتمس القصر المأموني

الفصل السادس

القصر المأموني

كان هذا القصر على عهد قصتنا هذه في جنوبي القسم الشرقي من بغداد فوق قصر الامين وكلاهما ظاهر في الخارطة . وكان يسمى قبلا القصر الجعفري نسبة الى جعفر البرمكي وزير الرشيد . والسبب في بنائه أن جعفراً كان شديد الشغف بالشرب والغناء كما يتضح من مطالعة رواية « العباسة أخت الرشيد أو نكبة البرامكة » وكان أبوه يحيى رجلا جليلا ذا رأي وعقل وكان يخاف على ابنه عاقبة هذا التهتك فنهاه فلم ينته فأوصاه أن يستتر عملا بالحديث المأثور فابى . فلما أعيته الحيلة في رده قال له « ان كنت لا تستطيع الاستتار فاتخذ لنفسك قصراً بالجانب الشرقي من بغداد (وكان لا يزال ذلك الجانب قليل العمارة) واجمع فيه ندماءك وقيانك واقض فيه معهم زمانك وابعد عن عين من يكره ذلك منك »

فقبل جعفر هذه النصيحة وأمر ببناء قصره بالجانب الشرقي كما تقدم وبذل في بنائه مالا كثيراً . فلما تم بناؤه سار اليه في جماعة من أصحابه فيهم صديق مخلص له اسمه مؤنس بن عمران وكان عاقلا فطافوا القصر كلهم واستحسنوه ولم يبق منهم أحد لم يقرظه ويمدحه بما يبلغ اليه امكانه إلا مؤنساً فانه ظل ساكتاً فقال له جعفر « مالك ساكتاً لا تتكلم وتدخل معنا في حديثنا ؟ »

فقال « حسبي ما قالوا »

فأدرك جعفر أن تحت قوله شيئاً يكتمه فقال « لقد أقسمت لتقولن شيئاً »

فقال « أما اذا أبيت إلا أن أقول فلك علي ذلك »

قال « نعم واختصر »

فقال « أسألك بالله ان مررت بدار بعض أصحابك ورأيتها خيراً من

دارك هذه ما كنت صانعاً ؟ » يشير الى ما كان في نفس الرشيد على جعفر من اكبار ما بلغ اليه من الثروة والنفوذ دونه »

ففهم جعفر مراده فقال « حسبك قد فهمت فما الرأى ؟ »

قال الرأى « اذا صرت الى أمير المؤمنين وسألك عن تأخرك فقل انك كنت في القصر الذي بنيته لمولانا المأمون واجعل انك بنيته له »

فاعجبه رأيه وأقام في القصر بقيـة ذلك اليوم ثم ذهب الى قصر الخلد ودخل على الرشيد وكان الجواسيس قد نقلوا اليه خبر بناء ذلك القصر ولم يكن في قصور الخلفاء مثله فقال له « من أين أتيت وما الذي أخرك الى الآن ؟ »

قال « كنت في القصر الذى بنيته لمولاى المأمون بالجانب الشرقي على دجلة »

فقال الرشيد « للمأمون بنيته ؟ »

قال « نعم يا أمير المؤمنين لأنه في ليلة ولادته جعل في حجري قبل ان يجعل في حجرك واستخدمني أبي لهفدعانى ذلك الى ان اتخذت له بالجانب الشرقى قصراً لما بلغني من صحة هوائه ليصح مزاجه ويقوى ذهنه ويصفو . وقد كتبت الى النواحى باتخاذ الفرش لهذا الموضع وبقى شيء لم يتهيأ اتخاذه فعولنا به على خزائن مولانا أميرالمؤمنين إما عارية أوهبة »

فلما سمع الرشيد قوله سرى عنه وأسفر وجهه ووقع منه بموقع القبول وقال مسرعا « بل هبة . أبى الله أن يقال عنك إلا ما هو لك أو يطعن عليك إلا ليرفعك ووالله لا يسكنه أحد سواك ولا أتم ما يعوزه من الفرش إلا من خزائننا » وزال من نفس الرشيد ما كان يخامره وظفر جعفر بالقصر على أهون سبيل ولم يزل يتردد اليه أيام فرحه واقبال سعده وسمى « القصر الجعفري »

فلما أوقع الرشيد بالبرامكة سنة ١٨٧ هـ واستباح قصورهم وأموالهم انتقل هذا القصر إلى المأمون بن الرشيد وهو ولى عهد المسلمين بعد الامين فاحبه المأمون وهو يومئذ في أوائل الشباب وصار أحب المواضيع اليه وأشهاها لديه وأخذ في توسيعه من جهة البرية فأضاف اليـه قطعة من الارض عملها ميدانا

لركض الخيل والحلبة في أيام السباق واللعب بالكرة والصولجان وبنى في جوانب القصر حيزاً حبس فيه أصناف الوحش من السباع وغيرها وفتح له باباً شرقياً يشرف على البرية وأجرى فيه نهراً ساقه من نهر المعلى وابتنى مثله وقريباً منه منازل برسم خاصته وأصحابه وسمي القصر من ذلك الحين «القصر المأمونى» وعرفت تلك الجهة بجهة المأمونية وصار فيها بعد ذلك شارع اشتهر بهذا الاسم في بغداد ولهذا القصر تاريخ طويل (١)

الفصل السابع

الفضل بن سهل

وكان المأمون وهو ببغداد في أثناء ولاية العهد الى سنة ١٩٢ هـ قد أسكن فيه الفضل والحسن بني سهل ولهذين الرجلين شأن في تاريخه . فلما عزم الرشيد على خراسان لمحاربة رافع بن الليث في ما وراء النهر وكان قد ثار على الدولة وعجز العمال والقواد عن اذلاله حمل الرشيد عليه بنفسه واستخلف على بغداد ابنه الأمين والياً عليها وأمر ابنه المأمون ان يبقى فيها وكان قد أوصى له بخراسان يتولاها بعد موته ريثما تفضي الخلافة اليه اذا مات الامين

والفضل بن سهل فارسى من سرخس ذو مطامع في السلطة وفي نفسه نقمة على الرشيد لأنه قتل جعفر البرمكى غدراً كما نقم عليه سائر رجال الفرس وتعاقدوا سراً على الأخذ بالثأر فتوجهت آمالهم الى المأمون لأن أمه فارسية وقد شب في حجر جعفر البرمكى على الميل الى الشيعة العلوية وهي جامعة الفرس . وكان يحيى والد جعفر قد اختار الفضل بن سهل لخدمة المأمون وكان الفضل مجوسيا فأسلم على يده طمعاً بنصرة الفرس وكان المأمون يجله ويقدمه

فلما سافر الرشيد في تلك السنة وطلب الى المأمون البقاء في بغداد خاف

(١) معجم ياقوت ٨٠٦ ج ١

الفضل ان يموت الرشيد في الطريق فيذهب سعيه هدرا فجاء الى المأمون وقال « لست تدري ما يحدث بالرشيد وخراسان ولايتك ومحمد الامين المقدم عليك وان أحسن ما يصنعه بك أن يخلعك وهو ابن زبيدة وأخواله بنو هاشم وزبيدة وأموالها كما تعلم فاطلب الى امير المؤمنين أن تسير معه » فطلب المأمون ذلك من أبيه فامتنع أولا ثم أجاب وذهب معه الفضل وأخوه الحسن

وخلف المأمون بعض أهله في ذلك القصر ومعهم الخدم والعبيد وعليهم قيم يتولى ادارة شؤون بيت المأمون وأمواله وضياعه

وكان القصر المأمونى نفسه على شاطىء دجلة الشرقى واجهته تشرف على النهر ولها شرفات ورواشن وفي قاعات القصر أنواع الفرش المذهبة والنمارق المقصبة المحمولة من الانحاء البعيدة وقد زخرفت أبوابه بالستور وملئت خزائنه بأنواع الطرف مع ما تحتاج اليه القصور من الجوارى والخدم والخصيان وهم يعدون يومئذ من ادوات المنزل التى لابد منها

وكان للقصر مما يلي دجلة مسناة من رخام ترسو عندها السفن يعدون اليها من الماء بدرجات من الرخام عريضة يحدها من الجانبين جدران من أساطين غليظة (درابزون) يظهر مما عليها من النقوش الفارسية أنها كانت لبعض الابنية الكسروية وحملت الى هناك . والمسناة عريضة تمتد من حافة الشاطىء الى سور القصر عند بابه الغربى . وبين يدي الباب ردهة فسيحة ربما فرشوها بالطنافس ونصبوا في جوانبها المقاعد لجلوس الناس اذا أرادوا مشاهدة مجرى دجلة وفيه السفن تمر صاعدة أو نازلة

وكان المأمون لما سافر مع ابيه في ذلك العام قد خلف في القصر ابنته زينب وتكنى أم حبيبة وهي يومئذ في إبان الصبا لم تدرك الثانية عشرة من العمر وكانت مثل أبيها ذكاء ونباهة واستقلالا في الفكر ومثل جدها الرشيد أنفة وتعصباً لبني هاشم . وكانت مع صغرسنها قوية الارادة مستبدة في رأيها وكان أبوها يعرف فيها ذلك وهو لا يريد تلك العصبية لرغبته في اصطناع الفرس . فعهد بتربيتها الى الجارية التى ربته هو وأصلها من جواري البرامكة في إبان

بجدم واسمها دنانير . وذلك ان المأمون لما جعل في حجر جعفر كما علمت عهد به في طفولته الى تلك الجارية وأوحى اليها رغبته في تربيته على حب الفرس فنشأ المأمون على ذراعيها وشب وهو يحترمها ويراعي جانبها ولما ترعرع أخذها اليه وجعلها في جملة جواريه . فلما ولدت ابنته زينب عهد بها الى دنانير وأوصاها أن تربيها على حرية الفكر وحب الفرس فبذلت جهدها في ذلك . ولكن الرشيد كان مولعاً بحفيدته هذه وهو الذي سماها زينب وكناها أم حبيبة وكثيراً ما كان يستقدمها اليه في ساعات الفراغ ويداعبها ويهديها العقود والاساور فكانت تشهد مجالسه الخصوصية مع امرأته زبيدة وهي كثيرة المفاخرة بنسبها الهاشمي فكانت زينب تسمع ما يدور بينهما من إعظام بني هاشم فينغرس ذلك في خاطرها عفواً فنشأت شديدة العصبية لهم رغم ما كانت دنانير تحاوله من نزع تلك العصبية . على أن زينب كانت تحب مربيتها وتحترمها وترتاح الى حديثها ولم تكن تكتمها أمراً يخالج ضميرها

الفصل الثامن

أم حبيبة ودنانير

وكانت الفتاة سريعة النمو جسما وعقلا يحسبها الناظر اليها تناهز السادسة عشرة وهي لم تدرك الثانية عشرة . وكانت صبيحة الوجه سوداء العينين براقتهما صغيرة الانف غائرة الشفتين بارزة الذقن يدل مبسمها على الثبات ورباطة الجأش وقوة العزيمة وعيناها تدلان على الذكاء وسرعة الخاطر . وكانت دنانير قد ربتها على سذاجة المعيشة ونزهتها عما كانت الرغبة منصرفة اليه يومئذ من التبرج والبذخ فكانت تقضي النهار ليس عليها من الثياب الا رداء ساذج وقد ضفرت شعرها ضفيرة واحدة ترسلها على ظهرها

أما دنانير فقد نشأت في منزل يحيى بن خالد البرمكي وكانت صفراء صادقة الملاحة أصلها لرجل من اهل البصرة خرجها وأدبها ورواها الشعر ثم اتصلت بيحيى البرمكي وهي فتاة فربيت في منزله — وهي غير دنانير المغنية التي اشتهرت

بالغناء وحفظ الشعر . أما هذه فكانت ميالة الى المسائل العقلية وكان مجلس يحيى لا يخلو من بحث أو مناظرة في علم أو أدب — وكذلك كان سائر البرامكة فانهم أول من نشط العلم في العصر العباسي . ولما تم يحيى بترجمة المجسطى الى العربية استقدم المترجمين اليه وكانت دنانير تسترق الاجتماع بهم وكثيراً ما كانوا يرونها مصغية لتستمع ما يتذاكرون فيه من المسائل الفلكية وأحكام النجوم في أثناء الترجمة ورفيقاتها الجواري يضحكن منها ويعيرنها برغبتها في علوم يعدونها من قبيل الرموز الغامضة التي لا يقدم على حلها إلا قهارمة العلم من اهل الذمة . وكانت المسائل الفلسفية حديثة العهد يومئذ في العربية اذ لم يكن ترجم منها غير علم النجوم وبعض كتب الطب في زمن المنصور والمهدى والرشيد . على أنها كانت تستفيد تلك المسائل مما يدور بين جلساء يحيى قبل نقلها الى العربية واشتهرت بين جواري البرامكة بحب العلم والتعقل . ولذلك فلما صار المأمون في حجر جعفر وعهد بتربيته اليها كانت وهي تلاعبه في الحديقة تحمل معها قرطاساً أو ورقا عليه رسوم فلكية أو مسائل طبية تراجعها وأول ما فتح عينيه وصار في سن الاستغراب والاستفهام لم يكن يسألها عن شيء إلا فسرته له بتعقل . ثم أخذت في تلقينه المسائل على قدر ما يتحمله سنه — لم تكن تفعل ذلك رغبة في تعليمه بل تلذذاً بالعلم فان محب العلم يلتذ بالقاء الحقائق كما يلتذ بتلقيها

فلم يترعرع المأمون ويئن تسليمه الى المعلمين حتى تولد فيه الميل الى البحث عن الاسباب والتماس البرهان عن كل شيء . فجره ذلك الى الاعتزال والتشيع مع الرغبة في العلم والفلسفة حتى كان ما كان من نقله كتب الاقدمين على ماهو مشهور

ونشأ المأمون على احترام دنانير احترام الولد لوالدته . وكثيراً ما كان يجالسها في ساعات الفراغ ويباحثها في بعض المسائل ويسر من تعقلها . فلما ولدت ابنته زينب سلمها اليها وهو على ثقة أنها تربيها كما يحب وكانت زينب كثيرة الشبه بوالدها من حيث الرغبة في البحث واستطلاع الاسباب فلم تكن دنانير تدخر وسعاً في ترقية مداركها فشبت وقد ماتت والدتها فكانت

تسمى مربيتها « ماما » فلا تناديها إلا بهذا الاسم . وربما أحبتها أكثر من حبها لوالدها لاشتغال المأمون عنها بأموره . على ان الآباء يومئذ قلما كانوا يعاشرون ابناءهم وانما يعهدون بتربيتهم الى الجواري فتربت زينب تربية فلسفية فنشأت لا تبالي الا بحقائق الامور وطرحت ماكان يتسابق اليه أترابها من اللعب والقصف وبلاط الخلفاء مسرح واسع لاسباب اللهو يومئذ حتى في القصر المأموني نفسه . فقد كان فيه كثير من وسائل اللعب يتمتع بها الجواري والخدم وزينب لا تميل الى ذلك ولا تخالط من الخدم غير مربيتها فكانت ألزم لها من ظلها تصاحبها حيثما توجهت فتخرج معها الى الحديقة لقطف الأزهار وتعرج الى بيوت السباع لتشاهدها في اقفاصها والسباعون يقدمون لها الطعام من قطع اللحم الكبيرة واذا أعوزها اللهو تشاغلت بالشطرنج وكانت هذه اللعبة حديثة العهد في بلاط الخلفاء لان الرشيد أول من لعبها منهم وكانت دنانير تجيد اللعب بها وربما شغلت بها زينب أحيانا . أو تخرجان معاً نحو الباب الغربي عند المسناة فتجلسان في روشن أو شرفة تتفرجان من بين الستور بمشاهدة السفن المارة في دجلة وكثيراً ما يكون الجلوس هناك مطربا لكثرة من يمر من اهل القصف والطرب ومعهم المغنون والعوادون

الفصل التاسع

الطبيب الخراساني

فاتفق في اليوم الذي بدأنا به روايتنا ان زينب كانت جالسة مع مربيتها في شرفة فوق المسناة تطل على دجلة وعليها رداء وردي اللون وفي عنقها عقد من اللؤلؤ أهداه اليها جدها الرشيد قبل سفره ودار بينهما الحديث في مسألة تتعلق بالطوالع والابراج وأشكل فهمها حتى على دنانير فقالت « ان هذه المسألة من المسائل العويصة فمتى جاء طبيبنا سألناه عنها . . »

قالت « وهل يفهم الاطباء بالنجوم ؟ . . »

قالت « يغلب في الطبيب أن يعرف كل علم ولاسيما أطباء الفرس وخصوصاً طبيبنا فانه من نوابغ الفلاسفة وقهارمة الاطباء ..وو... »

فضحكت زينب ملء فيها ضحكة فتاة لا تعرف من الدنيا غير أسباب المسرات وقالت والاستغراب باد في عينيها « فاذاً هو أعلم منك ؟ . » قالت ذلك لاعتقادها ان مربيتها أعلم أهل الارض — شأن الناس في من يشبون في حجره أو يتلقون العلم عنه فالاولاد يعتقدون الكمال في والديهم أو مربيهم ويتوهمون ان معلميهم من كبار الفلاسفة ولو كانوا أجهل من قاضي جبل . فيروون عنهم ويستشهدون بأقوالهم ويعظمون من أمرهم فاذا كان المعلم صغير العقل صدق تلميذه واعتقد في نفسه الفضل على العلماء والحكماء وقد يكون علمه محصوراً في مبادىء الصرف والنحو فيتوهم انه لا يشق له غبار فيزداد غروراً

أما دنانير فكانت تعلم حقيقة منزلتها فلما سمعت زينب تطرى علمها ابتسمت وقالت « ويلاه يا سيدتي انى لا أعرف شيئا وانما التقطت بعض المسائل من أفواه العلماء . وأما هذا الطبيب فقد تفقه في الطب والفلسفة بمدرسة جندي سابور المشهورة التى تخرج بها ابن بختيشوع طبيب أمير المؤمنين . ولكنه اعلم منه بأمور كثيرة ولا سيما بالكيمياء والنجامة ولولا ذلك لم يهتم الفضل ابن سهل بأمره حتى يوصي مولاى المأمون به .. »

فقطعت زينب كلامها وقالت « الفضل بن سهل أوصى به ؟ ومتى كان ذلك ؟ أليس الفضل مع والدي الآن في خراسان »

قالت « نعم هما معاً هناك وأما هذا الطبيب فانه جاءنا منذ بضع سنين بتوصية من الفضل بن سهل ذكر فيها انه نابغة خراسان في الطب والعلم حتى انك لترين ذلك ظاهراً في وجهه . . »

فقالت « فلماذا لا يقيم عندنا دائما ؟ هل منعه والدي من ذلك .. »

قالت « كلا ولكنه اعتذر لمولاي المأمون من يوم مجيئه انه لا يستطيع الاقامة عندنا لاسباب له خصوصية فاطاعه ... »

فقالت « وأين يقيم إذاً ؟ . . . »

قالت « بلغني أنه يقيم في المدائن كأنه استأنس بجوار إيوان كسرى أعظم ملوك الفرس وأعدلهم . وطيبنا فارسي . . . »

قالت «عرفت أنه فارسي من كلامه فانه حتى الآن لا يحسن النطق بالعربية ولو أقام هنا لتعود النطق لمخالطة البغداديين »

قالت « والمدائن قريبة منا فهي على بضع ساعات من هنا جنوبا »

قالت « قد كان ينبغي له ان يسكن هنا بعد ذهاب والدي وانتقالنا الى هذا القصر البعيد عن المدينة لنتقوى به لانه من الجبابرة كما يظهر من كبر هامته . ومع كثرة تردده علينا لا أزال الى اليوم لما يقبض على يدي ليجس نبضي أتهيب »

قالت «صدقت انه طويل القامة ولباسه المستطيل يزيده طولا وهو لطيف اللسان ؟ حسن الاسلوب قريب من القلب . لولا تغيبه عنا أحياناً بضعة أيام متوالية ربما احتجنا اليه في أثنائها ولا نجده والاطباء كثيرون عندنا لكنني شديدة الثقة بعلمه . . . »

فقطعت زينب كلامها ووضعت يدها على كتفيها وقالت بلحن الدلال والدالة « قولي له يا ماما أن يسكن في أحد هذه القصور هنا . . »

قالت « متى جاء ألتمس منه ذلك ولعله يجيب طلبي . . انى أرى سفينة صاعدة من الجنوب لعله يكون فيها »

وكانت زينب في أثناء الحديث تنظر الى مجرى دجلة وعيناها تتأملان ما على الشاطىء الآخر من النخيل القائم كالاصنام الهائلة يتراءى من خلالها في عرض الافق بر فسيح تغشاه الاشجار والاعشاب تتخللها أبنية متفرقة كأنها أحجار كريمة نثرت على ديباجة خضراء . وكانت الشمس قد مالت نحو الاصيل فوقعت أظلال النخيل على الماء واستطالت وتراءت في قاع النهر معكوسة كأنها نبتت مقلوبة جذورها عند الشاطىء وسعفها غائصة في الماء وجذوعها بين ذلك تتموج بتموج سطح الماء وتظهر متعرجة كأنها مؤلفة من قطع مرصوصة بعضها فوق بعض على غير انتظام . وتوهمك اذا رأيت

تموجها ان الحياة قد دبت فيها فتلوت كالافاعي تحاول الافلات ممن قبض على أذنابها فيخيل لك أنها على وشك أن تتملص جذورها من الشاطىء لتنساب في الماء

كانت زينب تتشاغل بهذا المنظر في أثناء الحديث فلما استلفتت دنانير انتباهها الى السفينة ظنت الطبيب راكباً فيها التفتت وقالت « وهل يأتينا الطبيب في الماء . . أم في البر فاني اعهده يجيئنا على فرس ؟ . . »

قالت « من هنا الى المدائن طريقان احدهما في البر والآخر في الماء »

الفصل العاشر

العجوز والفتاة

وكانتا تتكلمان وهما تنظران الى السفينة من خلال الستر فلم تعرفا من فيها . ثم توارت في أثناء جريها ببعض تعرجات النهر فاشتغلتا عنها قليلا . ثم ملت زينب الجلوس هناك وهمت بالنهوض فاذا هي تسمع فقش الماء على مقربة من القصر يتخلله نقر المواء على الشراع فالتفتت فرأت قارباً صاعداً بجانب المسناة وفيه نوتيان قد أخذا في حل الشراع وفي صدر القارب امرأتان التفت احداهما برداء قديم قد غير الزمان لونه وسترت رأسها بخمار وظهر محياها وعليه ملامح الشيخوخة . والثانية عليها ثوب اسود فوقه خمار اسود وقد تلثمت به حتى لا يظهر من وجهها الا العينان . وبعد هنيهة شد النوتيان القارب بحلقة من حلقات المسناة وألقيا خشبة بينها وبين القارب ونهضت المرأتان ومشتا وهما تتساندان حتى قطعتا الى المسناة ووقفتا في اسفل السلم والعجوز تنظر الى القصر وتجيل بصرها فيه كأنها تبحث عمن تخاطبه فقال لها أحد النوتيين « هذا هو القصر المأمون ياخالة »

فنهضت دنانير للحال وتقدمت حتى وقفت بالباب واطلت على القارب وهي تتفرس بالمرأتين وظلت زينب جالسة تنتظر ما يبدو منها

فما لبثت أن رأتها انحدرت على السلم مسرعة حتى دنت من العجوز واستقبلتها بين ذراعيها واكبت على يدها وقبلتها بلهفة ثم اعانتها في الصعود والفتاة في أثرها . وكانت زينب تتوقع كلة تسمعها من دنانير فتعرف القادمتين فلم تسمع شيئاً فظلت صامتة حتى اقبلت دنانير والعجوز تمشي في أثرها تتوكأ على عكازها ولما دنت منها تطاولت دنانير بعنقها وقالت بصوت ضعيف « هلم بنا الى الداخل يا مولاتى »

فنهضت زينب ودخلن جميعاً في دهليز بين الباب الغربي والقصر حتى وصلن الى قاعة أمرت الجواري بالخروج منها وأشارت الى العجوز ورفيقتها بالدخول فدخلتا بعد ان خلعتا نعالها بالباب وأومأت اليهما بالجلوس فجلستا على طنفسة وجلست زينب على وسادة واقبلت تنظر اليهما وتتفرس فيهما وقد ازاحتا الخمار فظهر شعر العجوز شائباً

اما الفتاة فبان محياها فاذا هي في ابان الشباب كأنها ملاك بصورة انسان رشيقة القوام بادية الطلعة وكانت قمحية اللون متناسبة الملامح تدل خلقتها على الكرامة والوجاهة ويشف لباسها عن سذاجة وفقر زادا جمالها وضوحاً ومع ما يتجلى في وجهها من الكآبة والحزن ورغم ذلك الثوب الاسود وما يتلألأ في عينيها من الدمع فنضارة الشباب كانت ظاهرة فيها وكانت وهي داخلة تمشي مطرقة كأنها تحاول كتمان ما في نفسها فلما جلست رفعت عينيها وفيهما دعج وسحر فوقع بصرها على زينب وكانت هذه تتفرس فيها بلهفة فلما التقى بصراهما احست زينب بجاذب شديد لم تعهد مثله في أحد تعرفه مع أنها فتاة مثلها وشعرت بميل اليها وانعطاف نحوها وتذكرت كأنها رأتها من قبل

وأما العجوز مع ما كانت فيه من مظاهر الذل والحزن فآثار الانفة كانت بادية في محياها . ولما استقر بهما الجلوس التفتت دنانير إلى زينب وقالت وهي تشير الى العجوز « ألم تعرفيها يا مولاتى ؟ »

فأجابت الفتاة بعينيها وشفتيها ان « لا »

فقالت وهي تهز رأسها متحسرة « إنها مولاتي أم جعفر »

فتبادر الى ذهن الفتاة لأول وهلة أنها تعني زبيدة زوج الرشيد فاظهرت الدهشة لما تعهده من شباب زبيدة وهي ترى بين يديها عجوزاً طاعنة في السن فضلا عن الفرق بينهما بالملامح . فأدركت دنانير سبب دهشتها فقالت « انما أعنى مولاتى أم جعفر الوزير وهي عبادة بنت محمد بن الحسين بن قحطبة »

وكانت زينب قد علمت أن جدها الرشيد قتل وزيره المذكور غيلة وأنه أباح منازله ولم تسمع بخبر والدته فكانت تحسبها ماتت . وغلبت العصبية الهاشمية على زينب فانقبضت نفسها وتراجعت فابتدرتها دنانير قائلة « ان لأم جعفر دالة على سيدي المأمون لانه ربي في حجرها وكانت تخدمه وتحبه وهو يحترمها وكثيراً ماكان يذكرها بعد نكبة ابنها ويود أن يراها ليكرمها . ولو علم بوجودها فى قيد الحياة لاستقدمها اليه وأكرم وفادتها . . . وعزاها على ثكلها »

وكانت أم جعفر في أثناء ذلك تمسح دموعها وتتجلد حتى تخفى بكاءها أما زينب فلما سمعت قول مربيتها وشاهدت بكاء تلك العجوز رق قلبها وكادت تشاركها في البكاء لولا رباطة جأشها وما سبق الى فؤادها من كره البرامكة . وكانت دنانير تعلم ما في نفس زينب فأحبت ان تبالغ في استعطافها فقالت « حتى مولاى أمير المؤمنين الرشيد مع ما تعلمينه من أمره مع ابنها فهو يحترمها ويعلي قدرها لانها ارضعته وربته بعد ان ماتت أمه عن مهده . وكان الرشيد يشاورها ويكرمها ويتبرك برأيها وطالما سمعته يناديها يا أم الرشيد ... »

فلما سمعت الفتاة ذلك قالت « فهي إذا جدتى ؟ »

فقطعت عبادة كلامها قائلة « بل أنا امتك يا سيدتي وانما أكرمني أمير المؤمنين بذلك تفضلا منه . . . ولم يصبنا ما أصابنا بعدئذ الا بتقدير العزيز الحكيم » قالت ذلك وشرقت بدموعها

فرق قلب زينب لحالها وقالت مسكينة . . . أم جعفر . . . لماذا لم يراع جدي خاطرك ويعف عن ابنك ؟ »

فقالت « ان مولانا الرشيد فعل ما فعله بوشاية الاعداء لان بعض الحساد وشى بولدي وحسن له قتله والرشيد حفظه الله إذا عزم على أمر بادر إلى إنفاذه ولا يسمع فيه رجاء ولا استرحاما ... ولكن ما يفعله أمير المؤمنين مقدر وينبغي القبول به فقبلنا واطعنا » ثم التفتت الى دنانير وقالت « وقد تمكن الاعداء من اغراء الرشيد حتى قبض على زوجي يحيى وابني الفضل وحبسهما فتشفعت اليه بحرمة اللبن أن يعفو عنهما ويأمر باطلاقهما أو اطلاق أحدهما فلم يفعل »

فقالت دنانير « وكيف فعلت ؟ »

الفصل الحادي عشر

الرشيد وأم جعفر

فمدت أم جعفر يدها الى جيبها وأخرجت حقاً من زمردة واحدة خضراء ونظرت الى دنانير وقالت وهي تفتح ذلك الحق بمفتاح من الذهب « قد تشفعت اليه بما في هذا الحق من آثاره » وأخرجت من الحق خصلة شعر وبضع أسنان ففاحت رائحة المسك حتى تضوعت القاعة وقالت « تشفعت اليه بهذا الشعر لأنه شعره وبهذه الاسنان فانهما ثناياه وقد حفظتهما منذ طفولته فلم يقبل شفاعتي »

فقالت دنانير « وكيف ذلك يا مولاتي ؟ . . »

فبدا الاهتمام في وجه أم جعفر وعادت اليها انفتها واعتدلت في مقعدها وأخذت تقص خبرها قائلة :

« لما علمت بما أصاب ولدي جعفر واحسرتاه عليه وان الرشيد قبض على يحيى قلت في نفسي لاذهبن الى الرشيد فاستعطفه في زوجي لعلمي بما كان من إكرامه إياي فانه كان لا يخيبني ولم أستشفعه في أحد الا شفعني فكم

أسير فككت وكم مستغلق فتحت وكم . . » قالت ذلك وغصت بريقها فتجلدت وأتمت الحديث فقالت « ذهبت الى الرشيد وكنت أدخل عليه بلا إذن فاستأذنت فلم يأذن لى ولا أمر بشيء في . فلما طال ذلك علي خرجت كاشفة وجهي واحتفيت في مشي حتى صرت بباب قصره فلما رآني الحاجب في تلك الحال دخل وقال للرشيد « ان ظئر أمير المؤمنين بالباب في حالة تقلب شماتة الحاسد الى شفقه فانها جاءت ساعية » فسمعته يقول له « ويحك أو ساعية ؟ » قال « نعم يا أمير المؤمنين وحافية » فصاح فيه « ادخلها فرب كبد غدتها وكربة فرجتها وعورة سترتها »

فلما سمعت قوله استبشرت بنيل مطلوبى فعاد الحاجب وأشار الى فدخلت فقام الرشيد محتفيا حتى تلقاني بين عميد المجلس وأكب على تقبيل رأسي ومواضع ثديي ثم أجلسني معه فقلت « أيعدو علينا الزمان ويجفونا خوفا منك الاعوان ويحرضك علينا أبناء البيتان وقد ربيتك في حجرى وأخذت برضاعتك الامان من عدوي ودهرى . . ؟ »

فقال لى « وما ذلك يا أم الرشيد ؟ »

قلت « ظئرك يحيى وأبوك بعد ابيك ولا أصفه بأكثر مما عرفه به أمير المؤمنين من نصيحته واشفاقه عليه وتعرضه للحتف بشأن موسى الهادي أخيه

فرأيته قطب حاجبيه وقال « يا أم الرشيد امر سبق وقضاء حم وغضب من الله نفذ »

فقلت « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب »

قال « صدقت ولكن هذا مما لم يمحه الله »

فقلت « الغيب محجوب عن النبيين فكيف عنك يا أمير المؤمنين »

فأطرق مليا ثم قال :

واذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

فقلت على الفور « ما أنا اليحيى بتميمة يا أمير المؤمنين وقد قيل :

واذا افتقرت الى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الاعمال

هذا بعد قول الله عز وجل « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين »

فتشاغل هنيهة بقضيب كان بيده ثم قال « يا ام الرشيد »

اذا صرفت نفسي عن الشيء لم تكد اليه بوجه آخر الدهر تقبل

فلما رأيته مصراً على عزمه قلت :

ستقطع في الدنيا اذا ما قطعتني يمينك فانظر اي كيف تبدل

فقال لي « رضيت »

فقلت « هبه لي يا أمير المؤمنين فقد قال رسول الله : ومن ترك شيئاً لله لم يوجده الله فقده »

فاطرق ملياً ثم رفع رأسه وهو يقول « لله الامر من قبل ومن بعد »

قلت « يا أمير المؤمنين ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . . . واذكر يا أمير المؤمنين اليتك ما استشفعت الا شفعتني »

فقال « اذكري يا ام الرشيد اليتك ان لا شفعت لمقترف ذنباً »

فلما رأيته صرح بمنعي ولاذ عن مطلبي أخرجت هذا الحق من جيبي وفتحت قفله وأخرجت هذه الذوائب وهذه الثنايا وقلت « يا امير المؤمنين أستشفع اليك واستعين بالله عليك وبما صار معي من كريم جسدك وطيب جوارحك ليحيي عبدك »

فاخذ الحق متي ولثمه واستعبر وبكى بكاء شديداً وبكى اهل المجلس فما شككت انه محبي ولكنه لما افاق التقى الحق وما فيه الى وقال « لحسن ما حفظت الوديعة »

فقلت « واهل للمكافأة انت يا امير المؤمنين »

فسكت واقفل الحق ودفعه الى وقال « ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى أهلها »

قلت « والله يقول : واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل ويقول اوفوا بعهد الله اذا عاهدتم »

فنظر الى فعلمت من عينيه انه يستفهمني عن مرادي وكنت قد تعودت فهم مراده من النظر في عينيه فقلت « أما أقسمت لى ان لا تحجبني ولا تمتهنني ؟ . . . »

فلما تذكر عهده قال « احب يا ام الرشيد ان تشتريه محكمة فيه »

فقلت « انصفت يا امير المؤمنين وقد فعلت غير مستقيلة ولاراجعة عنك »

قال « بكم تشترينه ؟ »

قلت « برضاك عمن لم يسخطك »

فظهر الملل في وجهه وقال « يا ام الرشيد اما لى من الحق مثل الذى لهم؟ »

قلت « بلى يا امير المؤمنين انت اعز على وهم احب الى »

قال وهو يتزحزح من مقعده « فتحكمي في تمنية بغيرهم »

فلما تحققت أنه غير مجيبي نهضت وأنا أقول له « قد وهبتكه وجعلتك في حل منه » وخرجت ونسيت مصيبتى ونشفت دمعتى وأنت ترين دمعي الآن وكيف أني أكاد أختنق به أما في ذلك اليوم فلم تسقط لى دمعة (١)

الفصل الثانى عشر

جثة جعفر

ولما فرغت أم جعفر من حديثها أقفلت الحق على مافيه وجعلته في جيبها وهي تقول « ولم يبق لى مأرب الآن في الرجاء فان الذي كنت ألتمس رضى الرشيد عنه ارتاح من شقاء هذه الحياة فمات في حبسه ومات بعده ابني الفضل بالامس وهو في سجنه بالرقة » وصمتت هنيهة وهي تمسح عينيها وأطرقت ثم قالت « ولكن موته لابد أن يعقبه أمر عظيم لاني كثيراً ما كنت أسمعه يقول ان أمري قريب من أمر الرشيد (٢) ولكنني أطلب من الله أن يطيل عمر أمير المؤمنين »

فخفق قلب زينب خوفاً على جدها ولكنها استحسنت استدراك عبادة

(١) العقد الفريد ٢٣ ج ٣ (٢) ابن الاثير ٨٤ ج ٦

بالدعاء له بطول البقاء وعادت الى التفكير في غرابة حديثها معه

كانت عبادة تقص حكايتها بلهفة وفصاحة وأم حبيبة مقبلة اليها بكل جوارحها وعيناها شاخصتان تراعي حركات شفتيها وغلب عليها التأثر غير مرة وأحست كأنها تجهش للبكاء ولما أتت أم جعفر على آخر الحديث انقلب اشفاقها الى اعجاب واكبار لما عاينته من انفتها وعزة نفسها وأحست بانعطاف اليها وشاركتها بألمها مما أصابها من الثكل والفشل وان كان مثلها لايدرك كنه المصائب ولكنها كانت كبيرة العقل والقلب تفهم وتحس أكثر مما يقتضيه سنها

وكانت قد نسيت لهفتها لمعرفة رفيقة أم جعفر لاشتغالها بما تقدم فلما انتهى الحديث حولت نظرها الى تلك الفتاة وجعلت تتفرس فيها والحشمة تمنعها من الاستفهام فادركت دنانير ذلك وهي أشد لهفة منها لاستطلاع ذلك السر وكانت في اثناء الحديث تسترق اللحظ الى الفتاة لعلها تستطلع شيئاً من أمرها فلم تستطع فصبرت نفسها إلى آخر الحديث وكانت الشمس قد مالت الى المغيب فامرت الخدم أن يضيئوا الشموع القائمة على المنائر في جوانب القاعة وهي شموع ضخمة كانوا يتأنقون باصطناعها ويمزجونها بالعود فاذا أضيئت فاحت رائحة العود وتضوع المكان بها . وعادت دنانير الى التفكير بالغرض الذي جاءت أم جعفر من أجله في ذلك اليوم بعد طول احتجابها فارادت أن تسوقها الى التصريح بذلك عفواً فقالت لها « ان حكايتك يامولاتي غريبة وأغرب منها احتجابك عنا كل هذه السنين والناس لايعرفون مقرك . . فأين كنت تقيمين ؟ »

فتنهدت وقالت « كنت محتجبة . . لأن مثلي خليقة أن تدفن نفسها حية وياليتني مت منذ عشر سنوات ولم أكابد ما كابدته من مرارة القهر والذل . انت تعلمين يا دنانير حالي في بيت جعفر . . . » وغصت بريقها وأطرقت فاشتغلت دنانير بالحديث عنها فوجهت كلامها الى زينب قائلة « نعم ياسيدتي انى أعلم الناس بما كانت عليه في أيام عزها وأذكر في عيد النحر من بعض

السنين ان مولاتي عبادة هذه كانت في بيت ابنها الوزير وعلى رأسها ٤٠٠ جارية . . . »

فقطعت عبادة كلامها قائلة « وكنت مع ذلك أعد ولدي والهفي عليه عاقاً بي . وقد مر علي في محنتي هذه ايام لا اجد جلدي شاتين أفترش واحداً وألتحف الآخر (١) . . على ان هذا كله لم يهمني بمقدار ما همني الامر الذي جئتكم به الليلة وأظنني ثقلت على مولاتي أم حبيبة بشأنه . »

وكانت زينب قد أحبت عبادة واحترمتها ونسيت ما يكسوها من الاثواب البالية ـ على عادة الناس في الحكم على جلسائهم لأول وهلة فانهم يقدرونهم أولا بما يظهر من لباسهم وحلاهم فاذا اختبروهم قدروهم بمواهبهم وقواهم ـ فخاطبتها باحترام وقالت لها « معاذ الله ياسيدتي فانك تنزلين عندنا على الرحب والسعة ولك كل ما تحتاجين اليه . . (والتفتت الى دنانير وقالت)اعطيها ياماما كل ما تحتاج اليه . . »

فوقفت عبادة وقبلت رأس زينب وقالت « شكراً لك على احسانك ياسيدتي ولكن الأمر الذي جئت به اليك أهم عندي مما تفضلت به وان كنت لا أستحق هذا ولا ذاك . . » فبادرت اليها دنانير قائلة «قولي فان لك كل ماتريدين ـ هذا ما أمرت به مولاتنا حفظها الله »

قالت « سألتني يادنانير عن احتجابي كل هذه السنين عن بغداد . . ؟ كيف أقيم فى مدينة أرى فيها جثة ولدى معلقة على جسورها وقد شطروا الجثة شطرين صلبوا شطراً على أحد الجسور والشطر الآخر على الجسر الثاني وعلقوا الرأس على الجسر الثالث ليراها المارة صباح مساء . . ألم تبق جثة جعفر معلقة على هذه الجسور سنتين وبعض السنة حتى عاد الرشيد من الري سنة ١٨٩ هـ فأمر باحراقها . . ؟ وكأنه شعر بخطارة الامر فهجر بغداد من يومه وسكن الرقة (٢) وما زال ساكناً فيها حتى خرج هذا العام الى خراسان وهي أني رضيت المقام فعيون الرقباء ساهرة وأمر الخليفة مشدد بالنقمة على كل من يذكر البرامكة بخير فكيف لو عرفوا بوجودي ألا يسرعون لتقطيعي

(١) المسعودي ٢٠٨ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٧١ و٧٧ ج ٦

اربا اربا . . وما أنا خائفة من الموت فانه أيسر ما اقاسيه ولكنني رغبت في الحياة من أجل هذه الفتاة » واشارت الى رفيقتها فتحولت الانظار اليها

الفصل الثالث عشر

الفتاة

فخجلت الفتاة وتوردت وجنتاها وتلألأت عيناها الدعجاوان وظهر الدمع فيهما مع مبالغتها في الاطراق . فاغتنمت دنانير هذه الفرصة وقالت « كنت منذ دخولك علينا وانا افكر في هذه الفتاة الجميلة واتفرس فيها فلم اعرفها . . »

قالت « انها بنت الشقاء ونتاج المصائب وليس في بغداد من يعرف حقيقتها غيري وقد كتمت امرها عن كل انسان خوفاً على حياتها وانما اردت البقاء في قيد الحياة من اجلها . وهذه اول مرة ابوح باسمها فهل اقول ذلك ونحن في مأمن ؟ »

فقالت دنانير « لم يبق داع لهذا الحذر بعد ما شاهدته من انعطاف سيدتي الحبيبة اليك ومن يسمع حديثك ولا يشعر معك ؟ قولي لاتخافي واطلبي ما تحتاجين اليه فانك نائلة ماتريدين . . »

فتنهدت وهي تصلح نقابها على رأسها وقالت « ان هذه الفتاة ربيبة التعاسة انها بنت الوزير المقتول . . ابني جعفر »

فبغتت دنانير واعادت نظرها الى الفتاة لعلها تتذكرها فلما افادها التفرس فقالت « لا اذكر اني اعرفها »

فقالت « نعم انك لاتعرفينها لانها ولدت بعد خروجك من بيتنا الى بيت مولانا المأمون . . . وقد كان خروجك من اسباب سعادتك لان ذلك البيت بعد ان كان مقصد السائلين ومقر الوافدين وملاذ الخائفين اصبح بلاء على اهله وغدا ذكرهم تعساً على الاقرباء والمريدين . . » وغلب عليها البكاء فسكتت ريثما تسترجع رشدها ثم قالت « ان حفيدتي هذه ولدت بعد خروجك

ولما اصيب والدها كانت لاتزال صغيرة واتفق انها كانت يوم تلك المصيبة قد خرجت مع احدى الجواري الى بعض ضياعنا في ضواحي بغداد فلما قبض الرشيد ضياعنا فرت بها جاريتها الى قرية بعيدة عن اعين الرقباء وظلت هناك حتى عرفت بها فاحتضنتها وخرجت بها هائمة على وجهي بعيدة عن بغداد ثم اقمنا في المدائن عند جماعة لايعرفونهـا وانما آوونا اكراما لوجه الله فقضيت هناك عدة اعوام في مأمن من وشاية الواشـين وسخر لنا الله رجلا لانعرفه فـكان أحن علينا من الوالد واشفق من الاخ . عرفناه منذ بضعة اعوام لانه يقيم في بيت مجاور لمنزلنا في المدائن . وهو غريب لانعرف اصله ولافصله ولـكن العناية ساقته الينا من حيث لاندري فـكان يتردد علينا ينظر في حوائجنا ويأتينا بما نحتاج اليه عفواً لايلتمس على ذلك اجراً ولا شكوراً . قضى هذه الاعوام في اعالتنا ونحن لانعرف من هو فخيل لنا انه رسول من السماء بعثه الله رحمة منه ونعمة لا نستحقها »

وكانت دنانير في اثناء الحديث ترمي ببصرها الى الفتاة اعجاباً بجمالها فلما بلغت جدتها الى ذكر ذلك الرجل تشاغلت الفتاة باصلاح خمارها لتخفي ما كاد يبدو في محياها من الاحمرار . ولو انتبهت دنانير الى تورد وجنتيها لادركت ما تكنه جوارحها وهي تحـاول اخفاءه ولـكنهم كانوا في شاغل من غرابة الحديث

فلما بلغت في حديثها الى ذكر ذلك الغريب غلب الاعجاب به على دنانير فقالت « ان الدنيا لاتخلو من المحسنين . . وقد سمعنا عن مثل هذه الشمائل في البرامكة ولم نعهد مثلها في سواهم . . الم تعرفي من هو ذلك المحسن ؟ »

قالت « لم نعرف من هو ولـكن يظهر انه فارسي الاصـل وقد جاء المدائن من بضعة اعوام وهو يتكتم فاذا دخل اغلق بابه وقضى يوماً او بضعة ايام لا يراه احد حتى كثرت احاديث الناس بشـأنه . فمن قائل انه يشتغل بالـكيمياء وقائل انه ساحر وزعم آخرون انه من كبار اهل الثروة وقد جمع ثروة من كنز عثر عليه في منزله لأنه يقيم في بيت مبني على انقاض ايوان سابور الذي كان الخليفة المنصور يقيم فيه قبل بناء بغداد »

فقالت دنانير « وما هو اسمه ؟ »

قالت « يسمونه بهزاد الجند يسابوري »

فتذكرت زينب طبيبهم الخراساني لانها تظنه يقيم في المدائن فقالت « لعل طبيبنا يعرفه لانه يتردد الى المدائن وربما اتى الليلة فنسأله عنه »

فقالت « لا اظن احداً يعرفه ومهما يكن من امره فانه جدير بكل ثناء فعسى ان يقدرنا الله على مكافأته . . ولكن الاقدار لاتصفو لاحد او لعلها عملت على مطاردتنا منذ افل نجم سعدنا فهي لا تدعنا نتنسم راحتنا حتى تخلق لنا بلاء جديداً . . »

فقالت دنانير « وكيف ذلك ؟ »

قالت « ما كدنا نظن الناس نسونا وأغفلوا امرنا حتى رأيناهم عادوا الى شكايتنا »

قالت دنانير « ومن هؤلاء ؟ »

الفصل الرابع عشر

السر

فالتفتت عبادة الى حفيدتها ثم حولت وجهها عنها فصبغ وجه الفتاة بالاحمرار فأدركت دنانير ان الحديث يتعلق بها وظنت أم جعفر تتحاشى التصريح بذلك أمامها فأحبت أن تشغل الفتاة بشيء يصرف انتباهها عن الحديث فقالت لها « أظننا أبطأنا عليكما بالعشاء فهل تأمر مولاتي بالمائدة ؟ »

ففهمت عبادة غرضها من هذه الدعوة فقالت « اني لا أشعر بالجوع الآن ولكن ميمونة (حفيدتها) تأكل . . »

فلم يفت الفتاة الغرض من ذلك فاطاعت جدتها مجاراة لما أرادته من التستر في الحديث عنها فسكتت علامة للقبول بما أشارت به . فنهضت

دنانير وهي تقول لمولاتها أم حبيبة « هلمي يا مولاتي الى المائدة مع هذه الضيفة الكريمة »

فاطاعتها وقد تعودت ذلك منها لنفس السبب الذي حمل ميمونة على الطاعة وخرجت الفتاتان للطعام وقد استانست ميمونة بنت المأمون وأحبتها لجمالها وذكائها — وكفى بالاحسان باعثاً على المحبة فقد قيل : من أحسن إلى الناس استعبد قلوبهم

أما دنانير فرافقت الفتاتين ريثما أمرت الخدم باعداد الطعام وعادت إلى عبادة وقد اشتد شوقها لسماع الحديث

وكانت عبادة جالسة مطرقة فدخلت دنانير وأقفلت باب القاعة وراءها وجلست الى أم جعفر وهي تهش لها وترحب بها وقد سرها أن تواسيها وتخدمها قياماً بما تشعر به من فضلها عليها غير ما تبعث عليه حالها من الشفقة لما أصابها من الذل بعد ذلك العز — والاقرار بالاحسان فرض يسر أهل الفضل أن يأتوه وأن يكرموا صاحبه إلا طائفة من الناس ساءت سريرتهم وسفلت طباعهم وصغرت نفوسهم — فهؤلاء ينكرون فضل الفضلاء وقد تحملهم الكبرياء على ايقاع الاذى بالمحسنين اليهم لاسيما اذا كان المحسن اليهم ممن ولدوا في الفاقة وخفض العيش وساعدتهم الاقدار على الارتقاء فربما حدثتهم أنفسهم الامارة بالسوء أن يقتلوا صاحب الفضل عليهم — أما دنانير فكانت كبيرة النفس صافية السريرة فسرها أن تخدم مولاتها اعترافاً بفضلها . فلما توسمت فيها الاهتمام بما ستقصه أقبلت نحوها بكليتها

فلما انفردتا تنهدت عبادة تنهداً عميقاً ونظرت الى دنانير والدمع يتلألأ في عينيها وقالت « آه يادنانير . . . ان النظر اليك يذكرني بأيام سعاتي وأشكرك لما لقيته من مواساتك وتلطفك في حين ان اقرب الناس الينا نسونا او تناسونا (وغصت بريقها) ولكن الدنيا دول . . . ما لنا وذاك . . . إن الامر الذي جاء بي هذه الليلة لولا خطارته ماحملتكم المشقة من أجله . . »

فقطعت دنانير كلامها ووضعت يدها على كتفيها وهي تنظر اليها مبتسمة وتقول « لامشقة في ذلك ياسيدتي انك صاحبة الامر وعلينا الطاعة »

فتنهدت وقالت « أنت تعرفين الفضل بن الربيع . . . »

فلما سمعت دنانير ذلك الاسم أدركت عظم الأمر لعلمها ان هـذا الوزير هو الذي عظم ذنب ابنها لدى الرشيد حسداً منه حتى قتله الرشيد وتولى هو الوزارة مكانه فقالت « نعم ياسيدتي أعرفه . . وما خبره بعد الذي أتاه ؟ »

قالت « ليس الخبر خبره الآن وانما نحن نشكو من ابنه . . »

قالت « وما تشكين منه ؟ »

قالت « لا أدري كيف بلغـه خبر ميمونة ولا أعـلم أين رآها حتى فتن بجمالها أو لعله لم يفتن بهـا وانما أراد نـكايتنا فبعث الى منـذ بضعة أسـابيع قهرمانة دار أبيـه يوسطهـا في خطبة ميمونة لنفسه وقـد تلطفت القهرمانة بالطلب ووعدتنا خيراً . فمـاطلته حيناً لعـله يرجع من نفسه لاني أخاف إذا رفضت طلبه بتاتاً أن يؤذينا فلم يرجع عن طلبه وبالغ في المحاسنة وكرر الوعد بمـا ينويه لنا من الخير إكراماً لميمونة لانه مفتون بها . وقد أكدت لنا القهرمانة انه يحب الفتاة حباً مبرحاً وأنه لا يريد لنا غير السعادة اذا أجبته الى بغيته . فاعتذرت عن الاجابة أعذاراً مختلفة وتقدمت اليهـا ان تساعدني في دفعه فوعدتني وظلت أياماً لم ترجع الينا . فظننتها أفلحت واطمأن خاطري فلمـا كان مساء الامس جاءتني بنبأ ذهب بصوابي وقطع حبـل رجائي . . »

قالت ذلك وشرقت بدموعها فسكتت واشتغلت بمسح عينيها

وكانت دنانير تسمع حديثهـا وهي تتطاول نحوها بعنقها فلما رأتها تبكي قالت « خففي عنك ياسيدتي . . . وماذا جرى ؟ »

قالت « جاءت القهرمانة هذه المرة تهددني بالسوء اذا لم أجب ابن الفضل الى طلبه وانه أوصل أمري الى علي بن ماهان صاحب الشرطة ووسطه في الخطبة وان علياً هـذا يلح علي باجابة الطلب وهو يضمن لي ما أريده من الخير واذا لم أفعـل كانت العاقبة وخيمة على وعلى ميمونة . فوعدتهـا اني سأنظر في طلبها وأجيبهـا . . وانت تعلمين حالتنا مع هؤلاء ولا سيما الفضل ابن الربيع الذي كان السبب في قتـل ابني فكيف أزوج ابنه وأنا لا أطيق سماع اسمه » وأطلقت لبكائها العنان حتى تفطر لها قلب دنانير وأدركت مصيبتها

لعلها ان هؤلاء القوم اذا قالوا فعلوا . فأطرقت وأعملت فكرتها حيناً ثم قالت « لا أنكر على مولاتي ماقالته من كرهها لذلك الرجل وابنه ولكن . . . » وسكتت وهي تنهض كتفيها وتقلب شفتيها

فقالت عبادة « لا . . . لا أستطيع القبول به . . . وهبي اني قبلت فهل تظنين ميمونة تقبل وهي تعرف الفضل بن الربيع أصل بلائنا ومصدر مصائبنا ؟ . . . كلا هذا لا يكون . . . »

فقالت دنانير « اذا لم يكن بد من اصرارك على الرفض فأنا طوع ارادتك بما تحبين وهذا القصر وأهله في خدمتك فاذا شئت الاقامة فيه أقمت على الرحب والسعة ولا اظن أحداً يجسر على اخراجك منه وقد أفرحني ما آنسته من ارتياح مولاتي زينب لك وانت تعلمين نفوذها عند أمير المؤمنين الرشيد فمتى عاد وسطناها لديه وهو لايردها خائبة فانعمي بالا »

فتنهدت عبادة وسكتت هنيهة ثم قالت « أخشى يادنانير أن يكون في اقامتنا هنا بأس على أهل هذا القصر لأن النحس ملازم لنا اليوم فلا أحب أن يلحقكم شيء منه »

فتأثرت دنانير من قولها وأخذت تخفف عنها

الفصل الخامس عشر

الطبيب الخراساني

وهما في ذلك سمعتا وقع خطوات مسرعة في الدهليز فنهضت دنانير الى الباب وفتحته فرأت أحد الغلمان وقف بالباب وهو يقول « ان الطبيب قد جاء ياسيدتي »

فابرقت اسرتها ولم تتمالك أن قالت « الطبيب جاء ؟ لقد أبطأ علينا دعه يدخل » قالت ذلك ورجعت الى عبادة وهي تبتسم وتقول « جاء طبيبنا الخراساني الذي ذكرت لك انه يتردد الى المدائن فلعله ينفعنا في معرفة صاحبكم الذي ذكرت انه واساكم هناك »

ففرحت عبادة بتلك البشارة ايضاً ولبثت تنتظر مجيء القادم بفارغ الصبر ولم تمض دقائق قليلة حتى سمعتا حركة ووقع اقدام فرجعت دنانير الى الباب لتستقبل القادم فلما راته مقبلا قالت « لقد ابطات علينا ايها الطبيب هذه المرة جعل الله المانع خيراً »

وكانت عينا عبادة نحو الباب وقد اصلحت خمارها فاذا هي تسمع الطبيب يقول « قد ابطأت عليكم لعذر ضروري فهل انتم في حاجة الي » قال ذلك وفي كلامه عجمة فلما سمعت عبادة صوته خفق قلبها لأنها توسمت به صوت جارم بهزاد ثم دخل الطبيب ولم تقع عيناها عليه حتى عرفت انه بعينه فصاحت « هذا بهزاد ! » أماهو فالما رآها خلع نعاله وأسرع نحوها فصافحها وتلطف في السلام عليها وقال « انت هنا ياخالة ؟ »

فقالت « إني هنا ياسيدي . . . قد جئت لزيارة دنانير . . . . » فبغتت دنانير لذلك الاتفاق وقالت « اذن هو بهزاد صاحبكم وهو طبيبنا . . ما أجمل هذا الاتفاق . . تفضل ياسيدي » وأشارت الى كرسي فمشى بهزاد بقدم ثابتة وخطى واسعة حتى جلس على الكرسي وكان طويل القامة عريض ما بين المنكبين كبير الجمجمة واسع الجبهة أبيض الوجه اسود العينين غائرهما مع حدة وذكاء خفيف اللحية صغير الشاربين . وكان في نحو الخامسة والعشرين من عمره وقد تزمل بعباءة سوداء وعلى رأسه قلنسوة قصيرة ليس حولها عمامة وكان لطوله وعرض منكبيه اذا مشى تقلع كأنه ينحط من صبب واذا أقبل عليك حسبته من الجبابرة الذين يتحدثون بعظم هاماتهم ورأيت في عينيه رقة ونفوذاً يدلان على قوة الارادة وصدق الطوية . وكان لا يرى إلا مقطباً والاهتمام باد في محياه على غير جفاء أو خشونة ويندر ان يضحك . ومع كونه قليل الكلام كثير التفكير فان مخاطبه يستأنس به ويرتاح الى مجالسته ولكنه يهابه ويشعر اذا خاطبه بسلطان له عليه

فلما جلس ابتدرته دنانير قائلة « لقد كنا نتحدث عنك ساعة الغروب ثم ذكرناك في عرض حديث جرى لى مع سيدتي أم جعفر وأنا احسبك غير بهزاد

الذي ذكرته هي لأني لا أعرفك بهذا الاسم فاحمد الله على انك انت صاحب الجميل عليها . . »

ولاحت من دنانير التفاتة الى أم جعفر فرأتها تشير اليها برفع حاجبيها والعض على شفتها أن لاتفعل كانها تنهاها عن التصريح باسمها

فأدركت دنانير غرضها . أما بهزاد فانه تجاهل مرادها وقال « إن أهل المدائن لايعرفونني إلا بهـذا الاسم لانهم رأوني فارسي السحنة فسموني بهزاد وأما اسمي فهو عبد الله كما تعرفين » ثم حول نظره الى أم جعفر بانعطاف واحترام وقال « لا جميل لي يا خالة في شيء فعلته ولا اعرف إني أتيت شيئاً يستحق الثناء » ثم التفت الى دنانير وقال « كيف مولاتنا أم حبيبة هل هي في خير وعافية ؟ »

قالت « نعم وهي تتناول العشاء مع ضيفة لها في غرفة المائدة وقد كنت عازمة على الذهاب بها الى الفراش كالعادة . . »

فأظهر الطبيب انه لم ينتبه لعزمها وقال وهو يخفي ما يخالج ضميره من الاهتمام ويتشاغل باصلاح بند سيفه في منطقته « هل أتى غلامي سلمان ؟ »

قالت « كلا ياسيدي لم أعلم انه جاء ... وهل انت على موعد من لقائه هنا؟ »

قال « نعم . . كنت أتوقع ان يأتي نحو الغروب وشغلت عن المجيء اليكم حتى الآن وأنا أحسبه في انتظاري هنا » قال ذلك وهم بالنهوض وهو ينظر نحو الباب كأنه يريد الخروج فتلقته دنانير قائلة « هل تحتاج الى شيء يامولاي؟.. »

قال « كلا ولـكنني أحب ان أتحقق هل جاء سلمان هذا القصر إذ ربما جاء وأقام في بعض غرف الغلمان »

فمشت دنانير وهي تقول « انا اذهب للبحث عنـه تفضل واجلس . » وهمت بالخروج

لـكنها لم تدرك الباب حتى سمعت جلبة وقهقهة في الدهليز فعرفت ان زينب قادمة وهي تقهقه لأمر اضحكهـا . فضحكت دنانير سروراً بهـا واطلت على الدهليز وهي تقول « مولاتي ! انت هنا الم تذهبي الى فراشك بعد ؟ هل آتي لأدخلك الفراش ؟ »

ولم تتم كلامها حتى صارت زينب بجانبها وقد جاءت مسرعة وهي ممسكة بثوب ميمونة تشدها نحو الباب على سبيل المداعبة وميمونة تطاوعها ارضاء لها واستئناساً بها . فابتدرتها دنانير قائلة « ما الذي يضحكك ياحبيبتي ؟ . . »

فصاحت الفتاة وهي تلتفت وراءها التفات مذعور مطمئن قائلة « اضحكني غلام الطبيب تعالى انظريه » واشارت باصبعها نحو الدهليز . فخرجت دنانير فرات رجلا في لباس وقيافة لاتعهد سلمان في مثلهما — راته بعمامة كبيرة وسالفين طويلين ولحية كبيرة قد دب فيها الشيب وعليه جبة مثل جبة الخاخامين فلم تتمالك عن الضحك فصاحت فيه « ويلك ماذا اصابك ؟ »

الفصل السادس عشر

ميمونة

فانزوى الرجل في بعض منعطفات الدهليز حتى اختفى لحظة ثم عاد واذا هو سلمان بقبائه وسراويله وطاقيته لاسالفان له وعادت لحيته صغيرة لاشيب فيها فزادها ذلك التغير استغراباً وتحولت نحو القاعة لتخاطب الطبيب بما شاهدته وتبشره بقدوم غلامه فراته قد نهض واسرع في الخروج ليراه لانه سمع ما دار بشانه . ولكنه لم يكد يدرك الباب حتى راى زينب داخلة وهي تجر ميمونة وراءها وتضحك ولا تعلم بوجود الطبيب هناك . فلما وقع نظرها عليه تهيبت واستحيت فاطرقت برأسها وأسرعت للاستتار وراء ميمونة

فلما رأى الطبيب خجلها تبسم لها وانحنى نحوها وهو يقول « كيف أنت يا أم حبيبة . . » ومد يده ليتناول يدها فازدادت حياء وتراجعت حتى اختفت وراء ميمونة . أما هذه فلما وقع نظرها على الطبيب بغتت وصبغ الحياء وجهها لسبب غير السبب الذي أخجل زينب وتلعثم لسانها واصطكت ركبتاها وتحيرت بين الاطراق خجلا وبين أن تحيي ولي نعمتها والمحسن اليها . أما هو فلما رأى دهشتها وارتباكها تجاهل وحياها تحية بسيطة وتحول إلى زينب يظهر مداعبتها ويتلطف في تشجيعها لترد عليه السلام

ولحظت ام جعفر ارتباك حفيدتها فحسبته ناتجاً عن لقائها بهزاد على غير انتظار لانها لم تكن تعلم مايكنه ضميرها ولم يتفق انها لحظت منها شيئاً يدل على غير التعارف البسيط مع الشعور بفضل الرجل عليهما . فنهضت للحال وتقدمت الى ميمونة وهي تقول « هذا هو مولاناوصاحب الفضل علينامابالك لاتسلمين عليه يالمياء »

فلما سمعتها دنانير تسميها لمياء تحققت انهـا تريد اخفاء حقيقة حالها عن الطبيب . اما ميمونة فلما سمعت جدتهـا تدعوها للسلام على الطبيب تجلدت ومدت يدها فتناولها فشعر بارتعاشها وبرودتها ولم تخف عليه حالهـا ولـكنه ظل على تجاهله وابتسم لها كعادته ابتسام تلطف واكرام وقال « وأنت هنا يا لمياء ايضاً ؟ . » وعاد الى مداعبة زينب

فبالغت ميمونة في الاطراق وقـد توردت وجنتاها ولو رفعت بصرها اليـه لرأى بريق عينيها وشعر بما ترميه عن حاجبيها من السهام . ولـكنه تغافل وحول نظره الى دنانير فرآها تراقب حركات الفتاة ولم يفتها ماكان يتجلى في وجهها من دلائل الحيـاء وادركت بفراستها وطول اختبارها ان ذلك ناتج عن غير الحياء وحده ولـكنها استغربت ما ابداه الطبيب من الفتور كأنه خلي الذهن ممـا يجول في خاطرها . فتحيرت وتمنت لو تمكنها الفرصة من تحقق ظنها

وهي في هذه الحيرة سمعت الطبيب يقول « أين سلمان ؟ سمعتكم تتكلمون عنه »

فاشارت دنانير الى الدهليز وقالت « هو هنا . . . هل أدعوه اليك ؟ »

قال « كلا إني ذاهب اليه » وصاح « سلمان ! » وخرج من القاعة وترك أهلها على ما ذكرناه من الاضطراب والارتباك بين مستحي ومدهش ومعجب ومستغرب ومتهيب . فاجابه الغلام « لبيك يا مولاى . . أنت هنا ؟ »

فقال وهو يحتذي نعاله ويهم بالمسير نحوه « قد استبطأتك وشغل بالى لغيابك » ومشى نحوه وهو يقول لدنانير « سأعود اليكم بعد قليل » فعلمت

أنه ذاهب الى المنزل الذي تعود الاقامة أو المبيت فيه اذا جاء القصر المأمونى وهو من جملة ابنية ذلك القصر الكبير . وأما الطبيب فظل ماشياً وسلمان يتقدم نحوه حتى التقيا ثم سار الطبيب وسلمان يتبعه وخرج من الدهليز الى البستان ومشيا فيه الى ذلك المنزل

وكان الطبيب يمشى مطرقا وسلمان يسير في اثره مهرولا وكان هذا مع طوله لا يستطيع اللحاق به وهو يمشي الهوينا لسعة خطواته . فلما وصلا ذلك المنزل تقدم سلمان وفتحه فخلعا حذاءيهما ودخلا وقام سلمان بسراج على مسرجة فأشعله وأغلق الباب وراءه ووقف حتى جلس الطبيب على وسادة في صدر الغرفة فوق البساط وأمر سلمان فقعد بين يديه وهو ينتظر أمره فلما استتب بهما الجلوس قال الطبيب « ما وراءك يا ملفان سعدون »

فقال « وأنت أيضاً تدعوني ملفاناً ؟ » وضحك

فقال « انك لا تزال ملفاناً حتى تنتهي مهمتنا من هذه الديار ونبلغ غايتنا قل ما وراءك ؟

قال « جئتك بخبر هام لم يطلع عليه أحد في هذه المدينة ولو عرفه أهلها لقاموا وقعدوا وتغيرت أحوالهم ..فضحك قوم وبكى آخرون »

فتنحنح الطبيب ونظر الى سلمان بعينين حادتين كأنه يخترق أحشاءه ويستطلع خفايا قلبه وقال «هل عندك خبر غير موت الرشيد ؟ »

فاجفل وقال « وهل عرفت ذلك ؟ بالله ! كيف عرفته وقد جاء في هذه الساعة ولم يعلم به أحد ولا صاحب البريد . ولو لم أشاهد اللوح النحاسي الذى يحمله سعادة البريد لاثبات مهمتهم معلقاً بالشرابة على صدره (١) لم أصدقه لغرابته فكيف عرفته ؟ »

قال « عرفته ولم ار اللوح النحاسي ولا تحققت صدق الساعي . . . ان الرشيد مات ياسلمان فهل عرفت خبراً أهم من هذا ؟ »

قال « وهل أهم من هذا الخبر ؟ لقد أذهبت سعي عبثاً وكنت أحسبني

(١) صبح الاعشى ٧١ ج ١

جئتك بخبر تغبطني عليه وأنا انما عرفته اتفاقا وكافني سبيكة من الذهب . . اني لا أزال قليل النفع لك »

قال الطبيب « بل أنت كثير النفع لا يستغنى عن ذكائك ونشاطك ويكفي أنك تكشف لنا عن أغراض العامة وأقوالهم وكفى بالعيارين ومعاملتهم »

فقال « اني لا أراني فاعلا شيئاً . . وأظنك عالماً بالغيب فقل ما عندك أهم من موت الرشيد ؟ »

قال « أهم منه ما أتاه أصحابه من خلع المأمون ونكث البيعة . . وسترى مايكون من عواقب ذلك عليهم »

قال سلمان وقد دهش « نكثوا بيعة المأمون يالهم من قوم خائنين ومن نكثها ؟ »

قال « نكثها الفضل بن الربيع »

فقال سلمان وقد ذعر « الفضل وزير الرشيد الذي سافر معه في حملته هذه ؟ »

قال « نعم هو بعينه . . ان هذا الرجل أتى أمراً سيؤول الى خراب هذه الدولة مثل سعيه في قتل الوزير المظلوم وكل من الفعلين يسقط دولة فكيف اذا اجتمعا » قال ذلك وقد بدا الغضب في عينيه

فتهيب سلمان من غضبه وقال « وكيف كان ذلك ياسيدي . . »

الفصل السابع عشر

الخبر اليقين

قال الطبيب « أنت تعلم ان الرشيد لما سافر في هذه الحملة اصطحب ابنه المأمون وأخذ له البيعة على جميع من في معسكره من القواد وغيرهم وأقر له بجميع ما معه من الأموال وغيرها وكان ذلك بسعي الفضل بن سهل صاحب الهمة الشماء »

قال « نعم »

فقال « وسار المأمون مع أبيه ليقيم في خراسان . ولا يخفى عليك ان الرشيد بايع بالخلافة بعده لولديه الامين هذا المقيم في بغداد الآن ثم للمأمون الذي رافقه في هذا السفر . وان المأمون يتولى خراسان في أثناء خلافة الامين على بغداد . والرشيد كما تعلم مريض من يوم سفره ولكنه كان يخفي مرضه . . فقد علمت من الصباح الطبري وأنت تعلم تقربه من الرشيد وقد رافقه للوداع يوم خروجه من بغداد ان الرشيد قال له « لا أظنك تراني ياصباح أبداً » فدعا له وأعظم قوله وأنكر عليه ما يخافه فقال « ما أظنك تدري ما أجد في صحتي » قال الصباح « لا والله » فعند ذلك عدل الرشيد عن الطريق واستظل بشجرة وأمر خواصه بالبعد عنه . فلما خلا بالصباح كشف عن بطنه فاذا عليه عصابة حرير فقال « هذه علة أكتمها الناس كلهم ولكل واحد من ولدي علي رقيب ، فمسرور رقيب المأمون وجبرائيل بن بختيشوع رقيب الأمين وما منهم أحد الا وهو يحصي أنفاسي ويستطيل دهري . وان أردت أن تعلم ذلك فالساعة أدعو بدابة فيأتوني بدابة عجفاء قطوف لتزيد علتي فاكتم علي ذلك » فدعا له الصباح ثم طلب الرشيد دابة فجاءوا بها كما وصف فنظر الى الصباح وركبها (١) وعاد الصباح من وداعه ولم يكتم ذلك عني »

فاستغرب سلمان اطلاع مولاه على كل ذلك وكيف كتمه عنه الى تلك الساعة ولكنه مازال شديد الرغبة في الاطلاع على خبر الفضل بن الربيع فقال وماذا فعل الفضل ؟ »

قال « سافر الرشيد ومعه الفضل وبينه وبين الامين مخابرات خصوصية وله فيه رأي وكلما حدث أمر كتب به اليه غير مايبعثون به على يد أصحاب البريد فكتب الفضل الى الامين من مدة قريبة ان الرشيد اشتد مرضه كثيراً فكتب الامين اليه كتباً أمر أن يجعلوها في قوائم صناديق المطبخ وكانت تلك القوائم منقورة والبسها جلود البقر وعهد بايصالها الى رجل من خاصته اسمه بكر بن معمر وقال له

(١) ابن الاثير ٨٣ ج ٦

« لاتظلمن أمير المؤمنين ولاغيره على ذلك ولو قتلت الا اذا مات فادفع الى كل انسان كتابه »

ولما وصل بكر هذا الى مدينة طوس حيث كان الرشيد مريضاً بلغ الرشيد قدومه فدعا به اليه وسأله عن سبب قدومه فقال « بعثني مولاي الامين لآتيه بخبرك » فسأله « هل معك كتاب ؟ » فقال « لا » فلم يصدقه لعلمه بما يكتمون عنه وانهم شديدو الرغبة في موته فأمر أن يفتشوا ما معه فلم يصيبوا شيئاً فلم يقتنع فأمر بضربه حتى يعترف فضربوه ضرباً مبرحاً فلم يعترف بشيء حتى كادوا يقتلونه . فلما خاف الموت قال للفضل ان عنده أشياء هامة فلا يعجل عليه . ولكن الرشيد مازال خائفاً مما يحمله بكر فامر بقتله فاتفق لحسن حظه ان الرشيد غشي عليه فاشتغل الناس به — ثم مات الرشيد فبعث الفضل وأخبره بموت الرشيد وسأله عن الكتب التي معه من الامين فدفعها اليه وهي كتاب الى أخيه المأمون يأمره بترك الجزع وأخذ البيعة له على الناس لها ولكن المأمون كان يومئذ بمرو . وكتاب الى أخيه صالح يأمره بتسيير العسكر وان يتصرف هو ومن معه برأي الفضل وكتاب الى الفضل يأمره بالحفظ والاحتياط على مامعه من الحرم والاموال وغير ذلك وأقر كل من كان هنا على عمله . فلما قرأوا الكتب تشاوروا م والقواد في الذي يفعلونه هل يعملون بالعهود التي عليهم للمأمون فيلحقون به في خراسان أم يلحقون بالامين في بغداد فكان من رأي الفضل أن يلحقوا بالامين وقال « لا أترك ملكا حاضراً لآخر ما أدري مايكون من أمره » وأمر الناس بالرحيل الى بغداد — قال الطبيب : « ولا يمضي غير أيام حتى يصلوا الينا وقد خلعوا المأمون . وما خلعوه الا لأن أمه فارسية وهم عصبة يزعمون نصرتهم للعرب ولا ينصرون الا مطامعهم ولكنهم سيعلمون ماينالهم من أخواله » قال ذلك وقد تعاظم غضبه وازداد سلمان تهيباً من منظره ومع ماتعود من صحبته وما الفه من أحواله مازال يجزع من النظر اليه ولا سيما في حال الغضب . وأحب أن يكلمه فرآه يتحفز للنهوض وهو يقول « ولكن لابأس على ابن أختنا وهو في خراسان بين أخواله وفيهم الفضل بن سهل فلا خوف عليه »

ونهض بهزاد فنهض سلمان معه وهو يقول « ما الذى نفعله الآن يا مولاي ؟ »

فاطرق وهو يحك جبينه بسبابته وابهامه ثم قال « لابد من ذهابى الآن لأمر خطر لى لايحسن تأجيله . . . »

فقال سلمان « وهل أذهب معك . . . »

قال « كلا . . فانى أفضل الذهاب وحدي لسبب ستعلمه . . »

فقال وهو يهز رأسه اعجاباً واستغراباً « لقد أدهشتنى بما تكتمه وما تستطلعه كأنك تستخدم الجان . . . »

قال « لم أفعل شيئاً غريباً . . » وأخذ يصلح قلنسوته ويعدل بند سيفه استعداداً للمسير فابتدره سلمان قائلا « فاذا كنت لاترى حاجة الى فانى أذهب لاتمام مهمتي التي بدأت بها في غروب هذا اليوم ولولا تعجيلي لاطلاعك على خبر الرشيد لأتممتها قبل مجيئى ولو علمت انك تعلم الغيب . و . . »

فقطع بهزاد كلامه قائلا « لا دخل للغيب في ما تراه وستعلم انه طبيعى ولكننى تعودت أن لاأقول شيئاً قبل تحققه . وانما يقدم على كثرة الكلام أهل الطيش يجعجعون ويطنطنون ثم لايأتون غير الكلام وعندي ان اذاعة ماينويه المرء من الاعمال يذهب بالعزم على اتمامه — ولذلك فانك انما تسمع مني القول البات في بعض الاحوال الشاذة لاسباب طارئة . وما أجمل ماقيل : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان »

وكان سلمان يسمع كلامه مصغياً فلما فرغ قال « انها عظة بالغة ولذلك فانى ذاهب الآن لقضاء المهمة التي بدأت بها عند الغروب ومتى انتهت أطلعتك عليها . . وأرجو ان تحسن في عينيك وان لاتكون قد سبقتني اليها . . . »

وكان الطبيب يسمع كلام سلمان وهو يحتذي نعاله فلما فرغ قال الطبيب « اذهب بحراسة الله وسنلتقى هنا غدا واذا لم آت لاتستبطئني » قال ذلك وترك سلمان في المنزل يهتم باقفاله ومشى نحو القاعة التي ترك القوم فيها

الفصل الثامن عشر

هل هي تحبه

وكانت دنانير بعد ذهاب الطبيب قد أدخلت زينب الى الفراش وسألت ميمونة اذا كانت تريد الرقاد فاظهرت انها تحب البقاء للاستئناس بها وبجدتها ثم امرت الخدم فاعدوا طعاماً لهـا ولعبادة فأكلتا ولا حديث لهما غير بهزاد وكل منهما تقص على رفيقتها ماتعرفه من غرائب أطواره وعجائب احواله ولا سيما عبادة فانها أخذت تطوي شهامته وانفته وكرم اخلاقه وان اهل المدائن يعدونه من الاولياء ويستغربون تكتمه . على ان التكتم زاده رفعة في أعينهم وزادهم تهيباً منه . لأنك لاتزال تخاف المجهول حتى تعلمه — وعلى هذا القياس ترى الصمت يرفع منزلة صاحبه وكثرة الكلام تقلل من هيبته فاذا جهلت مافي خاطر المرء توهمت ما يكتمه أهم مما هو فاذا تكلم انكشف لك عن شيء تافه فكيف اذا تعودت ان تسمع بعد السكوت قولا معقولا فالعقلاء يزين اقوالهم احتفاظهم بالكلام الى حين الحاجة والتدبر بما يقولونه فلا يلقون الكلام على عواهنه

وكانت ميمونة تسمع حديثهما عن بهزاد وقلبها يرقص طرباً تشعر به ولا تستطيع التعبير عنه . فقد عرفت هذا الشاب منذ عام وبعض العام ورأت منه انعطاف المحسنين وغيرة الاقربين فاحترمته واعجبت به . ثم تعودت رؤيته حيناً بعد آخر فاصبح اذا غاب استبطأته وشعرت انها في حاجة الى رؤيته لايطمئن قلبها الا اذا رأته ولو ماراً في الطريق وقد زاد ارتياحها اليه لما كانت تسمعه من اطراء جدتها له وامتداحها خصاله فاصبحت اذا شاهدته اوسمعت صوته يخفق قلبها واذا كلمها صعد الدم الى محياها واستولى الخجل عليها . ثم اصبح قلبها يخفق لمجرد سماع اسمه وصارت تلتذ بالحديث عنه واذا سمعت احداً ينتقده او يقبح اعماله شق عليها قوله وأخذت تدافع عنه بحماسة وغيرة — كانت تفعل ذلك وهي لاتعلم انها تحبه ولو سئلت هل هي تحبه لاستغربت

السؤال وانكرته كل الانكار — لاتفعل ذلك نفاقاً او رياء لكنها بالحقيقة لاتعلم انها تحبه وخصوصاً لانها لم تكن تسمع منه كلمة تدل على حبه لها . فاذا جاء المنزل كلم جدتها بما تحتاج اليه واذا عرضت له ميمونة حياها وهو ينظر الى شيء آخر وربما سألها عن حالها سؤالا بسيطاً بلا مبالاة او اكتراث فلم يمنعها ذلك من الاسترسال في حبه لانها لم تأت الحب عمداً اي انها لم تعمل فكرتها ولا شاورت نفسها في هل تحبه أم لا . ولو فعلت ذلك لاحترست من الوقوع لانها لم تكن ترى منه ميلا ولكنها احبته وهي لاتعرف دلائل الحب

ومازالت على ذلك حتى التقت به تلك الليلة فجأة ثم سمعته يلاطف زينب ويداعبها فتحركت الغيرة في قلبها مع علمها انه فعل ذلك تلطفاً ومجاملة واحست كأن سهماً اصابها في قلبها . على انها تراجعت وحاولت الاقتناع ان ليس ثمة داع للغيرة فاقتنع عقلها واما قلبها فما زال في اضطراب واخذت من تلك الساعة تتساءل عن سبب هذا الشعور فاغتنمت اشتغال جدتها ودنانير بالطعام والحديث وطفقت تفكر في سبب هذا الشعور وكلما همت أن تسأل نفسها هل هي تحبه غلب عليها الحياء وأنكرت وقوعها في هذه الأسر لانها لاترى من أعماله مايجرئها على ذلك فتعللت بأنها انما تحبه اقراراً بفضله واحسانه

ثم رأت ذلك لايغني فتيلا لانها تحس بانعطاف اليه غير انعطافها الى جدتها مثلا وهي أكثر الناس إحساناً اليها فتحققت انها تحبه لغير الاحسان . ولما تصورت ذلك ولم تر لها مندوحة عنه انقبضت نفسها لأنها لم تشاهد منه شيئاً من هذا القبيل نحوها . وعادت الى ذكرى الماضي فراجعت تاريخ معرفتها به وما كان يبدو من حركاته وأقواله فلم تر دليلا على مثل ماعندها . على انها حملت ذلك منه على رغبته في التكتم أو اظهار الجفاء مع كتمانه الحب

فكانت عبادة ودنانير تتناولان الطعام وتتحادثان وميمونة غارقة في هذه الهواجس وبعد الفراغ من الطعام قالت دنانير « هل تريدان الذهاب الى الفراش فاننا في اواسط الليل . . »

فقالت عبادة « أما انا فلا أشعر بحاجة الى النوم ولكن ميمونة تنام »

فلما سمعت ميمونة قولها تذكرت أن بهزاد وعد بالرجوع حالا وأصبحت

بعد أن ذهب وتركها في تلك الحيرة تود أن تراه قبل الرقاد ولا سيما بعد ماناجت به نفسها من أمر حبه لعلها تؤانس منه اشارة أو تسمع كلة تستدل منها على ميله اليها — فلما سمعت قول جدتها ساءها ان تطيعها ولم تتعود غير الطاعة العمياء وهذه أول مرة حدثت نفسها بعصيانها ولكنها لم تجسر على مراجعتها فوقعت في حيرة وارتبكت في أمرها. ولحظت دنانير ارتباكها وادركت سببه وكانت عبادة في شاغل عن عواطف حفيدتها فلم تكن تتوقع منها غير النهوض حالا فسمعت دنانير تقول « مالنا وللرقاد الآن دعي ميمونة معنا فان هذه الليلة من ليالى العمر عندى لشدة فرحي بكما » ثم مدت ذراعيها نحو ميمونة وضمتها الى صدرها وقالت « وخصوصاً حبيبتى ميمونة فانى وجدتها من العدم . . فدعيني أتمتع برؤيتها »

ولا تسل عن فرح ميمونة بهذا الاعتذار فاشرق وجهها ولما ضمتها دنانير وقبلتها أجابتها بقبلات حارة وضحكت رغم ارادتها من شدة الفرح

الفصل التاسع عشر

موقف حرج

فاثنت عبادة على لطف دنانير ومجاملتها . ولم يستتب بهن المقام حتى سمعن خفق نعال الطبيب فخفق قلب ميمونة ولكنها تجلدت . ونهضت دنانير لاستقباله فاذا هو لايزال بلباسه وزاد عليه كوفية اعتم بها وأرخى أطرافها حول رأسه كأنه على سفر فابتدرته دنانير قائلة « مالى أرى الطبيب مسافراً »

قال « لابد من ذهابي الآن لشغل هام وكنت اود البقاء عندكم لولا الضرورة ولكنني سأعود في الغد ان شاء الله »

وكانت عبادة قد وقفت لاستقباله وبجانبها ميمونة فلما سمعتا قوله تقدمت عبادة حتى التقت به وهو داخل من الباب فقالت « سر بحراسة الله ياولدي وارجو أن تعود سريعاً ولا تنسانا . . »

فتقدم نحو عبادة باحترام ومد يده فصافحها وهو يقول « حاشا لله ان

أنساك . . » والتفت الى دنانير وقال « إني اوصيك بهذه الخالة يا دنانير . . وان كنت لا أرى حاجة الى الوصاية لما آنسته من حبك لها . . »

وكانت ميمونة في اثناء ذلك واقفة وركبتاها ترتعدان وقد تولاها الخجل وكانت قد أعدت عبارة تقولها في وداعه فلما رأته نسيتها وتلعثم لسانها

أما هو فلما فرغ من وداع عبادة تحول نحو ميمونة ومد يده فقبض على يدها وأحس برعشتها وبرودتها فضغط عليها خلسة ووجه كلامه الى دنانير وقال « وهل أوصيك بلمياء . كان يجب أن أوصي أم حبيبة بهـا على انني لا أرى حاجة الى ذلك وقد رأيت من تحابهما ما لاحاجة معه الى توصية بل يجدر بي الآن أن أوسط لمياء لدى مولاتنا . . من أجلي » ثم وجه خطابه الى ميمونة وهو لايزال ضاغطاً على يدها ضغطاً ترافقـه رعدة متبادلة وقال « وهل تتوسطين لي عندها . . ما أسرع تسلطك على قلب مولاتنا حتى استأنست بك كانها تعرفك منذ أعوام » قال ذلك وابتسم وقد أبرقت عيناه وكادتا تبيحان بما في قلبه

وأما هي فلا تسل عن حالها وما كان يتجاذبها من الخجل والامتنان والفرح لما آنسته من تلطفه وما توسمته في خلال حديثه من المغامز الدالة على حبه فسكتت وأطرقت وهذا ابلغ جواب من فتاة في مثل هـذه الحال لـكنها لم تتمالك عن الابتسام وبان السرور في وجهها

أما هو فـكأنه تنبه لنفسه وندم على ما فرط منه فأفلت يدها وعاد الى انقباضه وأظهر الجلد والاهتمام وتحول عن ميمونة الى دنانير فحياها بسرعة وقال « أستودعكم الله الى الغد » وخرج مسرعاً

وكانت دنانير قد لحظت ما بدا منه وسرها ما رأت من اهتمامه بعد أن استاءت من فتوره للمرة الاولى ولـكنها تجاهلت وأجابت الطبيب جواب الوداع وعادت الى ضيفتها فقالت « ما أكثر اهتمام هـذا الطبيب وما أكثر شواغله فانك لاتلبث أن تراه جالساً حتى تراه نهض الى شغل هام . إني لم أفهم سره . . »

فقطعت عبادة حديثها قائلة « هـذا هو حاله معنا منذ عرفناه فمع توالي

احسانه علينا لا أذكر انه جالسنا ساعة أو بعض ساعة فاني لم أره إلا مهتما مقطبا وهذه أول مرة رأيته يبتسم ولم يطل ابتسامه فعاد الى حاله »

أما ميمونة فبعد أن اطمأن بالها وفرح قلبها بما اظهره بهزاد في ذلك الخطاب ما لبثت أن عادت الى هواجسها عندما أفلت يدها بسرعة وتغير وجهه فجأة على انها تشاغلت عن هواجسها بالمحادثة وبعد قليل عادت دنانير الى الترحيب بهما ثم دعتهما الى الرقاد فذهبتا

الفصل العشرون

قاعة العيارين

أما سلمان فقد علمت انه هو الذي تنكر باسم الملفان سعدون واختلط بالعامة وصاحب رئيس العيارين خدمة لمولاه بهزاد . وقد ترك الهرش في ذلك المساء على أن يعود اليه في تلك الليلة ولو طال غيابه ويلاقيه في قاعة العيارين . وقد رأيت ان سلمان انما أسرع الى القصر ليطلع الطبيب على موت الرشيد فلما رآه يعلم ما لم يعلمه هو من أمر البيعة وغيرها رأى أن يعود بهذه الاخبار الى الهرش لعله اذا رافقه الى صاحب الشرطة يقدر أن يبغته بهذا الخبر فيزيد اعتقاده بصدق مندله

فلما ودع مولاه الحكيم اختلى لتبديل ثيابه وعاد الى العمامة والسالفين واللحية والجبة وأسرع الى بغلته فركبها وسار يطلب قاعة العيارين . وكان الليل قد انتصف وأقفلت المنازل وطاف الحفراء يتنادون واذا رأوا غريباً أوقفوه . أما سعدون فقد كان من لباسه وقيافته شافع حتى بلغ جسر بغداد ولم يكن له بد من المرور عليه الى البر الغربي والحفراء قائمون على طرفيه وقاعة العيارين بالحربية وراءه فمر على الجسر ولم يعترضه أحد حتى دخل البر الغربي وهو بغداد الاصلية مدينة المنصور وحولها الارباض القديمة وفيها الشوارع الضيقة وقد علقت المصابيح في أوائلها ووقف الحفراء يحفرون بأسلحتهم

ونبابيتهم فلما خامره الخوف منهم وقف ونادى أحدهم فأسرع اليه فقال له « سر امامي الى قاعة العيارين »

فلما سمعه الخفير يخاطبه بصيغة الامر ورأى لباسه توهمه من أهل الذمة المقربين من الخليفة للطبابة أو النجامة أو نحوهما . وما زال الخفير ماشياً بين يديه حتى أقبل على بناء ضخم من ناحية الحربية ببابه عياران عليهما المئزر وعمامة الخوص فلما رأيا الملفان على بغلته عرفاه فتقدما اليه وأعاناه في التحول وقالا له « ان مولانا الهرش في انتظارك وانما ذهب الى مكان قريب لايلبث أن يعود وقد أوصانا أن نرحب بك وندخلك القاعة تنتظره فيها »

فترجل سلمان ومشى العيار بين يديه وهو يتخطى وراءه بعكازه حتى استطرق من الدهليز الى ميدان تطرق منه الى قاعة كبيرة فيها عدة مصابيح مدلاة من سقفها كالثريا وفي أرضها بساط عليه نقوش ووسائد ومقاعد . فدعاه العيار للجلوس على مقعد في اليمين فجلس وهذه أول مرة دخل فيها قاعة العيارين فلم يدهشه ما هناك من الأثاث الثمين ولكنه دهش لما رآه معلقاً في جدرانها من ضروب الاسلحة وأدوات الحرب وأصناف الحيل . فشاهد فضلاً عن السيوف والاقواس والرماح أنواعاً من المقاليع بين مصنوع من الجلد أو مجدول من الشعر أو من الحرير وكل مقلاع مخلاته بجانبه والمخالى أيضاً أنواع . ورأى في بعض جوانب القاعة عصياً طويلة من خشب الشوم ونحوه يثب عليها العيارون في قطع الانهر وبجانبها سلالم مصنوعة من الحبال تنتهي من اطرافها بكلاليب يرمونها على السطوح اذا أرادوا الوثوب عليها ويقال لها سلالم التسليك . غير ما رآه من أدوات النفط التي يشعلون بها الخرق المبتلة بالنفط ويرمونها بالمجانيق ولم ير هناك الا منجنيقاً واحداً صغير الحجم لرمي النبال او النفط وليس مما ترمى به الحجارة الضخمة غير ما رآه معلقاً في صدر القاعة من الدبابيس وهي العصى فيها المسامير من الحديد وبعضها مساميره من الفضة أو الذهب . وهذا الدبوس لا يحمله إلا الرؤساء وبينها دبابيس مصنوعة من الحديد ورأى على رف هناك أرغفة من الرصاص يستخدمها العيارون رمياً على أعدائهم فتذهب بقوة عظيمة وقد تقتل عدة أشخاص برمية واحدة . ورأى كثيراً من

أدوات القتل والكسر والنقب وضروباً من الحبال وغيرها مما يحتاج اليه العيارون

الفصل الحادي والعشرون

صاحب الشرطة

قضى سلمان نصف ساعة ظنها عدة ساعات لفرط قلقه واستغرق في هواجسه يراجع ما مر به تلك الليلة من الغرائب . ثم سمع ضوضاء بباب القاعة فعلم ان الهرش قدم فتحفز للقائه وهو يصلح هندامه . واذا بالهرش قد دخل مسرعاً وفي أثره شاب جميل الصورة بادي الطلعة عليه قباء وسراويل وقلنسوة وقد نبت عارضاه وبان عذاره ويظهر من بياض وجهه انه من الغلمان الارقاء البيض فوقف الغلام بالباب وأسرع الهرش الى سلمان وكان قد وقف له فحياه وابتدره قائلا « قد أبطأت عليك رغم ارادتي فان حامداً (وأشار الى الغلام) له حاجة عند صاحب الشرطة وأبى إلا أن يصحبني الليلة فجئت به معي فهل أنت عازم على الذهاب اليه أيضاً ؟ »

قال « انما جئت عملا باشارتك مع علمي اننا في نصف الليل ولكنك ألححت علي بالرجوع . . فاذا كنت لاترى حاجة الى الذهاب رجعت . . . »

فقطع الهرش كلامه قائلا « بل أنا شديد الرغبة في الذهاب ولو اننا في آخر الليل . . . هيا بنا فان الركائب معدة لنا » ثم التفت الى الغلام وقال « نحن ذاهبون مع الملفان سعدون الى صاحب الشرطة فاذا وصلنا اليه أوصيته بك ليدخلك في سلك الشاكرية وذلك خير لك من أن تكون عياراً . . »

ففهم سلمان ان الهرش وعد الغلام بادخاله في ذلك السلك وتبينه عن قرب فرأى فيه فضلا عن الجمال ذكاء وانفة ولم يستغرب ذلك فقد كان بين الارقاء المجلوبين الى بغداد أو المولودين فيها جماعة من أجمل خلق الله وأذكاهم

وأكثر مايتعاطونه الجندية أو الحراسة ينتظمون مع الشاكرية الذين يتولون نقل المراسلات في قصر الخليفة فخرج الهرش وهو ممسك بيد سلمان احتفاء به وفي خاطره أن يسأله عما اكتشفه من الاخبار الجديدة ولكنه استنكف من التعجيل في ذلك

فلما خرجا من القاعة ركب سلمان بغلته وامتطى الهرش فرسه ومشى في ركابيهما عياران وركب ذلك الغلام حماراً وسار في أثرهما وهو يستغرب مايراه من احتفاء الهرش بذلك الملفان . . وانما كان همه أن يوفق الى الالتحاق بالشاكرية عملا باشارة مولاه مع أنه كان يتأهب للخدمة في وجاق العيارين ولكنه لم يكن يستطيع مخالفة الهرش لأنه ربي في حياطته ولم يكن يعرف ولياً سواه . وكان يطيعه على الخصوص لما كان يؤانسه من انعطافه نحوه غير انعطاف المولى الى مولاه لأنه كان يعامله معاملة الاب لابنه وقد عنى بتعليمه وتثقيفه على غير ما تعوده العيارون كانه مكلف بذلك بقول فوق قوله

ولم يكن منزل صاحب الشرطة بعيداً عن قاعة العيارين فما عتموا أن وصلوا اليه فترجلوا بجانب باب كبير كان حارساه قد غلب عليهما النعاس فلما سمعا قرقعة اللجم نهضا فرأيا الهرش فوسعا له بلا استئذان فدخل والملفان سعدون الى جانبه يتوكأ على عكازه فمشى أحد الحراس بين يديهما بالمصباح في رواق مستطيل الى قاعة عليها ستر مسدول . . . فمشى الهرش وهو ينحنح فتقدم اليه الحاجب وتطاول لمصافحته فابتدره قائلا : «هل مولانا هنا» قال « أظنكم على موعد من لقائه لاني لا أعلم أنه بقي ساهراً هنا الى مثل هذه الساعة منذ أعوام مع شيخوخته . . »

فلم يجبه الهرش على هذه الملاحظة بل ظل سائراً حتى رفع الستر وأشار الى الملفان سعدون أن يدخل وأومأ الى حامد أن يمكث في الرواق ريثما يستقدمه. أما الحاجب فأعلن قدوم الزائرين بقوله «ان الهرش داخل يامولاي»

فدخل سلمان وهو في ما وصفناه من قيافة الملفانية بعد أن نزع حذاءه وترك عكازه بجانب الباب . فرأى ابن ماهان في صدر القاعة على وسادة وبجانبه

رجلان قد أقبل أحدهما نحوه كانه يقص عليه حديثاً هاماً . فعرف سلمان حالا انه سلام صاحب البريد جاء ليسر اليه الخبر الذى وصله تلك الليلة عن موت الرشيد وكان ابن ماهان يتطاول بعنقه لسماعه وقد بدت الدهشة في عينيه

وكان الرجل الآخر شاباً في نحو الخامسة والعشرين من عمره جميل الطلعة حسن البزة وجهه مشرب حمرة تتلألأ في عينيه ماء الشبيبة وعليه ثوب ثمين وحول قلنسوته عمامة مزركشة وقد تربع وأخفى قدميه تحت سراويل من الخز الثمين . وقد تضوعت القاعة من طيبه ولم يكن هذا الشاب أقل اصغاء لحديث صاحب البريد من ابن ماهان . فعرف سلمان حالا انه ابن الفضل ابن الربيع ولم يكن أحد من هؤلاء يعرف الملفان سعدون إلا بما سمعوه عنه من الهرش . .

وكان ابن ماهان قد طعن في السن ومطامعه مازالت في ابانها . وله لحية واسعة كان يخضبها بالحناء وقد تغضن جبينه واتضحت الشيخوخة في وجهه . ولكن الكبرياء والغرور مازالا ظاهرين في جلسته ولفتته وأسلوب خطابه . وقد زاده كبراً ما اختص من الدالة على رجال الدولة لسبقه في خدمتها من أيام المنصور . وخصوصاً لما توفي هذا الخليفة سنة ١٥٨ هـ وأبى عيسى بن موسى لما علم بموته أن يبايع لابنه المهدي وكان ابن ماهان حاضراً فوضع يده على قبضة حسامه وصاح فيه « والله لتبايعن أو لأضربن عنقك » فبايع فارتفعت منزلة ابن ماهان لدى الخلفاء العباسيين من ذلك الحين . وتوالى على عرش الخلافة في أيامه أربعة خلفاء آخرهم الرشيد . وكان قد حسد البرامكة ووالى الفضل بن الربيع واتفقا على معاداة الفرس ومن قال قولهم . ولذلك رأيناه مقرباً من الامين وقد جعله صاحب شرطته فأصبح همه تأييد سلطته

وكان شديد القلق لاستطلاع مستقبل حال الخلافة بعد سفر الرشيد وكاشف الهرش بذلك فأخبره بقدرة الملفان سعدون على استطلاع الغيب

وكان الهرش قد وعده أن يأتيه به في تلك الليلة كما تقدم فلبث ابن ماهان في انتظاره على مثل الجمر فجاءه صاحب البريد منذ ساعة وأسر

اليه خبر الرشيد وجلسا يتباحثان في ماعساه أن يحدث من التغيير أما ابن الفضل فكان يتردد الى ابن ماهان ويجالسه بلا كلفة مراعاة لمنصب أبيه في الوزارة فاشترك في سماع الخبر .فلما سمع ابن ماهان الحاجب ينبئه بقدوم الهرش التفت نحو الباب فرآه داخلا وسلمان الى جانبه فرحب بهما واصطنع ضحكة يظهر بها تلطفه كما يفعل بعض المتغطرسين اذا أحب التظاهر بالتواضع ولا يخفى غرضه على جلسائه فيستثقلون ذلك التلطف لظهور التكلف فيه

ولم يحفل سلمان (أو الملفان سعدون) بتلك الظواهر فظل داخلا وسلم وتقدم الهرش فقال : « هذا الملفان سعدون قد جاء معي »

فابتسم ابن ماهان وهو يمشط لحيته بأنامله ولم يتزحزح من مكانه وقال « مرحبا بالملفان العالم المنجم » وأومأ اليهما أن يجلسا والتفت الى صاحب البريد وقال « قد كنت في قلق لاستطلاع الخبر الذى قصصته على وأحببت أن استعين على كشفه بعلم هذا المنجم وقد ذهبت الحاجة الى ذلك الآن » ثم بلع ريقه وقال وهو يصلح مجلسه « ولكني سررت بمعرفته لعلى احتاج اليه في فرصة أخرى . »

فأدرك الهرش أن صاحب الشرطة يحسب الخبر الذي قصه عليه صاحب البريد لم يبلغهما فنظر الى الملفان سعدون نظرة فهم مراده منها وهو على ثقة انه يحمل خبراً لايعرفه أحد من أهل بغداد فاجاب الهرش بنظرة حادة وابتسم وهز كتفيه . فحول الهرش وجهه الى ابن ماهان وقال « أرى صاحب الشرطة في شاغل مع صاحب البريد ومع مولانا ابن الفضل وأخشى أننا ثقلنا عليه بمجيئنا »

فضحك والاهتمام باد في عينيه وقال « ان المنجمين لايستغنى عنهم في مثل هذه الحال لاسيما اذا صدقوا في تنبئهم » ثم وجه خطابه الى سلمان وقال « هل كشف لك خبر يهمنا يا ملفان ؟ »

فقال وهو يظهر الاستخفاف « ربما كان ذلك »

فاعترض الهرش كلامه وقال « ان الخبر الذى تتسارون به قد كشف لنا منذ ساعات . . . »

فتجاهل ابن ماهان وقال « أى خبر تعني ؟ »

فنظر الهرش الى سلمان ففهم مراده وقال « ليس موت الرشيد جديداً عندى ولا أقنع به وحده بل ان عملت المندل هذه الليلة ربما . .

الفصل الثانى والعشرون

الدهشة

فبغت ابن ماهان لهذه الفاجأة ونظر الى صاحب البريد كأنه يستعينه في الاستغراب فتصدى ابن الفضل للسؤال وقال « وهل عندك خبر غير موت الرشيد ؟ »

قال « ان الرشيد رحمه الله كان مريضا قبل سفره وكلنا كنا نتوقع موته لكن المندل كشف لى أموراً اذا وعدتمونى بكتمانها عن مولانا الامين حتى تظهر له من غيري قلتها لكم » قال ذلك وهو لايعني كتمانها حقيقة وانما لجأ الى هذا الشرط التماسا لرغبة القوم في سرعة النشر ـ كذلك يفعل بعض أهل الدهاء اذا أحبوا نشر مأثرة لهم فانهم يظهرون الرغبة في كتمانها ويبالغون في خوفهم من نشرها وهم ملمون أن تحذير السامع من افشائها يبعثه على الرغبة في اذاعتها (سراً) ويعظم عنده قدر الناقل

فلما سمعه ابن الفضل يطلب التكتم زاد رغبة في الاطلاع وقال « اذا كنت تعرف شيئاً يستحق الاهتمام فان اطلاع مولانا الامين عليه يدعو الى تقربك ورفع مقامك . . ماذا عسى أن يكون ماعندك ؟ »

فقال « قد اطلعت على سر يهم ابن الفضل أكثر مما يهم سائر الحضور . »

فسحف ابن الفضل نحوه وهو لايشعر وقال « وما ذلك ؟ وكيف يهم ابن الفضل على الخصوص . . » قال ذلك وهو يظن الملفان لايعرفه

فقال سلمان « ان الخبر يهم ابن الفضل لانه يتعلق بابيه الوزير . . . أى بابيك »

فاستغرب معرفته اياه ولـكنه شغل عن ذلك برغبته في الاطلاع على ذلك الخبر ونظر الى ابن ماهان فالتفت هذا الى الملفان وقال أرى دعواك عريضة فقل ماعندك لنرى . فاذا صدقت ضمنا لك التقرب من مولانا »

قال « أظنك تعني أمير المؤمنين الأمين فالتقرب منه سعادة واغا نحن عبيده . . »

فاستغرب تصريحه بقوله « أمير المؤمنين » فقال « كيف تدعوه أمير المؤمنين وهو لايعلم الا انه ولى العهد فهب ان الرشيد مات فهل الخلافة صائرة اليه ؟ »

قال « بل قد صارت له وحده وقضى الامر . . »

فعلم اذ ذاك انه يعرف شيئاً جديداً فقال « له وحده ؟ وكيف صارت ؟ »

فاشار باصبعه الى ابن الفضل وقال « قد صارت بسعى مولانا الوزير والدك . . . »

فتطاولت أعناقهم لسماع الخبر والهرش لايقل عنهم استغراباً فابتدره قائلا « ذلك شيء جديد يظهر انك عرفته بعدئذ وكيف ذلك . . . ؟ اقصص علينا ماعرفته . . . »

فاعتدل في مجلسه وأخذ يقص ما سمعه من بهزاد وهو مطرق كأنه يقرأه في صحيفة بين يديه والـكل صامتون وقلوبهم تخفق دهشة واستغراباً ولاسيما ابن الفضل فانه ازداد افتخاراً بما أتاه أبوه من الخدم الجليلة في مصلحة الامين وكان قد اطلع على مقدمات ذلك الحديث من قبل فلما سمع النتائج التى قصها سلمان تحقق صدقها . ولم يتم سعدون خبره حتى دهش له ابن الفضل ولم يتمالك أن سحف حتى دنا منه وربت له على كتفه استحساناً وإعجاباً وقال « بورك فيك انك منجم عجيب . . ؟

أما ابن ماهان فتماسك عن الاعجاب وقال « هل أنت واثق مما تقول يارجل »

فرفع سلمان منكبيه وحاجبيه وقلب شفته وقال « هذا ما كشفه لي المندل ولا أعهد المندل يخدعني من قبل »

فصغر صاحب البريد في عيني نفسه واحتقر الخبر الذي جاء به وغلب عليه السكوت . اما ابن ماهان فالتفت الى الهرش وقال « اذا صح ماجاءنا به الملفان فان الامر ذو خطر واني أبشره برياسة المنجمين في دار الخلافة فاكتموا الآن ماسمعتموه لنرى مايكون . . » وتناول من تحت وسادته صرة من النقود وقدمها الى المنجم وهو يقول « وهذه أجرة طريقك وثمن البخور »

فتباعد سلمان ويداه وراء ظهره كأنه يستنكر ذلك الانعام ويد ابن ماهان لاتزال ممدودة بالصرة فالتفت الى الهرش لفتة الاستغراب فضحك هذا وتناول الصرة وأعادها الى مكانها وقال « ان منجمنا لايتعاطى هذه الصناعة رغبة في الانعام وانما هو صديق يخدمنا في سبيل الصداقة »

فأعجب الحضور بتلك الانفة وقال صاحب الشرطة « لابأس . . . فانه نائل أضعاف ذلك بما أرجوه من تقربه الى الخليفة »

وعند ذلك تحفز سلمان للوقوف وهو يقول « اعذرونا فقد أزعجناكم وأطلنا سهركم »

فلم يتمالك ابن ماهان عن النهوض احتراماً له وقد ذهبت كبرياؤه وأحس بافتقاره الى علم الرجل ـ وذلك شأن الناس في معاملة أهل المعرفة فانهم تعودوا احترام الظواهر لاول وهلة حتى تظهر المعرفة فتكون العاقبة لها ـ فقد تجالس رجلا لاتعجبك بزته فتحتقره ولا تزال ترى لك الفضل عليه حتى يتكلم فاذا رأيت منه علماً انقلب احتقارك احتراما وشعرت بفضل له عليك وربما دخل عليك فلم تقف له فلا تلبث اذا عرفت فضله أن تخرج لوداعه وتزوده الثناء والاعجاب ـ كذلك فعل ابن ماهان بالملفان سعدون فقد رأيت انه استقبله استقبالا بارداً ظناً منه انه جاء يتزلف اليه يلتمس انعامه فلما رأى علمه وتجافيه عن قبول الانعام احترمه ووقف لوداعه وشيعه الى باب المجلس وتقدم اليه أن يأتيه في الغد

ولما ودع ابن ماهان الهرش بالغ في الثناء عليه لانه كان سبباً لتعريفه بالمنجم فتذكر الهرش غلامه حامداً وكان لا يزال في انتظاره بالباب فاجابه « اني لم أفعل شيئاً يستحق الثناء وان نعمك متوالية علينا ثم نادى حامداً فاتى فقدمه

الى ابن ماهان وقال له « هذا غلام أضن به وأحب أن يكون في جملة رجال الشاكرية في قصر الخليفة فاذا تفضلت أدخله في جملتهم . . »

فتقدم الغلام وأكب على يد ابن ماهان فقبلها ووقف متأدباً فقال له « ادخل الآن الى دار الغلمان وفي الغد تكون في جملة الشاكرية » والتفت الى الهرش وقال « كن مطمئناً انه سيكون على ما تحب »

فاثنى الهرش عليه وخرج

أما ابن الفضل فكان أكثرهم اعجاباً وارتياحاً وتوسم في الرجل منفعة له شخصية فرافقه حتى خرجا من الباب ولم يبق معهما غير الهرش فاسر اليه أنه سيكلفه بامر هام لاعلاقة له بالخلافة والح عليه أن يجيئه في فرصة أخرى

فاشار مطيعاً وخرج مع الهرش ثم ودعه وركب بغلته وسار ولم يبق من الليل إلا القليل . أما صاحب البريد فلم ينم تلك الليلة استعدادا لمقابلة الامين لينقل اليه خبر والده . وقد كان عليه أن يبلغه اياه حال وصوله ولكنه لم يتمالك عن مكاشفة صاحب الشرطة به من قبل . فبكر في الصباح الى قصر الخلد حيث كان يقيم الامين الى ذلك اليوم ليطلعه على الخبر

الفصل الثالث والعشرون

المبايعة

كل ذلك وأهل بغداد غافلون عما جرى فاصبحوا في اليوم التالي والمنادون يطوفون الشوارع ينعون الرشيد ويترحمون عليه ويعلنون خلافة الامين . واهتم الهاشميون ورجال الدولة باخذ البيعة على جاري العادة

وبكر سعدون في الصباح التالى (١٩ جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ) الى دار الشرطة فرحب به ابن ماهان (١) وأركبه سرا في حاشيته ليشهد الاحتفال بالبيعة . حتى اذا وصلوا قصر الخلد ترجلوا ودخلوا في جملة الداخلين

(١) جاء في كتب التاريخ ان الامين ولى ابن ماهان الشرطة يوم تولى الخلافة

بين تزاحم الاجناد والاعيان . ولما أتوا دار العامة أذن لهم وسعدون بجانب ابن ماهان

وحضر البيعة شيوخ بني هاشم الذين كانوا في بغداد والقواد وأكابر رجال الدولة حتى غصت الدار بهم . وجلس الامين على سرير الخلافة وكان قد بلغ الثالثة والعشرين من عمره وتخشن عضله واسترسلت لحيته واستطال عارضاه وبانت رجولته . وكان طويل القامة قوي العضل يلقى الاسد فلا يبالي به وكان مع ذلك جميل الصورة أبيض اللون صغير العينين أقنى الانف سبط الشعر وفي وجهه أثر الجدري (١) وكانوا قد البسوه بدلة الخلافة وجعلوا العمامة المرصعة على رأسه والبردة على كتفه وقد جاءه بها رجاء الخادم من عند أخيه صالح من طوس . وجاءه أيضاً بقضيب الخلافة والخاتم فلبس الخاتم باصبعه وحمل القضيب بيده فازداد جلالا وجمالا والناس جلوس بين يديه — بنو هاشم على الكراسي وسائر الناس على الوسائد أو على البساط وبعضهم وقوف والكل منصتون مطرقون حزناً على الرشيد واحتراماً للامين

وكان أول من تقدم من الحضور سلام صاحب البريد فانه أقبل اليه فعزاه بابيه وهنأه بالخلافة ثم تقدم بنو هاشم فعزوه وبايعوه ووكل سليمان بن المنصور شيخ بني هاشم بأخذ البيعة على القواد وكبار رجال الدولة وفي جملتهم ابن ماهان وابن الفضل

وكان الملفان واقفاً في جملة الجمع ولم ينتبه له أحد فلما فرغ الناس من المبايعة وقف الامين فيهم خطيباً فاصغوا وتطاولوا باعناقهم فحمد الله ثم قال « يا أيها الناس خصوصاً يا بني العباس إن المنون بمرصد لذوي الانفاس حتم مني الله لايدفع حلوله ولا ينكر نزوله . فارتجعوا قلوبكم من الحزن الماضي الى السرور بالباقي تحوزوا ثواب الصابرين وتعطوا أجر الشاكرين » (٢)

ولم يكن الناس يتوقعون هذه الجرأة منه فاستغربوا ذلك ثم أمرأن يفرق

(١) ابو الفداء ج ٢ والمسعودي ج ٢ وسير الملوك
(٢) ذكروا انه خطب ذلك في جامع الرصافة

في الجند رزق أربعة وعشرين شهراً وكانت قد جرت العادة إذا تولى الخليفة أن ينعم على الجند بأرزاقهم ليكتسب ثقتهم

ولما فرغ من مبايعة الناس تقدم الحسن بن هانىء (أبو نواس) شاعره فهنأه بالخلافة وعزاه بأبيه وهذا قوله :

جرت جوار بالسعد والنحس فنحن في وحشة وفي أنس
العين تبكي والسن ضاحكة فنحن في مأتم وفي عرس
يضحكها القائم الامين ويبـ كيها وفاة الرشيد بالامس
بدران بدر أضحى ببغداد في الـ خلد وبدر بطوس في الرمس

وكان ابن الفضل في اثناء ذلك لايشغله شاغل عن الامر الذي يريد مسارة الملفان سعدون به لكنه ما كاد يفرغ من مشاهدة الاحتفال حتى أحس بانقضاء الوقت على أنه أحب مخاطبة الرجل فرآه يتأهب للخروج فاعترضه وسأله القدوم معه فاعتذر بما يدعو الى سرعة ذهابه الساعة وانه سيعود اليه في المساء وكان عازماً على البحث عن مولاه بهزاد ليرى مايكون

فقال له ابن الفضل «عد الينا هذا المساء في منزلنا بالرصافة » فودعه ومضى يلتمس القصر المأموني

الفصل الرابع والعشرون

اهل القصر المأموني

وكان أهل ذلك القصر قد بلغهم ما أصاب الرشيد فشق خبر وفاته عليهم ولا سيما زينب لانها كانت شديدة الولع به فلما سمعت الخبر بكت كثيراً . وأدركت دنانير الانقلاب الذي يخشى حدوثه بعد موت الرشيد لاطلاعها على كثير من دسائس أهل البلاط وان كانت لم تعرف بعد ما عرفه بهزاد من نكث بيعة المأمون . على أنها أصبحت تنتظر خبراً من مولاها لانه اذا كان نصيبه ولاية خراسان بعد وفاة أبيه كما تم الاتفاق يوم سفرهما فربما بعث الى ابنته وسائر أهله بالذهاب اليه . وشعرت وهي في ذلك الاضطراب بحاجتها الى

الطبيب بهزاد تستشيره بما تفعل أو لعله يساعدها في التخفيف عن زينب فانها مع صغر سنها اشتد حزنها على موت جدها وانقبض صدرها ولم تعد تفرح لشيء بعد أن كانت تضحك لاي شيء فلازمت غرفتها ودنانير لاتفارقها . وأمسكت زينب عن الطعام حتى أثر الحزن في صحتها وأصابها دوار وامتقع لونها وعجزت دنانير عن تعزيتها . ولما شغل بالها على صحتها استأذنتها في استشارة بعض أطباء القصر فابت فالحت عليها بذلك فاجابتها « أين طبيبنا الخراساني ؟ »

وعلمت دنانير أنها تستأنس به فهو يسليها عن حزنها فضلا عن معالجة بدنها فمكثت تنتظر مجيئه بفارغ الصبر

أما عبادة ام جعفر فقد ساءها موت الرشيد لانه بمنزلة ولدها كما علمت فضلا عن ذهاب آمالها بما وعدتها به زينب من التوسط لديه في شأنها. ولكنها اشتغلت من الجهة الاخرى بما عساه أن يكون من الانقلاب في الخلافة مما قد يعود بالخير عليها على انها كانت ضعيفة الأمل بذلك لعلمها ببعض ما يسعى فيه اعداء المأمون وهم اعداء الفرس واعداؤها طبعاً . ورأت من اهم واجباتها ان تساعد دنانير في التخفيف عن زينب وإذا خلت بها تباحثتا في ما سيكون

واما ميمونة فقد شغلت عن ذلك كله بما هاج في قلبها من الشوق إلى حبيبها مع رغبتها في تحقق ما في خاطره من نحوها — والحب يشغل صاحبه عما حوله من الشؤون فاذا غاب حبيبه طارت نفسه شعاعاً وأصبح همه أن يعود اليه . لا شيء ينسيه شوقه او يعزيه على وجده واذا اشتغل بشيء فالى أجل . واذا اجتمع بالحبيب قام بينه وبين ماجريات الحوادث سد منيع فيصبح أصم الا عن سماع حديثه وأبكم الا في جوابه وأعمى الا عن رؤيته . وقد يسمع أو يرى ولكن كالسامع من وراء جدار أو الناظر في دجور الظلام وأما الطوارىء اذا وقعت حوله فانما يهمه منها مايتعلق بقربه من الحبيب أو بعده عنه — فلم يكن موت الرشيد ليهم ميمونة الا من حيث هذه العلاقة بهذه الشؤون لانها مازالت ترتاب بما في نفس بهزاد ولا سيما بعد أن ودعها بالامس وخرج مسرعاً على تلك الصورة . ومضى معظم ذلك النهار ولم يرجع

ولا جاء خادمه وكانت تستأنس به وقد ودت مجيئه على الخصوص لتسأله غيابه وهل يطول

قضت النهار كله في قلق لاتبالي باهتمام أهل ذلك القصر بالحزن ولا بما قام في بغداد من الضوضاء للاحتفال بالبيعة وان كانوا بعيدين عن مركز الاحتفال على انها كانت تتشاغل بالجلوس الى زينب وتخفف عنها بما يحضرها من عبارات التعزية وعيناها تنظران نحو الدار تتوقع أن ترى قادماً يبشر بمجيء بهزاد وأذناها مصغيتان لعلها تسمع وقع قدميه ثم سمعت دنانير تخاطب جدتها بشأنه وتستبطئه وتتمنى قدومه فخفق قلبها ولكنها ظلت ساكتة وبالها في قلق والشمس قد مالت عن خط الهاجرة وهي لم تذق طعاماً وأهل القصر في شاغل عنها بشؤونهم وأحزانهم

وهي في ذلك رأت بعض الغلمان قادماً في وجهه خبر فتحفزت لملاقاته ثم أمسكت نفسها حياء لئلا يكون الغلام قادماً الى دنانير بشأن يتعلق بالقصر فتظاهرت انها نهضت لبعض شؤنها وتمشت على مهل حتى صارت بالباب فرأت الغلام وقف وحيا دنانير وقال لها « ان سلمان غلام الطبيب بالباب »

تخفق قلب ميمونة وكادت البغتة تظهر فى محياها لمجرد الاشارة الى اسمه . أما دنانير فأجابت الغلام « يدخل سلمان . . وعساه ان يكون مبشراً بقدوم مولاه . . . فاننا في حاجة اليه اليوم »

وبعد هنيهة اقبل سلمان بلباسه الاصلي وهو يتثاقل بمشيته ويتظاهر بالحزن والانقباض وميمونة تراعي حركاته فلما أطل على القاعة انحنى احتراما ووقف حتى يؤذن له . فابتدرته دنانير قائلة « ما وراءك يا سلمان ... أرأيت ما أصابنا ؟ . » وخنقتها العبرات

فاطرق ودخل حتى دنا من مجلس زينب وانحنى كأنه يريد تقبيل يدها وكأنه مجهش للبكاء ثم التفت الى دنانير وهو يتصاغر ويظهر الكآبة وقال « ان المصاب جلل يا مولاتي ... ان وفاة أمير المؤمنين ضربة كبيرة ... اطال الله بقاء مولاى المأمون وأنجاله وجعله خير خلف لخير سلف . . . » وغص بريقه وتراجع حتى وقف في بعض جوانب الغرفة

فاشارت اليه دنانير ان يقعد وقالت له « ارأيت طبيبنا اليوم ؟ »

قال « كلا يا سيدتي لم أره منذ افترقنا في الامس وكنت أحسبه رجع الى هنا . . »

قالت « لم يجيء ياسلمان . وقد كنا نتوقع مجيئه ونحن في هـذه الحال وقد مرضت مولاتنا ولا ترضى طبيباً سواه . . » قالت ذلك وفي كلامها غنة العتاب

فقال سلمان « الغائب عذره معه حتى يحضر .. فهو لا يلبث أن يأتي ولا احاله يغيب الى الغد .. او . . »

فقطعت عبادة كلامه قائلة « الا تعلم اين ذهب ؟ . »

قال « كلا . . وهل يعلم أحد بذهابه او مجيئه ؟ »

فقالت دنانير « قد عودنا التخلف عنا يوماً أو بضعة ايام ثم يعود الينا على غير موعد ولـكن . . »

فقالت عبادة « اتظنه ذهب الى بيته في المدائن ؟ »

فرفع حاجبيه وكتفيه وشخص بعينيه كأنه يتنصل من تبعـة الدلالة على مكانه أو يبالغ في تجاهله

وكانت ميمونة تسمع ما دار من الحديث والحياء يمنعها من الدخول فيه ثم غلب عليها حب الاطلاع فقالت وهي تتظاهر بالسـذاجة وقلة الاكتراث « أظنه الآن في بيته بالمدائن وقد اقفل بابه ليشتغل بالـكيمياء أو استخراج الـكنوز كما يقولون . . » ومع شدة تحفظها وتجلدها لم تتم هذه العبارة حتى توردت وجنتاها ووقع نظرها على دنانير فرأتها تتفرس في وجهها وهي تبتسم فازدادت خجلا واطرقت وتحولت الى وسادة في بعض جوانب الغرفة قعدت عليها وتشاغلت باصلاح خمارها

فتجاهل سلمان عن ذلك كله وقال وهو يوجه كلامه الى عبادة « ان النـاس يتهمون مولاي بأمور كثيرة هو برىء منها وأما انزواؤه في بيته احيـاناً فهو للمطالعة في بعض كتب الطب او الفلسفة . وفي كل حال لو عرفت انه هناك الآن لذهبت اليه واستقدمته . ولا أظنه يبطىء كثيراً .

فاذا لم يأت الليلة ولا صباح الغد عمدنا الى البحث عنه في المدائن أو غيرها »

وكانت دنانير تبالغ في اظهار القلق لغياب بهزاد إرضاء لزينب ومراعاة لاحساس ميمونة لعلمها ان الحياء يمنعها من اظهار قلقها فنابت هي عنها وتكلمت بلسانها فلما سمعت قول سلمان قالت « لا بد من البحث عنه الليلة اذا شئت »

فتراجع وأطرق وقال « ان امرك نافذ يا سيدتى وسأفعل ما تشائين وربما آتيكم بخبره الليلة او في صباح الغد »

فأثنت دنانير عليه وسكتت وهي تنظر إلى ميمونة فرأتها ترنو اليها ودلائل الشكر بادية في محياها فابتسمت وحولت وجهها الى عبادة وقالت « ألا ترين ذلك ؟ »

فأجابت على الفور « بلى . . واذا كان سلمان مشغولا بما يمنعه عن البحث فأنا أذهب للتفتيش عنه في المدائن فاننا نعرف منزله معرفة جيدة ومسيرنا الى هناك هين » ثم حكت وراء أذنها وعادت الى الحديث قائلة « واذا شئت أن يبحث سلمان في مكان آخر ونحن نذهب للبحث عنه في المدائن فعلنا »

فلما سمعت ميمونة اقتراح جدتها أشرق وجهها ارتياحاً لهذا الرأى لانه عبر عن احساسها كأنها قالت عنها ما تستطيع هى التصريح به

أما سلمان فانما وعد بالبحث عن بهزاد حياء من دنانير لانه راغب في الرجوع الى ابن الفضل قياماً بوعده ليغتنم ذلك الانقلاب لعله ينفعه في غرضه الذى جاء الى هنا من اجله . وكان من الجهة الاخرى لا يرى موجباً للقلق على غياب مولاه لعلمه بكثرة شواغله . على انه استأنف الكلام قائلا « ها إنى ذاهب للبحث عن الطبيب والاتكال على الله » وخرج

الفصل الخامس والعشرون

ابن الفضل

تركهم سلمان فى تلك الحال وخرج فغير هندامه وركب بغلته وسار الى قصر الفضل بن الربيع . والقصر يومئذ في الرصافة بالجانب الشرقى من بغداد يشرف على شارع الميدان وكان في الاصل اقطاعا من الرشيد لعباد بن الحصيب فصار كله للفضل بن الربيع (١) يقيم فيه مع أهله وهو على مسافة بعيدة من القصر المأموني وان كان كلاهما على الجانب الشرقي من بغداد . فقطع المخرم حتى دخل شارع الميدان وهو يبتدىء من سوق الثلاثاء وينتهى بالشماسية ويعرف هناك بشارع الخضير . وكانت تحمل اليه المصنوعات الصينية ونحوها من الاوانى الثمينة وتباع فيه

وصل سلمان الى باب القصر نحو الغروب وكان ابن الفضل في انتظاره وقد أوصى الحرس اذا جاء الملفان سعدون (ووصف لهم شكله) أن يدخلوه اليه فلما وصل الباب لم يمهله الحارس ريثما يترجل ويسأل فابتدره قائلا « الملفان سعدون ؟ »

قال « نعم »

قال « إن مولانا في انتظارك .. اتبعني »

فترجل الملفـان ومشى في طرق الحديقة وهو يضرب الارض بعكازه ويتباطأ في مشيته وقد أطرق وهو يتمتم بشفتيه كانه يتلو آية أو يقرأ تعويذة وأسرع حارس آخر فسبقهما وأنبأ ابن الفضل بقدومه . فقطعا البستان حتى وصلا إلى باب القصر الداخلي فاذا بابن الفضل قد خرج لملاقاة الملفان المنجم فرحب به وصافحه ومشى بجانبه حتى اتصلا من الدهليز الى قاعة استطرق منها إلى غرفة خصوصية لا يدخلها غير ابن الفضل وبعض خاصته وفيها سرير وبجانبه كرسيان وفي أرض الغرفة بسـاط ثمين وفي احدى زواياها منارة

(١) معجم ياقوت ١٠٨ ج ٤

عليها عدة شموع أناروها في تلك الساعة . فجلس ابن الفضل على السرير ودعا الملفان للجلوس على كرسي بجانبه

فجلس سلمان وهو لا يزال يتمتم وقد الصق ذراعه بجنبه كأنه يتأبط شيئاً يحرص عليه . فلما استقر به الجلوس استخرج من تحت إبطه منديلا من الحرير فيه كتاب هو عبارة عن درج من الرق قديم العهد قد تخرق من بعض جوانبه . وتمهل في حل الصرة واخرج ذلك الدرج مبالغة في الحرص عليه ووضعه في حجره فبانت من خلال تلك الخروق كتابة بحرف لا يقرأه الانس ولا الجان . ثم تظاهر انه فرغ من القراءة او التعزيم ومسح وجهه من جبهته الى لحيته والتفت الى ابن الفضل واخذ يثني عليه لحسن وفادته فاجابه « لقد اتيت أهلا ونزلت سهلا » وبش له وأظهر ممازحته لكي يستأنس به استعداداً لما ينوي كشفه له من اسرار ويزعم انه يداجيه

فابتسم الملفان وقال « لقد بالغت يا كرامى أيها الوزير . . . »

فتوهم ان الملفان انما يدعوه وزيراً اعتماداً على ما تبين له من علم الغيب في مستقبله لكنه تجاهل وأحب أن يتحقق ظنه فقال « انك تدعوني وزيراً والوزير والدى . . »

فقال « ان ابن الوزير وزير يا سيدي . . مر بما تشاء فانى مطيع »

قال « قد دعوتني وزيراً وأنا ادعوك رئيس المنجمين في دار امير المؤمنين

فادرك سلمان أنه يعده بهذا المنصب وهو قادر ان يضعه فيه لما يعلمه من نفوذ والده ورضى الامين عنهما فأحب ان يثبته في وعده فقال « بورك يابن الفضل فانه يقول ويفعل وأنا في كل حال سامع مطيع . . »

فأطرق ابن الفضل واعمل فكرته ثم قال « قد دعوتك لأمر سري أنا شديد الحرص على كتمانه وطيد الامل بالحصول عليه . اذا اسعفتني »

قال « أما ما يشير اليه مولاي فهو سر عن كل الناس إلا عني والملفان سعدون لا يقال له ذلك »

فاستغرب ابن الفضل دعواه وأحب أن يمتحن صدقه فقال « وهل أنت عالم بسري ؟

وكان سلمان قد سمع بعض خدم القصر المأموني يذكر حب ابن الفضل لميمونة وقد سمعه من عبادة وهي تقصه بالامس على دنانير وهم يظنون أنهم يقولون سراً — وكان الخدم يومئذ من اكثر الناس اطلاعا على أسرار مواليهم لأنهم كانوا لا يحذرون التكلم بحضرتهم استخفافاً بهم — فقال «أظنني أعرف سرك الا اذا كنت تعنى غير حبك لتلك الفتاة التي تظن نفسها مجهولة النسب »

فبغت ابن الفضل عند مفاجأته بهـذا التصريح وبانت البغتة في وجهه وهان عليه مكاشفته بمـا يكنه ضميره وقال « أما وقد علمت سرى فلا أخفى عنك أنى أحب تلك الفتاة حباً مبرحاً . . . أحبها من كل قلبي واتعشقها بكل جوارحي . . » قال ذلك وبانت دلائل الحب في وجهه فابرقت عيناه واحمر وجهه

فضحك سلمان وقال وهو يهز رأسه « ان الحب سلطان . انت تحبها ؟ »

فقال « نعم إنى أحبها فهل هي تحبني ؟ »

قال « لا أدرى ولعلها لو كانت معنا الآن لعرفت مكنونات قلبها غير ان ذلك يحتاج الى مندل »

قال « هب انها لا تحبني . . بل يظهر لى أنها لا تحبني الآن فما الحيلة ؟ . . اني إنما دعوتك لاستعين بك على ذلك فما قولك ؟ »

فتناول سلمان الدرج من حجره وفتحه واخذ يقلبه بين يديه ويتظاهر أنه يقرأ شيئاً منه ويعيد القراءة ويطرق ثم يرفع بصره الى السقف ويعيده الى الـكتاب ثم ينظر الى وجه ابن الفضل ويتفرس فيـه واخيراً أطرق ويده على لحيته كأنه يفكر ويأسف ثم قال « ان حبيبتك انتقلت من مكانها »

فاجفل ابن الفضل وقال « أين كانت واين صارت ؟ »

قال « ألم تكن في المدائن ؟ »

قال « بلى »

قال « ليست هى هنا الآن »

قال وأين هي . . اين ذهبت ؟ »

قال اعلم انها خرجت من المدائن ولا أدري أين أقامت . ان ذلك يحتاج الى بحث »

قال « ألعلها في الطريق الآن ؟ » قال ذلك لاعتقاده انها لو كانت في مكان معين لما خفى ذلك عليه

قال « ربما كانت على الطريق . . وليس هذا بالامر الهام . . هب أنها في السماء أو في الارض أو ما بينهما فهي لا تنجو من يدي . . »

فابرقت اسرة الفضل واطمأن خاطره وقال « جزاك الله خيراً . . . افعل ما بدا لك ولا تبخل بالنفقة على إتمام هذا العمل فاني ابذل ما املكه في سبيل الحصول عليها إنما أريد ان آخذها بشرع الله . . لانى احبها حباً صادقا ولا ادرى ما الذى يحملها على مخالفتي »

فابتسم سلمان واظهر الاستخفاف وقال « اظنك تدري السبب.ان عداوة الآباء متصلة بالبنين . . »

فازداد ابن الفضل استغرابا لكشف هذا السر وقال « صدقت . . ذلك هو السبب ولكن لو علمت هي مقدار حبي لها وأني سأنسيها ما أتاه والدى نحو والدها اظنها ترضى »

قال « قد علمت ذلك ولم ترض ولكن هذا لا يهمنا انها سترضى . . ان هذا القلم (وأشار الى دواة مغروسة في منطقته) يجعل الصخر ماء والماء صخراً ألا يقدر أن يلين قلب تلك الفتاة ؟ »

قال « افعل ما تراه ولا تسل عن النفقة »

فالتفت اليه شزراً وقال « ألم تكن حاضراً بالامس عند صاحب الشرطة ؟. انكم لاتزالون تهينون الاصدقاء . . ولكنكم تعودتم عشرة المتملقين والمتزلفين فلا لوم عليكم . . »

فابتدره ابن الفضل بالاعتذار وقال « عفوا يا سيدي فاني أقبل منك هذا الجميل وأرجو ان تقبل توسطي مع صاحب الشرطة في أن تكون رئيس المنجمين عند أمير المؤمنين . على أننا اذا فعلنا ذلك إنما نؤدي خدمة

عظمى للخليفة لأن وجود مثلك في بلاطه نعمة من نعم الله . . فما الذي تفعله الآن ؟ »

قال «دعني أبحث عن مقرها وسأكتب لك كتابا اذا استطعت إيصاله اليها على ما سأصف لك أتتك هي مذعنة تستهلك في مرضاتك »

فلم يتمالك ابن الفضل عند ذلك عن النهوض بغتة وقال « هل ما تعنيه صحيحاً ... ؟ اني لا أعرف كيف أشكرك . ومتى تكتب الكتاب؟ »

قال « أكتبه متى فرغت من بحثي .. لا تضجر .. ولا تستعجل»

قال « افعل ما يتراءى لك الا أمراً واحداً أرجو تطيعني فيه »

قال « وما هو ؟ »

قال « أن تبيت عندى الليلة وتصحبني غداً الى دار الخلافة فاقدمك لأمير المؤمنين ليجعلك رئيس المنجمين »

قال « الامر لك ولكنني لا أبيت عندك وإنما آتيك غداً اذا شئت »

قال « بل تبيت عندي فان القصر واسع اختر المخدع الذي يناسبك لا يزعجك فيه أحد وقد أرسلت الى صاحب الشرطة أن يوافينا غد الى قصر الخلافة في مدينة المنصور . لأن دار الخلافة انتقلت بعد مبايعة الامين من قصر الخلد الذى نعرفه خارج باب خراسان الى داخل المدينة (١) » قال ذلك وصفق فدخل غلامه فقال له « أعدد لنا المائدة للعشاء وقل لقيم الدار أن يعد مخدعاً ليبيت فيه الملفان الليلة» قال ذلك وهو مصمم على اجرائه فلما رأى تصميمه خاف أن يخالفه فيفسد عليه تدبيره فأطاع وبعد هنيهة نهض للعشاء وبات تلك الليلة هناك

(١) ابن الاثير ج ٦ وسير الملوك

الفصل السادس والعشرون

مدينة المنصور

وفي صباح اليوم التالى ركب ابن الفضل في موكبه وعليه الجبة السوداء التي يقابل بها الخلفاء العباسيون وامتطى سلمان بغلته وهو في قيافته المعهودة وخرجوا من الرصافة غربا نحو الجسر حتى اذا قطعوه جاءوا الطريق المؤدى الى قصر الخلد فتجاوزوه لان الامين انتقل منه بعد البيعة الى قصر المنصور المعروف بباب الذهب كما تقدم

وكانت مدينة المنصور مستديرة الشكل حولها سور ضخم طوله ٢٠٠٠٠ ذراع وعرض أساسه ٩٠ ذراعا ثم ينحط حتى يصير في أعلاه ٢٥ ذراعا وارتفاعه ٦٠ ذراعا وهو السور الاعظم يحيط به من الخارج فراغ عرضه مثل عرضه وحول الفراغ المذكور سور آخر يقال له الفصيل له ابراج عظام وعليه الشرفات المدورة . وخارج الفصيل وحوله كما يدور مسناة بالآجر والصاروج متقنة محكمة . وخارج المسناة وحولها خندق أجرى فيه الماء ووراء الخندق الشوارع للمارة والباعة ووراءها الارباض

وداخل السور الاعظم سور آخر أصغر منه وبين السورين فراغ فيه أبنية لاهل الاسواق ينتهي الى كل من السورين بشارع مرصف بالحجارة . فسور المدينة عبارة عن ثلاثة أسوار أعظمها أوسطها

وللسور أربعة أبواب سميت باسم المدن التي تتجه نحوها وهي باب خراسان وباب الشام وباب الكوفة وباب البصرة . وكل منها مؤلف من عدة أبواب عليها الابراج ولها الشرفات والكوى . ولكل باب أربعة دهاليز عظام طول كل دهليز ٨٠ ذراعا كلها معقود بالآجر والجص . فاذا دخل الرجل في الدهليز الذى على الفصيل أو السور الخارجي وافي رحبة مفروشة بالصخر ثم دهليز السور الاعظم وعليه بابان حديديان عظيمان لايغلق الواحد منهما الا جماعة من الرجال وهما عظيما الارتفاع يدخل الفارس في كل منها بالعلم والرامح بالرمح

الطويل من غير أن يميل العلم أو يثنى الرمح فاذا مر الراكب من دهليز السور الاعظم سار في رحبة الى طاقات معقودة بالآجر والجص فيها كوى رومية مصنوعة على كيفية خاصة بحيث تدخل منها أشعة الشمس أو الضوء ولا يدخل منها المطر وفيها منازل الغلمان

وفوق كل باب من أبواب السور الاعظم قبة معقودة عظيمة مذهبة حولها مجالس ومرتفقات يجلس فيها المرء فيشرف على كل ما يعمل به ويصعد الى هذه القباب على عقود مبنية بعضها بالجص والآجر وبعضها باللبن العظام قد عملت آزاجاً بعضها أعلى من بعض (١) بشكل عجيب رهيب

فأطل ابن الفضل بموكبه على باب خراسان وبجانبه الملفان سعدون على بغلته فلما رآهما الحرس وسعوا لهما إجلالا لابن الوزير فتقدما وهما راكبان والخدم في ركابهما فدخلوا من الدهليز على الفصيل أو السور الخارجي . ثم سمعوا قرقعة حوافر دوابهم على الرحبة المفروشة بالصخر الى دهليز السور الاعظم . وكان البوابون لما علموا بقدوم ابن الفضل تعاونوا على فتح أحد البابين العظيمين فسمع لفتحه صرير هائل لثقل حديده وعلوه فدخل الفرسان فيه وهم ركوب على أفراسهم وما زالت العتبة العليا تعلوهم كثيراً . وكان سعدون في أثناء ذلك ينظر الى ما وراء تلك الرحبة من الطاقات المعقودة والى شكل كواها الرومية وقد توكأ فيها الغلمان يطلون منها على ذلك الموكب

فلما خرجوا من الباب المذكور الى الرحبة بينه وبين الطاقات حول سعدون بصره نحو القبة العظمى المعقودة فوق الباب وما يغشاها من الزينة المذهبة ويتعلق بها من المجالس والمرتفعات المشرفة على كل ما حولها وما عليها من المصاعد المبنية بالجص بعضها فوق بعض وقد وقر في نفسه شكلها وعظمها

(١) كتاب البلدان لليعقوبي ١٠

الفصل السابع والعشرون

قصر باب الذهب

فلما تجاوزوا تلك الطاقات وصلوا الى باب آخر غير أبواب السور استطرقوا منه الى الرحبة الكبرى في منتصف المدينة وفي وسط الرحبة قصر المنصور وهو الذي يسمونه قصر باب الذهب نسبة الى بابه المذهب وبجانب القصر المسجد الجامع المعروف بجامع المنصور. ومشوا في الرحبة مسافة كبيرة فى خلاء لابناء فيه حتى اقبلوا على القصر والجامع في وسط الرحبة وحولها فناء خال من الابنية الا داراً من ناحية الشارع المؤدى الى باب الشام يقيم فيها الحرس الخاص وسقيفتين ممتدتين على عمد مبنية بالآجر والجص يجلس في احداها صاحب الشرطة وفي الاخرى صاحب الحرس وحول الرحبة كما تدور منازل كانت لابناء المنصور الاصاغر ومن يقرب من خدمته وعبيده. وابنية لبيت المال وخزانة السلاح وديوان الرسائل وديوان الخراج وديوان الخاتم وديوان الجند وسائر الدواوين وبين الطاقات الى الطاقات السكك والدروب تعرف بقواد المنصور ومواليه (١)

وكان الفضل كلما أقبل على باب وقف له حراسه فلما دخل الرحبة الكبرى استلفت انتباهه الصهيل والحمحمة والنهيق وغيره من أصوات الدواب لأن الرحبة كانت غاصة بالافراس والبغال والحمير فضلا عما أدخل منها الاصطبلات ومعها العبيد والخدم في انتظار من جاء عليها من الامراء والقواد لتهنئة الأمين بالخلافة أو من جاء لغرض آخر. وكان سعدون (أو سلمان) ينظر الى ذلك ويراقبه ولا يبتعد ببغلته عن ابن الفضل حتى اذا دنوا من القصر تحول ابن الفضل نحو السقيفة التي يقيم بها صاحب الشرطة لمقابلة ابن ماهان قبل الدخول على الخليفة فأرسل بعض من في ركابه من الخدم ليتقدمه بالسؤال

(١) اليعقوبي ١١

عنه في السقيفة فعاد وهو يقول انه في حضرة أمير المؤمنين بعث اليه من بضع دقائق

فلم يتعجب ابن الفضل لذلك ولكنه كان يرجو أن يراه قبل دخوله على الامين ليتفق معه على تقديم الملفان سعدون اليه . ولكنه لم ير بداً من النزول عن الفرس ونزل سعدون عن بغلته ومشيا الى باب القصر فوقف لهما الحرس وهم ينظرون الى ذلك الملفان ويستغربون شكله وقيافته ومشيته بعكازه والدواة في منطقته وهو يمشي بجانب ابن الفضل وقليلا الى ورائه فمشيا في باحة تنتهي بباب القصر الداخلي وفي الباحة جماعات من القادمين على الخليفة وفيهم الامراء والقواد والشعراء وغيرهم من الوفود في مثل ذلك الحين . وكان الامين كريماً جواداً ولا سيما على الجند رغبة في استبصارهم لما يعلمه من صعوبة مركزه ولذلك رأيته أعطاهم رزق ٢٤ شهراً يوم مبايعته ففرحوا وفرح معهم أهل بغداد كافة لان هذه الاموال تنفق في المدينة فيدفع الجند منها ما عليه ويبتاع ما يحتاج اليه من الآنية أو الطعام أو اللباس فلا غرو واذا سر البغداديون بتبديل الخلفاء بعد أن جرت العادة أن يأمروا بمثل هذا العطاء عند مبايعتهم

وعرف ابن الفضل كثيرين من الوقوف هناك وخاطبه بعضهم وتزلف اليه آخرون لانه ابن الوزير والوزير يومئذ صاحب الحل والعقد فسأل بعضهم عن سبب وقوفهم هناك فقالوا « ان الخليفة في شاغل مع صاحب الشرطة بعد أن جاءه هذا الرسول » وأشار الى رجل واقف في بعض جوانب الباحة . فعرف ابن الفضل أنه من موالي أبيه وكان الرجل قد رأى ابن الفضل ماراً فلم يجسر على مبادأته بالحديث فلما رآه ينظر اليه ويبتسم هرول نحوه وقبل يده فقال له « ما وراءك ..؟ وما الذي جاء بك ؟»

قال « أرسلني مولاي الوزير برسالة الى أمير المؤمنين »

قال « أين والدي الآن ؟ »

قال « هو قريب من بغداد وقد أرسلني لابشر بقدومه »

قال « وهل جئت بكتاب منه »

قال « جئت بكتاب دفعته الى امير المؤمنين ولعله هو السبب في تأخير الاذن للناس في الدخول اليه كما ترى وانما دخل عليه صاحب الشرطة ..»

فاشتد ميل ابن الفضل للدخول على الامين وإن لم يؤذن لسواه فيفاخر أهل البلاط بدالته على صاحب الخلافة فظل ماشياً وابن سعدون بجانبه حتى أقبل على باب القصر والحرس الشاكرية وقوف بالاسلحة فتأدبوا عند مشاهدته ثم خرج الحاجب لملاقاته وتلطف بالترحيب به وفي غنة صوته وملامح وجهه شبه اعتذار عن عدم ادخاله فادرك ابن الفضل غرضه فابتدره قائلا « استأذن أمير المؤمنين بدخولي ودخول رفيقي هذا » وأشار الى سعدون

فتردد الحاجب حيناً ولم يجسر على التصريح بأن أمير المؤمنين لايؤذن لأحد ثم غلبت عليه الطاعة فدخل على الامين وظل ابن الفضل في انتظاره والناس ينظرون اليه ويتوقعون أن يرد طلبه فيفشل ما أراده من التقدم عليهم جميعاً أما هو فكان لايتوقع غير الاذن لما يعلمه من نفوذ أبيه . وبعد هنيهة عاد الحاجب وهو يبتسم وقال « تفضل ادخل اذا شئت »

فدخل الى مكان تخلع فيه الاحذية فخلع حذاءه وفعل سعدون مثل فعله وتقدم بعض الخدم تناولوا الحذاءين ووضعوهما في أماكن معدة لذلك. ومشيا على الابسطة المفروشة في الدهليز وتطرقا من قاعة الى قاعة والحاجب يمشي بين يديهما حتى وصلا الى مجلس الامين وعلى بابه ستر من الديباج المطرز فتقدم الحاجب وأزاح الستر وصاح « ان مولاي ابن الفضل ورفيقه بالباب »

فقال الامين « يدخلا »

الفصل الثامن والعشرون

مجلس الامين

وكان الامين جالساً في صدر القاعة على سرير من الأبنوس المنزل بالعاج بلا ترصيع ولا تذهيب لانه السرير الذي كان يجلس عليه المنصور قبل اغراق العباسيين في الحضارة والترف واستخدام الذهب والجوهر في آنيتهم ومجالسهم

وفي أرض القاعة طنافس ثمينة قليلة الزينة عليها الوسائد والكراسي . وكان على الامين لباس نحو لباسه يوم المبايعة لأنه ما زال يستقبل المهنئين والمبايعين . فدخل ابن الفضل ورفيقه فرأيا بين يدي الامين ماهان صاحب الشرطة وقد قعد على وسادة قعود أهل الدالة بلا كبير تهيب لأن الأمين لم يكن في مثل هيبة أبيه ولا سيما مع من تعود مجالستهم من خاصته في مجالس الشرب أو الطرب . وعلى الخصوص ابن ماهان ونحوه من ذوي شوراه ممن يحتاج الى رأيهم أو مساعدتهم . وكان الامين شديد الثقة بابن ماهان وبالفضل بن الربيع يستشيرهما في مهامه . وجاءه كتاب الفضل في ذلك الصباح ينبئه بقدومه ومعه الاحمال ومن بقي من رجال الرشيد وانه لا يلبث أن يصل بغداد ويقص عليه تفصيل ما فعله . فاهتم الامين بذلك الكتاب وبعث الى ابن ماهان ليطلعه عليه وأمر أن لايدخلوا أحداً من الزوار . فجاء ابن ماهان فدفع اليه الامين كتاب الفضل ولم يكد يتم قراءته حتى جاء الحاجب يستأذن لابن الفضل ورفيقه فسأل الامين عن ذلك الرفيق فقال الحاجب « هو رجل من علماء حران كأنه حاخام أو ملفان »

فقال « وما شأنه ؟ »

فعلم ابن ماهان انه الملفان سعدون فتبسم وقال « أظنه الملفان سعدون الحراني . . ان لهذا الرجل شأناً عظيما وله قوة غريبة على استطلاع الغيب . »

فالتفت الامين الى ابن ماهان وقال « هل تعرفه ؟ »

قال « اذا كان هو الملفان سعدون فقد عرفته لأني اجتمعت به في جلسة ورأيت منه المعجزات »

فهز الامين رأسه وقال « إني قليل الثقة بهؤلاء الدجالين »

قال « ليس الرجل دجالا يامولاي بل هو منجم »

قال « المنجمون كثيرون عندنا وقلما يصدقون »

قال « سترى ما لم تعهده في سواه فاذا أذنت بدخوله أنبأك نبأ غريباً وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان »

فأشار الامين الى الحاجب أن يدخلهما فخرج وأدخلهما

فلما أقبل ابن الفضل على الأمين حياه بتحية الخلافة ووقف حتى أشار

اليه بالجلوس والتفت الى الملفان فابتدره هـذا بالسلام أيضاً فقال له « اجلس يا ملفان »

فجلس على البساط جاثياً وتأدب في مجلسه وهو مطرق ساكت فقال له الامين « أخبرنا صاحب شرطتنا انك من المنجمين . . »

فأجاب سلمان « اني من عبيد أمير المؤمنين . . »

قال « وهل أنت صادق في تنجيمك ؟ »

قال « عليّ أن أصدق في بلاغ أمير المؤمنين ما أراه وأقرأه حسب قواعد هذا العلم وله الرأي في تصديقه أو تكذيبه . . »

فحول الامين نظره الى صاحب الشرطة كأنه يستشيره في ما يمتحنه به فقال « هذا كتاب الوزير يقول فيه انه سيقص على أمير المؤمنين ما فعله في طوس فيمتحن الملفان بذلك »

فاستحسن الامين هـذا الامتحان فالتفت الى سـعدون وقال « جاءنا كتاب وزيرنا الساعة انه قادم الينا فهل لك ان تخبرنا بما سيتلوه علينا ؟ »

فاحنى الملفان رأسه احتراماً ثم مد يده الى جيبه وأخرج ذلك الدرج وحل المنديل وأخذ يقلبه بين يديه ويتمتم ويظهر انه يقرأ ويتفهـم ويتفطن . ثم رفع بصره الى الامين وقال « ان الوزير حفظه الله يحمل اليك خبراً هاماً يتعلق بالخلافة »

فضحك الامين ضحك الاستخفاف وقال « طبعاً انه يعلم بمبايعتي وليس في ذلك شيء من الغيب ! »

قال الملفان « نعم ياسيدي صدق أمير المؤمنين ولـكن الوزير سينقل اليك شيئاً جديداً يتعلق باخيك المأمون . . . هل يسيئك انه أخرجه من البيعة ؟

فبغت الامين لهذا السؤال وقال « وهل أخرجه منها ؟ »

فهز الملفان كتفيه وقال « يظهر لي مما أقرأه في هـذه الاوراق انه فعل ذلك ولم يجد في ذلك مشقة فاذا كان فيه ما يسوء أمير المؤمنين فلا ذنب لي . »

فتظاهر الامين باستيائه لاخراج أخيه من البيعة وقال « وهل فعلها الفضل . ؟ أظنه لم يفعل فاحذر مما تقوله واعلم انك تقول قولا تقطع عليه الرقاب »

فقال بجأش رابط « قلت لمولاي اني لا أقول شيئاً من عند نفسي وإنما أنا أقرأه في مابين يدي . . واذا اقفلت الكتاب نسيت ما قلته . »

فقال الامين وهو يظهر الغضب « انها وشاية تعاقب عليها . . »

قال وهو ساكن الجأش « العفو يامولاي لاذنب لي في ما قلته فانى أقول ما أراه ولا أعهد هذا العلم يخدعني من قبل . . »

فبالغ الامين في اظهار التهديد وقال « يكفي . . » والتفت الى ابن الفضل وقال « هل جاءك من أبيك شيء من هذا القبيل ؟ »

قال « كلا يامولاي انه لم يكتب اليّ بشيء » ولم يجسر ان يخبره بما قصه عليهم الملفان بالامس

والتفت الامير الى ابن ماهان وقال « قلت لكم ان هؤلاء المنجمين يتقربون الينا بكذبهم »

فابتسم ابن ماهان ابتسام المستعطف وقال بصوت منخفض كأنه يسار الامين « ولكنني أعرف صدق الملفان سعدون بالاختبار . واذا شاء مولاي أن يختبر صدقه فعل . . ان الوزير لايلبث أن يصل بغداد الليلة أو في صباح الغد فاذا جاء سأله مولاي عما فعله والرأي بعد ذلك لامير المؤمنين . . »

وكان الملفان في أثناء ذلك يتشاغل بتقليب الدرج بين يديه يتمتم كأنه لا يسمع ما يقولون حتى سمع الامين ينادي « يا غلام »

فوصل الحاجب وتأدب فقال « قل لصاحب الانزال ان يأخذ هذا الملفان الى دار الاضياف . يقيم هناك في كرامة ورعاية حتى أطلبه » والتفت الى الملفان وقال « تفضل ان شئت وكن مطمئنا حتى ندعوك »

فهض سلمان واستعاذ بالله من الانتظار مخافة ان يبطىء على أهل القصر المأمونى وهم في قلق على تأخر الطبيب بهزاد ولكنه لم ير بداً من الطاعة فاخذوه مكرماً الى منزل بجانب مطبخ العامة وأمروا له بما يحتاج اليه من الطعام والشراب

الفصل التاسع والعشرون

الامتحان

فمكث هناك كأنه على الجمر وكان يندم على مجيئه . قضى في ذلك طول النهار وفي ضحى اليوم التالي جاءه رسول الخليفة يستقدمه الى المجلس الخاص فسار بعد أن أصلح هندامه وأتقن تنكره وهو يتظاهر بالسذاجة وصفاء النية وخلوص السريرة حتى دخل على الخليفة كالامس وعنده ابن ماهان وابن الفضل فامره الامين بالجلوس وقال له « ان وزيرنا الفضل آت بعد هنيهة وسنسأله عن أمره بحضورك وسنرى ما يكون »

فاحني رأسه مطيعاً ووقف فامر له الأمين بالجلوس فجلس

ثم جاء الحاجب وهو يقول « ان الوزير الفضل بالباب يامولاي . . »

فابرقت أسرة الامين وصاح « يدخل وزيرنا الفضل . . »

وما عتم ان عاد الحاجب ووسع الستر فدخل الفضل وآثار السفر بادية في وجهه فحيا بتحية الخلافة وقال « يعذرني أمير المؤمنين ان أدخل عليه قبل اصلاح شأني »

وكان الفضل يومئذ في أواسط الكهولة وقد وخط لحيته الشيب وتغضن جبينه وظهر تغضنه مع ان أكثره مخبأ تحت القلنسوة . وقد تردى بالقباء الاسود على عادة الداخلين على الخلفاء العباسيين

فهش له الامين وأجلسه على كرسي بجانبه . فاخذ الفضل يعزيه بالرشيد ويدعو له بطول البقاء ثم هنأه بالخلافة وسكت وهو يردد نظره بين الجلوس كأنه يلتمس الخلوة ليقص عليه ماجاء به من الخبر الهام

فابتدره الامين قائلا « اذا كنت قد جئتنا بخبر اقصصه علينا »

قال « أقصه الآن . . ؟ »

قال « نعم قل ما عندك ان هذا المنجم يزعم انه عرف ما فعلته وأحب أن أمتحن معرفته فاذا كان مصيباً أنعمنا عليه والا كان عقابه شديداً »

فقال ابن ماهان « هل يأذن أمير المؤمنين بكلمة »

قال « قل »

قال « اذا كذب هـذا الملفان كان جزاؤه القتل أما اذا صدق فهل يأمر مولاي أن يجعله كبير المنجمين في قصره لعله ينفعنا بعلمه »

قال « حسناً .. انى فاعل » والتفت الى الفضل وقال « قل ما الذي فعلته بأخينا عبد الله المأمون والخلافة ؟ »

فاستغرب الفضل سؤاله على هـذه الصورة وقال « فعلت ما أعتقده عائداً على مصلحة الدولة بالخير . . لا يخفى على أمير المؤمنين ان مولانا الرشيد كان عند سفره قـد بايع للمأمون بالخلافة باغراء بعض ذوي الاغراض وأوصى له بجميع ما في عسكره مع ان البيعة سبقت لاخيه الامين صاحب هذا العرش . فلما قبض الرشيد رأيت بقاء بيعة المأمون سيأول الى انقسام الخلافة واستفحال الفتنة واستشرت أصحابى وقر رأينا على الرجوع الى الصواب فأبطلنا بيعة المأمون وجعلنا الخلافة مستقلة لمولانا أمير المؤمنين »

قال « والمأمون ماذا فعلتم به ؟ »

قال لم نفعل به شيئاً فانه باق على خراسان كما كانت الوصية له من قبل على أن يكون وليا للعهد »

فما أتم كلامه حتى بانت الدهشة في وجه الامين ونظر الى الملفان سعدون فرآه مطرقاً هادئاً لا يخامره خوف ولا اضطراب فلم يتمالك الامين أن صاح به « ويلك من أين أتاك علم الغيب ؟ »

فرفع بصره الى الامين وقال «لا فضل لى يامولاي ان هذا العلم معروف عند المنجمين ولـكن الذين يصدقون في استخدامه قليلون »

فقال « انما أعجبنى صدقك من غير ادعاء وقد جعلناك رئيس المنجمين »

فوقف سلمان وانحنى بين يدي الامين ودعا بطول البقاء ثم قال « ان هذه نعمة لا استحقها . . »

قال « بل انت أهل لذلك وهذا جزاء الصادقين » وصفق فجاء الحاجب فقال له « قل لقيم الدار أن يعد للملفان منزلا يقيم فيه وان يفرض له العطاء

انه قد صار رئيس المنجمين . . » وأشار الى الملفان أن يجلس

فاعنى ثانية وكرر الدعاء وجلس وهو يقول « ان منازل أمير المؤمنين واسعة وحيثما اقمت فانما أكون في حياطته غارقاً في نعمائه واذا سمح لي أن أقيم حيث شئت كان ذلك أدعى لمرضاته لأني لا استغني عن الانفراد في منزلي أحياناً لعمل المندل أو مطالعة كتب التنجيم على أن أكون بين يدي أمير المؤمنين متى شاء .. ولو جاز ان ترد هبته لتقدمت اليه ان يجعلني خادماً رقاً بلا أجر ولا أجرة فان من يتعاطى هذه الصناعة على حقها وجب عليه انكار نفسه والبعد عن ملاذ الدنيا وعن التوسع في أسباب العيش ولكن نعم أمير المؤمنين لا ترد »

فاستغرب الامين هذا التعفف ولم يخطر له سماعه من مثل هذا الرجل وهو يعلم أن أمثاله انما يتقربون الى دار الخليفة طمعاً بالمال فالتفت الى ابن ماهان والاستغراب باد في وجهه كأنه يستطلع رأيه فقال ابن ماهان « ان الملفان سعدون هذا طبعه والامر لامير المؤمنين »

فقال « ولكننا قد نحتاج اليه في ساعة لا نجده فيها »

فقال الملفان « اني أقيم في دار أمير المؤمنين على أن يؤذن لي بالخروج الى منزلي متى رأيت في الخروج فائدة فلا يعترضني أحد ولا أظن الحاجة تمس الى حضوري الا وأكون حاضراً »

فقال الامين « أنت حر في ذلك »

وكان الفضل في أثناء الحديث ينظر الى الملفان سعدون ويتفرس فيه وقد دهش لما سمعه منه وكأنه ارتاب في أمره

أما الامين فكان شديد الرغبة في سماع تفصيل الخبر من الفضل فألقى قضيب الخلافة على السرير الى جانبه وتزحزح من مكانه فادرك الحضور انه يريد انصرافهم فوقفوا وأشار الى الفضل أن يبقى وخرج الباقون . أما سلمان فذهب الى بغلته ليركبها ويسير الى القصر المأمون

الفصل الثلاثون

الى المدائن

أما القصر المأموني فقد تركنا أهله بعد ذهاب سلمان قبل الامس على موعد منه أن يبحث عن بهزاد ويعود اليهم بالخبر فانقضى النهار ولم يعد فباتوا على أحر من الجمر وأصبحوا في اليوم التالي وهم يتوقعون قدوم بهزاد أو قدوم سلمان بخبر عنه فمضى معظم النهار ولم يعد حتى أخذ القلق منهم مأخذاً عظيما . ومما زاد قلقهم أن زينب بنت المأمون أصابها في ذلك الصباح حمى شديدة على أثر ماانتابها من الحزن مع عدم انتظام طعامها وشرابها فتلبكت معدتها وأحست بالسخونة . ولا تسل عن حال دنانير عند ذلك فاصبحت شديدة الخوف وتقدمت الى زينب أن تدعو لها أحد أطباء القصر وهم كثيرون وفيهم المهرة من كل طبقة فلم ترض الابهزاد وأرسلوا الغلمان يستشرفونه من الطرق أوعلى الشاطىء وقد كان القلق يذهب براحتهم ولاسيما ميمونة فان قلقها كان أثقل على الطبع من قلقهم جميعاً لانها تحاذر أن تظهره وتخشى اذا صرحت بكل مايخطر لها أن ينتقد عليها

على انها لما رأت زينب مصابة بالحمى هان عليها اظهار قلقها بحجة خوفها على صحة بنت المأمون وأخذت تطل ساعة من الشرفات على الطرق وأخرى من الابواب إلى دجلة لعلها تراه قادما على فرس أو في قارب ولما أعياها البحث جلست في غرفة منامها وقد كل دماغها من الاهتمام وبان التعب في محياها فعلاه شحوب وتقطب فاستلقت على الفراش وهى تحسب لتأخر بهزاد الف حساب وتراجع مادار بينها وبينه في ساعة الفراق فلا تزداد الا رغبة في لقائه لتحقق مافي نفسه . وكانت الشمس قد مالت الى المغيب فاظلمت الدنيا في عينها قبل غيابها ولم تعد تصبر على البقاء هناك فخرجت وهي تتوقع أن تلاقي من يخبرها بقدومه أو تسمع صوته في الدهليز — وانما توقعت ذلك لان رغبة الانسان في

الامر تصور له سهولة الحصول عليه وان يكن مستحيلا بنفسه فكيف ومجيء بهزاد يعد من أقرب الامور لانهم على موعد مثه

ومشت في الدهليز الى الباب المطل على دجلة وجعلت تتفرس في مايمر أمامها من السفن الصاعدة والنازلة وتتمنى أن يكون بهزاد في واحدة منها . وتوهمت غير مرة أنه هناك فلما تكررت خيبتها أصبحت تعتقد أنه لن يأتى . ثم جلست إلى مقعد بجانب نافذة تطل على دجلة وأخذت تتكهن في قدومه وتتلاهى بالتفاؤل والتطير على ما يقتضيه الاضطراب في حين لا يرى صاحبه مصرفا أو شاغلا . فصارت اذا رأت طيراً يسبح في الفضاء قالت في نفسها اذا حط هذا الطائر على هذه الشجرة كان بهزاد قادما الليلة أو اذا تحول الطير يميناً أو شمالا كان ذلك فألا على قدومه أو شؤماً على عدم قدومه . فاذا خالف الطائر ماتتمناه توهمت أنها تمنت عكس ذلك فتنتقل الى التفاؤل بذبابة تحوم حول وجهها فتضمر ان هذه الذبابة اذا حطت على وجهها دلت على قدومه فربما حطت على يدها فجوزت أن يكون ذلك مصداقاً لضميرها

قضت في ذلك حيناً فلما أظلمت الدنيا انتبهت لنفسها كأنها تسمع خفق نعال على المسناة قرب الباب فخفق قلبها وأطلت فلم تجد أحداً فنهضت وأسرعت الى غرفة زينب فرأت جدتها بجانب سرير الفتاة ودنانير جالسة على السرير قربها وقد توردت وجنتا زينب من شدة الحمى وكلهم سكوت . فلما أطلت ميمونة ابتدرتها دنانير قائلة بصوت مختنق « أرأيت ما فعله الطبيب ؟ »

فقالت ميمونة « انه أبطأ علينا ولا بد من شاغل شغله عنا »

فقالت عبادة « وأغرب من ذلك غياب سلمان بعد ان وعدنا بالبحث عنه . . . لا إخال بهزاد الا في المدائن الآن وكنت اود أنني ذهبت للتفتيش عنه هناك من هذا الصباح . . »

فقالت دنانير « اذا لم يأت غداً أرسلنا في طلبه الى المدائن »

فقالت ميمونة « غداً أذهب اليها مع جدتي وأرجو أن نجده في منزله . »

قالت دنانير « ستتحملان المشقة في هذا الامر و . . »

فقطعت عبادة كلامها قائلة « لا مشقة علينا في ذلك ولا نظن أحداً يعرفه

مكانه مثلنا لأننا نعرف البلدة ونعرف بيته فيها فاذا لم يأت الليلة ولا صباح الغد ولا أتانا سفان بخبره ذهبت أنا وميمونة للبحث عنه هناك »

قالت دنانير « بارك الله فيكما وسننتظر الى الغد والاتكال على الله فاذا لم يكن بد من ذهابكما سرتما في بعض سفن القصر ومعكما النوتية والخدم . ولولا اصرار مولاتنا على الاستشفاء بدواء هذا الطبيب لكان لنا غنى عن هذه المشقة ببعض أطباء هذا القصر »

الفصل الحادى والثلاثون

في دجلة

فسرت ميمونة لهذا العزم وعادت الى التشاغل حتى آن الرقاد فناموا وأصبحوا في اليوم التالى وزينب أحسن حالا وقد خفضت الحمى . وأماميمونة فألحت على جدتها أن تصر على الذهاب الى المدائن قياما بخدمة أهل هذا القصر في مقابل ما لقوه من اكرامهم ورعايتهم فأطاعتها جدتها والحت على دنانير ان تأمر باعداد حراقة تسيران بها الى المدائن فأمرت قيم القصر أن يأمر باعدادها فأعدت نحو الظهيرة وفيها النوتية وبضعة من غلمان القصر . فركبتا فيها واشارت عبادة الى الربان ان يسير جنوباً فأدار الدفة ونشر الشراع وساروا وجلست ميمونة على مقعد تشرف منه على الشاطىء الايسر لعلها ترى بهزاد ماراً على جواده في البر ووجهت عبادة التفاتها الى النهر لعلها تراه في سفينة

مخرت الحراقة بهم ساعة وهي تسير بمجرى النهر أكثر مما بالشراع وكان سيرها سريعاً ولكن ميمونة كانت تستبطئها وتكاد تحسبها واقفة لفرط رغبتها في سرعة الوصول وكانت عبادة جالسة بالقرب منها صامتة وكل من في القارب سكوت لا يسمعون غير فحش الماء امامهم من اختراق مقدم السفينة لعباب الماء

وهم في ذلك سمعوا ضوضاء وجلبة وراءهم فالتفتت ميمونة فرأت حراقة تسير في أثر حراقتهم مسرعة فتفرست فيها فرأتها جميلة الصنعة عليها نقوش مذهبة ومقدمها على شكل الفيل بخرطومه ونابيه فاستغربت منظرها واستلفتت

جدتها الى ذلك فصاحت العجوز « هذه حراقة الخليفة انها من سفن الامين ـ وللأمين خمس حراقات على صورة الاسد والفيل والعقاب والحية والفرس انفق فيها مالا كثيراً » (١)

فخفق قلب ميمونة وتصاعد الدم الى وجهها فتوردت وجنتاها ثم ذهب الاحمرار فجأة وامتقع لونها وصاحت « ويلاه . . انى ارى أصحاب هـذه الحراقة سائرين في أثرنا . . ماذا يريدون منا ؟ »

فأشارت اليها جدتها تستتر بالسارية وأسرعت الى ربان حراقتهم فأشارت اليه أن يحل الشراع ويسير على مهل ويتحول نحو الشاطىء ويفتح الطريق لتلك الحراقة

فأدار الدفة والتفت عبادة بنقابها وانزوت بجانب ميمونة . وكانت حراقة الامين قد دنت منهم فعرفتا من خلال تلك الضوضاء انها تحمل جنداً وعيارين وسمعت رجلا منهم يقهقه قهقهة السكارى ويقول « هـذه غنيمة باردة . . »

فاجابه آخر « مالكم وللغنائم ألم يكفكم ما نلتموه من بيت المال . . رزق ٢٤ شهراً فقبض راجلكم ٤٨٠ درهما دفعة واحدة فضلا عن حصتكم من الغنائم . . (٢) انكم لا تشبعون . . أما نحن العيارين فلا رزق لنا من غير الغنائم اذ لا رواتب لنا من رزق خاص . . »

فضحك ذاك وقال « انكم معشر العيارين أكثر منا رزقا لانكم ربما ذهبتم في مهمة خصوصية لمثل هذه المهمة تنالون منها دفعة واحدة مالا يتيسر لنا في أشهر . فاذا وفقتم الى القبض على ذلك الخراساني أصبتم رزقاً كثيراً . . . »

فنفر الآخر منه وقال « لا أظن أمير المؤمنين يعطينا شيئاً كثيراً اذا قبضنا عليه فقد طالما قبضنا على أمثاله ولم ننل الا دراهم معدودة »

فضحك الجندي مقهقهاً وقال « العطاء يختلف مقداره باختلاف الاحوال أتريد أن يعطوكم على لص تقبضون عليه كما يعطونكم على مثل هذا الرجل ؟ »

(١) ابن الاثير ١٢٠ ج ٦ (٢) تاريخ التمدن الاسلامي

فقال « وما الذى يميزه عن سواه . . دعنا من هذه الآمال الفارغة »

قال وهو يحسب أنه يهمس في أذنه وصوته مازال مرتفعاً بحيث تسمعه ميمونة « ان هـذا الخراساني له شأن عظيم عند أمير المؤمنين لم نكن نعلمه قبل مجيء الوزير في الصباح . . »

وكانت ميمونة منزوية وراء السارية تسمع ما يدور بينهم فلما سمعت ما قالوه عن الخراسانى اختلج قلبها في صدرها لئلا يكون المراد حبيبها فاصاخت بسمعها وركبتاها ترتعدان فسمعت رجلا آخر يقول « مالكم ولهذا الهديان ؟ فاذا سمعكم مولانا الهرش أسمعكم ماتكرهون . وما نحن في معرض جدال وانما جئنا للقبض على ذلك الرجل المتستر فاذا ظفرنا به فكلنا يكسب . . »

وكانت الحراقة قد حاذت حراقة المأمون ولما سمعت ميمونة الاشارة الى حبيبها على تلك الصورة لم تتمالك عن النهوض والالتفات نحو المتكلمين ورأت جمهوراً كبيراً من الجند والعيارين في جلبة وضحك وصياح بأيديهم سكاكين يعربدون وقد تقلدوا الاسلحة ورأت على مقعد في طرف السفينة رجلا قصيراً سميناً عليه قيافة الرئاسة فوخزت جدتها وسألتها هل تعرف هؤلاء فوقعت عبادة بصرها وحالما رأت الرجل همست في اذنها « انه الهرش رئيس العيارين »

ووقع بصر أحد العيارين في أثناء ذلك على ميمونة وقد زادها الخوف والقلق رقة ورونقاً فصاح « انى أرى جارية حسناء ... لعلها من القيان ... اربط ياريس .. لنسمع غناءها .. »

فارتعدت ميمونة خوفاً وجمد الدم في عروقها وأدركت جدتها خوفها فنهضت لتستحث صاحب الدفة على الفرار أو الدفاع فسمعت رجلا من تلك الحراقة يقول بصوت منخفض « دع عنك الفضول . . ألا ترى الراية . . »

فتجمهر جماعة ونظروا الى راية منصوبة في مقدم الحراقة وهم يقولون والسفينة تجري بهم وقد تجاوزت حراقة المأمون « انها راية المأمون . . أخي أمير المؤمنين . دعونا منها »

فسرت ميمونة بانصراف الخطر عنها ولكنها أصبحت في قلق عظيم على حبيبها ورجحت أنهم سائرون فى طلبه فالتفتت الى جدتها والدمع يترقرق في

عينيها وقالت « انهم يطلبون بهزاد ؟ . . ويلاه » قالت ذلك وقد نسيت انها تكتم حبها عن جدتها

فقالت عبادة وقد حملت خوفها محملا آخر « لا تخافي يا حبيبتي .. لا أظنهم يطلبونه ولـكننا على كل حال سنسبقهم اليه وننبهه الى الخطر فينجو باذن الله » ونهضت الى صاحب الدفة وأمرته أن ينشر الشراع ويسير سريعاً في أثر تلك الحراقة

الفصل الثانى و الثلاثون

اللهفة

مخرت السفينة على عجل وميمونة يكاد يشتعل قلبها لهفة وهي واقفة وعيناها شاخصتان تنظر تارة الى الحراقة وطوراً الى الشاطىء لا تعلم ماذا تعمل وتحيرت في أمرها وهي لم تعد تمتلك التكتم والاحتراس فابتدرتها جدتها قائلة « لا تخافي يابنية اننا سنصل إلى بهزاد قبلهم وان سبقونا بحراقتهم » وأسرعت الى مقدم السفينة وجعلت تتفرس بالشاطىء على اليسار وتنظر إلى أبعد مايقع عليه بصرها في عرض الافق وميمونة واقفة إلى جانبها وهي ترتعد وركبتاها تصطكان وقد أمسكت بكتف جدتها تتوكأ عليها خوفاً من السقوط والسفينة تشق الماء والريح تنقر على الشراع وحراقة المأمون أسرع من حراقتهم . فسارت الحراقتان ساعتين وهما متقاربتان وتلك الى الامام وعبادة واقفة وبصرها شاخص إلى الافق وهي صامتة حتى أشرفت على بناء شامخ تراءى لها عن بعد فصاحت « هذا هو الايوان ... إننا على مقربة من المدائن »

ثم تحولت الى الربان وصاحت به « أترى هـذه الناعورة (الساقية) أمامك ؟ »

قال « نعم يا مولاتي انى أراها »

قالت « أوقف الحراقة عندها » ثم التفتت إلى ميمونة وهمست في اذنها « اذا نزلنا من هنا وطلبنا منزل بهزاد وصلناه قبل أولئك بوقت طويل . . »

خلوا الشراع وأدار الربان الدفة وبعد هنيهة رست بهم الحراقة عند الساقية فمسكت عبادة بيد ميمونة ونزلتا الى الشاطىء وقالت عبادة للربان « امكث هنا حتى نعود اليك . . »

فقال « الا تأمرين بمن يسير في خدمتكما ؟ »

قالت « كلا »

فقال « سمعاً وطاعة »

وهرولت عبادة مسرعة وميمونة تعدو في أثرها وقد مالت الشمس نحو المغيب وعبادة تعرف الطريق جيداً وتعرف حناياها ومختصراتها فسارتا على هذه الصورة نصف ساعة فتعبت العجوز وكادت تخور قواها وتسقط وميمونة لاتبالي بالركض من شدة لهفتها ونسيت ضعف جدتها وشيخوختها ثما لبثت ان رأتها تلهث من التعب والعرق يتصبب من جبينها وأنفها وسالفيها ولم تعد تقوى على العدو فوقفت ثم قعدت على حجر وأخذت تمسح عرقها وتلهث . فاستاءت ميمونة من قعودها وودت لو كان لها اجنحة لتطير بها الى منزل بهزاد وتحيرت في هل تترك جدتها هناك وتسير وحدها وهي لا تعرف الطريق ولا يطاوعها قلبها على ترك جدتها منفردة في ذلك المكان أم تصبر ريثما تستريح فتضيع الفرصة فجعلت تمسح لها عرقها وتنشطها وتخفف عنها وعبادة لا تستطيع الكلام من شدة التعب وبعد بضع دقائق قالت « اننا على مقربة من البيت . ألا ترين هذه النخلة الباسقة ؟ »

وكانت الشمس قد توارت بين النخيل على الشاطىء الغربي وراءهما فنظرت ميمونة شرقاً نحو الافق فرأت تلك النخلة فصاحت « اليست هي النخلة التي تعودنا الاستظلال بها اذا خرجنا من منزلنا ؟ »

قالت « بلى هي بعينها »

فقالت « نحن اذاً على مقربة من بيت بهزاد هلمي بنا نتم مسيرنا ولو أتعبك ذلك فاني اخاف أن يسبقنا أولئك الرعاع اليه »

قالت « لا تخافي انهم لا يزالون يمخرون في دجلة » قالت ذلك ونهضت وهي تتشدد وتتجلد ومشت وميمونة تسير في أثرها وهي تستبطيء مشيتها وتصبر نفسها حتى وصلتا الى أسواق تلك البلدة فقطعتاها وأقبلتا على منزل بهزاد والشمس كادت تغيب فرأتا الباب مغلقاً وليس عنده أحد فمشتا وهما تلتفتان والشاطىء بعيد عنهما فلم تجدا أحداً قادماً فتحققت ميمونة ان الأعداء لم يدركوا البيت بعد . وبعد هنيهة وصلتا الى الباب فوجدتاها مقفلا ففرعتاه قرعاً عنيفاً فلم يجبهما أحد

فلما أبطأ عليهما الجواب بعد القرع العنيف تفرست عبادة بقفل الباب فرأته مقفلا من الخارج فتحققت أن بهزاد ليس في داخله فانشرح صدرها وانبأت ميمونة بذلك فتنفست الصعداء وقالت الحمد لله انه ليس هنا ولا سبيل لهؤلاء اليه . . ولكن أين هو ياترى ؟ »

فقالت جدتها ربما كان في بغداد أوفي بلد آخر . . . » قالت ذلك وقعدت على حجر عند الباب لتستريح

فقالت ميمونة « أخاف أن يكون عائداً الى بيته الآن فيظفرون به . . . يا الهي ما العمل . أرى أن نتربص له بالقرب من هذا المكان فاذا رأيناه أنبأناه بالخطر الذي يهدده . . »

قالت « وهل نكون في أمن على أنفسنا ؟ »

فتحيرت ميمونة في أمرها وقالت « ماذا نعمل اذاً . أخاف أن يكون بهزاد آتياً الساعة وهو لا يعلم بما أعدوه له فيقع غنيمة باردة في أيديهم . يجب أن نتمم سعينا في انقاذه » وكأنها أدركت كثرة ما أظهرته من اللهفة عليه فخافت ظهور حبها له فاستدركت قائلة « يجب علينا ان نكافئه على فضله ولا ندخر وسعاً في انقاذه ولو تعرضنا للخطر . . »

فاستحسنت عبادة كرم أخلاقها وقالت « صدقت يجب علينا أن نبذل مافي وسعنا في سبيل خدمته ولكن ما العمل ؟ ها انى اسمع غوغاء القوم من جهة الشاطىء . . اسمعي انهم يتراكضون هلمى بنا من هذا المكان قبل ان يدركونا

تعالي » قالت ذلك ونهضت وهي ممسكة بثوب ميمونة فتبعتها مسرعة نحو الشرق

ولما تحولتا عن الباب تعثرتا بتلال وأحجار من أنقاض قصر كبير فقالت ميمونة « اني أرى انقاضاً كأنها من بقايا دولة الفرس تشبه ان تكون انقاض ايوان »

فقالت عبادة وهي تسرع في مشيتها جهد طاقتها مع ما يحول دون ذلك من شيخوختها « صدقت يا حبيبتي ان هذه التلال والاحجار من انقاض ايوان كان هنا غير ايوان كسرى ويعرف بايوان سابور وهو القصر الذي كان يقيم فيه المنصور قبل بناء بغداد وتهدم بعده كما ترين »

فقالت ميمونة « الظاهر أن بهزاد اختار السكن بجوار هذه الانقاض استئناساً بآثار أجدادنا . . » قالت ذلك وهي تسرع أمام جدتها وقد نبهها ذكر هذا الايوان الى شيء خطر لها فلما توارتا عن المنزل قالت ميمونة « اذكر انى سمعته يقول مرة انه يتردد الى ايوان كسرى للبحث عن بعض العقاقير الطبية والحشائش التي تنبت على انقاضه فلعله هناك الآن ؟ »

فقالت عبادة « ربما كان هناك . . . . اتبعيني لنبحث عنه قبل أن تغرب الشمس »

الفصل الثالث والثلاثون

ايوان كسرى

وهرولتا نحو الايوان المذكور وهو في ظاهر المدائن من جهة الشرق . فخرجتا من البلدة وهما تحاذران أن يشعر أهلها بما هما فيه وبالغتا في التقنع والتلثم حتى وصلتا الى الايوان فاذا هو قائم كالجبل العظيم وقد زاده الخراب وحشة . وكانت الشمس قد توارت وراء الافق وتلاحمت الاظلال وأخذت تتحول الى ظلام — وساعة الغروب من أوحش الساعات على الانسان لقرب خروجه الى الظلمة فيشق عليه فراق النور فتنقبض نفسه ويستوحش ولوكان في قصره بين أهله وذويه فكيف اذا كان في برية يغشاها الخراب وينعق فيها

اليوم ولا سيما بين يدى ذلك البناء الذي كان رهيباً وهو عامر فكيف وهو خرب . وللخراب وحشة في ابان النهار فكيف في الليل . على ان ميمونة شغلت عن الخوف باللهفة ولولا ذلك لكان لها في منظر ذلك القصر عبرة كبرى لما يدل عليه تخربه من مصير الانسان الى الزوال — يكفيها التفكير في أهل هذا القصر وفيهم الاكاسرة والمرازبة والدهاقنة والاساورة وكان أحدهم لاتكاد الارض تسع مطامعه . وكم ارتبطت خيولهم في باحة ذلك القصر وكم دخلوه وعليهم الخز والديباج وعلى رءوسهم التيجان وفي أيديهم الصوالجة وكم جاء الملوك والامراء يلتمسون الهدنة أو يتقربون بالهدايا وكم خضع لهم القواد وسيقوا اليهم بالاغلال والاصفاد يوم كان القصر آهلا بالنساء والاولاد وألوف من العبيد والجواري مما حمل اليهم بالأسر أو الهدايا وفيهم غلمان من أبناء الملوك وفتيات من بنات الامراء وكلهم يرفلون بألبسة الحرير يتوسدون الرياش الوثير بين مزركش ومطرز بألوان تبهج النظر وانغام تطرب السمع وكم كان على شرفات الايوان من الستائر الموشاة يطل من ورائها الجواري الحسان يتطلعن الى ما كان يقام في باحة القصر من الالعاب على الخيول كالسباق أو لعب الصوالجة والناس كلهم فرحون يحسبون الحياة نعيما دائما — فلو رآهم راء ثم جاء مع ميمونة في ذلك المساء ورأى الايوان قد أصبح مقراً للحشرات رياشه التراب وما نبت عليه من الحشائش والطحالب وغارقه الاشواك والاحجار وقد تهدمت جدرانه وسقطت أساطينه وتصدعت أركانه لاعتبر وتهيب وغلبت عليه الوحشة ولو كان من الابطال فكيف إذا كان فتاة ربيت في مهاد الرخاء مثل ميمونة فالتفتت الى ماحولها فلم تر الا خلاء قد تولاه الخراب فاستوحشت وندمت على مجيئها ولكن رغبتها في لقاء حبيبها شجعتها وثقتها بجدتها هونت الامر عليها

أما عبادة فكانت في شاغل بما لحقها من التعب وكانت أقل خوفاً من ميمونة فاسندت نفسها الى اسطوانة ملقاة هناك من أنقاض الايوان وقالت لميمونة « هل ترين أحداً أم تسمعين صوتاً ؟ »

فاصاخت بسمعها ثم قالت « انى لا أسمع صوتاً ولا أرى شيئاً لكن ذلك

لايمنع أن يكون بهزاد داخل هذا البناء يبحث على عشب أو عقار وبما أننا وصلنا الى هنا فلندخل الطاق فاذا لم نر أحداً رجعنا سريعاً قبل أن يشتد الظلام . . هل ندخل ؟ »

فلم تشأ عبادة مخالفتها وقد استصوبت رأيها فمشتا وهما تجسان الارض جساً بأقدامهما وتحاذران العثور بالاحجار أو الاشواك وقد سكنت الطبيعة وأوت الطيور الى أوكارها . ولما أقبلتا على باب الايوان هابتا سعته وارتفاعه فقد كان عرض فتحته ٣٤ ذراعاً وارتفاعه ٣٢ ذراعاً (١) ولم تقفا تحت قنطرته حتى سمعتا هبوب النسيم وأحستا ببرده فأجفلت ميمونة وتراجعت وشعرت كأن يداً باردة لمست وجهها فتلفتت فلم تر أحداً فابتدرتها جدتها قائلة « مالك يابنية ؟ »

قالت « ماذا أسمع . . . ؟ هل اسمع هبوب النسيم وأشعر ببرده أم هي انفاس الجان . . . قد كنا منذ لحظة خارج الايوان وكل شيء هادىء فما بالي سمع هبوباً وأشعر بالبرد . . ؟ »

قالت « كأنك لم تدخلي هذا الايوان قبل الآن ؟ »

قالت « كلا . . وهل فيه جان ؟ »

قالت « لاتخافي يابنية ليس في المكان جان ولا انس وأما ما تسمعينه فهو أصوات مجارى الهواء الخارج من جدران الطاق . . »

قالت « وقد كنا بقربه الآن ولم يكن ثمة ريح . . . فكيف هبت سريعاً على هذه الصورة »

قالت « ان في بناء هذا الايوان سراً لم ينكشف لاهل هذا العصر بعد . . . انه مبني على هندسة تجعل الهواء يلعب في قاعته ولو كان الناس خارجه في حر شديد فيخرج من منافذ في جدرانه مصنوعة على نمط عجيب حير مهندسي هذا الزمان وقد تأنق الذين بنوه في صنعه على هذه الصورة حتى لايفارق النسيم مجالس الاكاسرة في أشد الايام حراً . . فلا تخافي . . هل تريدين الرجوع ؟ »

(١) راجع وصف هذا الايوان وتاريخه في الهلال السادس من السنة الخامسة عشرة

وكانتا قد دخلتا الباب وأقبلتا على القاعة الكبرى التي يسمونها الطاق ويسمون الايوان بها فيقولون طاق كسرى كما يقولون ايوان كسري . وكانت مساحة هذا الطاق في أيام عمارته ستين ذراعاً في ستين وقيل مائة في خمسين وكانوا يفرشون أرضه ببساط واحد مزركش ومرصع

الفصل الرابع والثلاثون

الدهشة

وكان في صدر الطاق على عهد الاكاسرة عرش من ذهب مرصع بالحجارة الكريمة يجلس عليه كسرى تعلوه قبة مرصعة وفي داخلها مروحة من ريش النعام والى جانبي العرش مجالس الاعوان والمرازبة وقد ذهب ذلك كله في أثناء الفتح غنيمة للمسلمين ولم يومئذ أهل بادية حفاة عراة لا يفرقون بين الكافور والملح ولا بين الجوهر والحصى فاقتسموا الآنية وقطعوا الابسطة ومزقوا الستائر . وكان نصرهم عبارة عن تغلب البداوة على الحضارة . فلم يبق هناك الا الاحجار وبعض الاساطين وقد تشوهت وتكسرت

ونظرت ميمونة الى ما حولها من الجدران الهائلة فرأت عليها صوراً ملونة منعها الظلام من تحققها . ولما سمعت جدتها تستخيرها في الرجوع وهي لا ترى في ذلك المكان الا ما يبعث على الوحشة . ناهيك بما كانت تخافه من الحشرات التي تكثر في مثل تلك الخربة عزمت على الرجوع وأرادت ان تجيبها بالايجاب وتتحول فاذا هي تسمع دبدبة خارج الايوان ولا تسمع كلاما فاختلج قلبها في صدرها وأرادت أن تصيح فارتج عليها والصق لسانها بحلقها . وادركت جدتها ذلك ولم تكن أقل خوفاً منها فأمسكت بيدها وأومأت اليها أن تتبعها الى الداخل وهي تهمس في اذنها « لعل أولئك العيارين ظنوا مثل ظننا فأتوا للبحث عن بهزاد في الايوان وهو والحمد لله ليس هنا واذا رأونا ربما

قتلونا فلنختبي وراء هذه الاساطين حتى اذا أطلوا ولم يجدوا أحداً رجعوا فنجوا نحن قالت ذلك وصوتها يرتجف وهي تجر ميمونة بيدها . فأسرعتا فوق الحجارة وما يتخللها من الاعشاب والاشواك وقد سمع لخطواتهما خشخشة وطقطقة رغم ما أرادتاه من التستر ولم يكن لهما بد من ذلك. ولم تنتبها لدهشتهما وبغتتهما وهما تسرعان لما كان يسرح بين أقدامهما من الجرذ والاورال ونحوهما من الحشرات حتى وصلتا الى كوة واسعة لعلها موضع ذلك العرش في إبان صولة الفرس . وبين يدى الكوة أساطين متفرقة اذا دخل الطاق داخل لا يفطن لمن يقيم وراءها . فدخلتا الكوة وانزوتا فيها وهما تمسكان أنفاسهما من الخوف وأصغتا وعيونهما محملقة تنظران نحو الباب بلهفة وجزع وقد ندمتا على تلك المخاطرة ولا سيما ميمونة فكانت وهى منزوية تضم جدتها اليها استئناساً بها وقد أخذتها الرعدة وجدتها تخفف عنها وتستغيث بالله

ولم تمض لحظة حتى كفت الدبدبة وسمعت ميمونة همساً عند الباب كأن المتكلم يحاذر أن يسمعه أحد وعاد السكوت لحظة سمعت في أثنائها صوت قدح الزناد . ثم رأت أشعة النور اندفعت الى الطاق من سراج يحمله شبح طويل القامة قد تلثم بلثام أسود والتف بعباءة سوداء حتى لا يبدو منه غير يده يحمل بها السراج . فدخل صامتاً وفي أثره بضعة رجال في مثل لباسه . فلا تسل عن ميمونة وخفقان قلبها واضطرابها حتى كاد الدم يجمد في عروقها من الخوف لئلا يتقدم الرجل بسراجه الى مكانها فبالغت في الانزواء وهي معانقة جدتها

أما حامل السراج فلما توسط الطاق التفت يمنة ويسرة وقال « هل ترون أناساً ؟ . إني لا أرى أحداً . . . ومن يأتى هذا المكان في مثل هذا الوقت ؟ . ليس ما سمعناه الا خشخشة بعض الحشرات السارحة لما أحست بقدومنا » ثم نظر الى ما بين يديه كأنه يبحث عن مكان يضع السراج عليه فرأى بقية اسطوانة قد ذهب معظمها وظلت قاعدتها قائمة فوضع السراج وأخرج يده الاخرى من تحت العباءة واذا هو يحمل بها صندوقاً أسود اللون

لامعه فوضعه بجانب السراج ثم التفت الى رفاقه وهم ستة وقال بصوت ضعيف « هل نحن في سلام »

فأجابه بعضهم « نعم قل ما بدا لك »

وكانت ميمونة لما سمعت صوت الرجل الاول استأنست به لأنه يشبه صوت حبيبها فاختلج قلبها وشاعت عيناها وهي تحسب نفسها في حلم . ثم رأت الرجل الطويل قد خلع عباءته وخلع رفاقه عباءاتهم فافترشوها وأشار اليهم فقعدوا عليها وظل واقفاً وقد بدت ثيابهم من تحت العباءات على غير المألوف في بغداد — رأت على كل رجل قباء أخضر وعلى رأسه قلنسوة لها عمامة خضراء وقد تمنطقوا بالسيوف وتقلدوا الاقواس كأنهم يتأهبون للحرب

ووجهت ميمونة انتباهها على الخصوص للمتكلم الاول وكان قد ولاها ظهره فلم يفتها انه بهزاد بعينه فحدقت فيه وودت ان تناديه لو لم تتمالك وتتجلد وأشارت الى جدتها أن تنظر اليه ومع ضعف بصرها عرفته وأومأت الى ميمونة أن تصبر وتبقى صامتة فصبرت نفسها وأخذت تتفرس بالقوم فعرفت من وجوههم ولحاهم أنهم من الفرس ولكنها لم تعرف احداً منهم وادا ببهزاد قد تحول نحو قاعدة الاسطوانة وتناول الصندوق فوضعه بين يدي الجماعة وقعد القرفصاء وهو يقول « اقسموا على ما في الصندوق انكم تكتمون ما يدور بيننا

فتصدى رجل منهم رقيق البدن خفيف العضل تدل سحنته على عصبية مزاجه وحدة ذهنه وجرأته فقال « ولكنك لم تخبرنا بما فيه وقد وعدتنا ان تطلعنا على ذلك قبل كل عمل »

فتناول مفتاحاً من جيبه وفتحه وقال « انظروا ولا تتكلموا »

فنظروا في الصندوق وتراجعوا وقد تولتهم الدهشة وقالوا « انا لله وانا اليه راجعون ماهذا ؟ »

قال « هذا شعارنا من اليوم ... هذا هو رأس القتيل المظلوم اقسموا به انكم تكتمون حديثنا وتسعون في الانتقام له ولمن قتل قبله »

قال ذلك وأقفل الصندوق وهو جاث فقرأوا الفاتحة معاً ثم أقسم كل منهم انه يبذل ماله ودمه في سبيل الانتقام

الفصل الخامس والثلاثون

كسرى انوشروان

ثم وقف بهزاد وأعاد الصندوق الى موضعه وحمل المصباح وتقدم نحو جدران الطاق والسراج مرفوع بيده حتى يبدو ماعلى الحائط وقال « أترون ما على هذا الجدار من الرسوم ؟ »

« قالوا إنا نرى كسرى أنوشروان بجنده يحاصر انطاكية »

قال « ألم يفتحها ؟ »

قالوا « بلى »

قال « ونحن فاتحون باذن الله ... ألم يكن أنوشروان عادلا ؟ »

قالوا « انه كان عادلا حكيما »

قال « ألستم خلفاءه وأبناءه »

قالوا « بلى »

قال « ألم تنصروا هؤلاء العرب وتملكوم رقاب الناس »

قالوا « بلى »

قال « ألم يكن أجدادكم الذين بذلوا أرواحهم في هذا السبيل فسفكوا الدماء وأبلوا بلاء الرجال الاشداء وارتكبوا في طاعة أمامهم الاول اموراً عظاما فقتلوا على التهمة وغدروا وخافوا رغبة في مصلحة تلك الدولة وما كان جزاؤم ؟ »

فاجابه الجميع بصوت واحد « لقد جوزينا جزاء سنمار ... رحم الله أبا مسلم .. »

قال « ليس أبو مسلم أول شهيد منا ولكنه أعظم شهيد قتله اولئك العرب غدراً بعد أن أيد سلطتهم وسلم الدولة اليهم أترضون ان يذهب دمه هدراً فضلا عن دماء آبائكم ؟ »

فقال رجل منهم كبير السن جليل الطلعة « انك تدعونا الى أمر عظيم ولم تخبرنا من انت . . . نعم انك فارسي مثلنا وشريك لنا في هـذا الامر . . . ولـكنا نحب ان نعرف الغرض الحقيق الذي أتينا به الى هذه الخرائب وقد كنا في غنى عن ذلك في بيوتنا »

قال « ان هذا المكان يعده الناس خربا وما هو كذلك . . انه أثر حي لعظمة دولتنا التى عجز المنصور بعد ان غدر بأبي مسلم عن هدمه . . . ان بقاء هذا الايوان رمز على بقاء دولة أصحابه . وأحببت ان نتذاكر بالانتقام بين جدرانه وهذا انو شروان العادل كأنه يرانا ويسمعنا فاذا تعاهدنا في حضرته كان عهدنا وثيقاً . . »

ثم رفع السراج الى رأس كسرى وقال « انظروا انه ينظر اليكم بعينيه نظرة عاتب كأنه يقول : لقد تقاعدتم عن نصرة أمتكم ورضيتم الرضوخ لقوم استخدموكم وأذلوكم وقتلوا خيركم غدراً فكيف تصبرون على الذل وانتم الفرس ومنكم العظماء والحكماء والقواد ومنكم رستم وقورش ودارا وسابور وبرويز وأنوشروان وبزر جمهر وقـد حاربتم اليونان والرومان والهند والصغد ووطئتم بلادهم وفتحتم مدنهم . . . كيف يغلبكم على امركم أعراب كانوا يفدون علينا للاستجداء فننعم عليهم بالطعام واللباس وكان أحاسنهم من جندنا وموالينا فتسلطوا عليكم بالسيف ثم نصرتموهم فقتلوا كباركم غدراً وملكوا رقابكم وانتم صابرون ولولم تصبروا لـكنتم الملوك وهم عبيد لـكم . ومع ذلك اليست مقاليد الأحكام في ايديكم ومنكم وزراؤهم وقوادهم ورجال العلم والسياسة فيهم كيف تحنون رقابكم لرجال مافيهم الا الضعيف وانما غلبوكم بالحيلة والمداجاة. ان الصبر اذا طال أصبح مذلة وعجزاً هذا خطاب انوشروان ولأجله جئت بكم الى هذا المكان . اما أنا فاذا كنتم من الناقمين لأبي مسلم فاعرفوني . . . انى رسول اخوانكم في خراسان فما قولـكم ؟ »

فما فرغ بهزاد من كلامه حتى ارتفع صوته ونسي التكتم والتستر وقـد اشرق وجهه حماسة وشهامة . وكانت ميمونة لسمع اقواله وقلبها يرقص فرحاً لما سمعته من التحريض على الانتقام . ولـكنها ظلت مشغولة الخاطر بما في

الصندوق وقد فهمت من حديث القوم ان فيه رأس رجل مظلوم واصبحت شديدة الميل الى معرفة صاحبه . على انها شغلت بالفرح لما ظهر لها من تحريض حبيبها للانتقام من اصحاب الدولة ولبثت تتوقع ما يكشف لها الغامض

أما بهزاد ففرغ من قوله والسراج في يده وهو ينظر الى القوم فنهض ذلك الكبير وقال « هل أنت رسول الينا من إخواننا الخرمية في خراسان؟ »

قال « إني رسول اليكم منذ بضعة أعوام »

قالوا « وما الذي أخرك عن دعوتنا الى الآن ؟ »

قال تربصت حتى جاءت الساعة وسنحت الفرصة لان الامور مرهونة بأوقاتها . فالآن مات الرشيد ... مات الرجل الذي غلبنا بمبادرته وكيده فقتل كبيرنا وعمدتنا وعرقل مساعينا . . فتربصنا حتى مضى وخلفه غلام غر همه أكله وشربه و . . »

فقطع الرجل كلامه قائلا « ولكننا أقمنا دولة فارسية أساسها الآن في خراسان . هذا أخوه المأمون ولى العهد بعده لا يلبث أن يتولى العرش وهو كما تعلم آلة في يد الفضل بن سهل وهذا انما أسلم وتقرب منه رغبة في نصرة الفرس وتطلعاً الى هذه الفرصة . فاذا أفضت الخلافة الى المأمون بلغنا الغرض المطلوب على أهون سبيل ؟

قال ألم أقل لكم إنكم غافلون عن مصالحكم ؟ ان مساعي الفضل أوشكت أن تذهب أدراج الرياح بما دبره هذا الغلام وأنصاره من أسباب الغدر — فكما أسس المنصور دولته بقتل أبي مسلم غدراً وأنقذها الرشيد بقتل جعفر غدراً فان هذا الغلام عرقل مساعي الفضل بن سهل بخلع المأمون غدراً . . »

فصاح الرجل « وهل خلعه ؟ »

قال « نعم خلعه ولا يلبث أن يقتل أنصاره وأنتم نيام . ان مساعي الفضل مؤسسة على الدهاء والسياسة فاذا لم تبادروا الى تأييدها ذهبت عبثاً فلا ينفعنا اسلامه ولا تقربه من المأمون »

فقال الرجل « هل أنت واثق من الخلع ؟ »

قال « لست نائما مثلكم انى ساهر على مصلحتكم منذ بضعة أعوام وقد بثثت العيون والارصاد حتى في بلاط الخليفة وأعرف كل حركة تجري في بيت الامين وأعرف اهواء العامة وأغراض الخاصة — وقد علمت يقيناً أن الامين خلع أخاه المأمون ولا ندرى ما يأتيه بعد ذلك . أما العامة فقوم طغام يباعون ويشرون وهم لا يعلمون وأما الخاصة فانتم عمدتهم فبادروا الى العمل . فقد بلغ السيل الزبي »

فأطرق القوم هنيهة ثم وقف الرجل الجليل وقال بصوت هادىء « أما وقد ثبت خلع المأمون فالامر هام ولكن سعينا لا يضمن فيه الفوز الا بالتؤدة فان هؤلاء العامة لا يقادون إلا بالدين وهذا امر كان أوله في خراسان ولا يقوم إلا من هناك »

قال « ان تدبير ذلك هين علينا وخراسان سيفنا وذخيرتنا وأما الدين فهو الوسيلة لجمع كلمة العامة وهذا في أيدينا سندبر ذلك في خراسان . ان هذه الاقبية الخضراء ستملك أمر الدين باذن الله ؟ »

ففهم الرجل مراده من اتخاذه مذهب الشيعة سلاحاً لنقل الخلافة فقال « متى صارت الخضرة شعار الخلافة وذهب سواد العباسيين نلنا المراد ولكن أنى لنا ذلك ؟ »

قال « ذلك يكون لنا ان شاء الله في خراسان ولا بد من اعمال السيف فكونوا أنتم في يقظة من أمر شيعتنا في بغداد . واذا أتت الساعة يحاسب كل منا على عمله » ثم أشار الى الصندوق وقال « وأما شعارنا الحقيق فهو ما رأيتموه في هذا الصندوق وسأضيف اليه رأساً آخر اذا رأيتموه علمتم أنكم اذا بذلتم أموالكم وانفسكم انما تبذلونهما في سبيل حسن . . . اذا كنتم من الخرمية فانكم تنتقمون لامام قديم ورجل عظيم . تنتقمون لأبى مسلم صاحب الرايات السود مؤسس الدولة العباسية وهو يناديكم من أعماق قبره أن تقلبوا هذه الدولة وتعيدوا دولة الفرس وتؤيدوها بالشيعة العلوية صاحبة الدعوة الاصلية التى أضاعها المنصور بغدره ودهائه . وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون »

الفصل السادس والثلاثون

الى المنزل

وكان بهزاد يتكلم والعرق يتصبب من جبينه وقد أخذت منه الحمية مأخذاً عظيما واستنهض عزائم أولئك الرفاق وسحرهم بحماسته وبسالته حتى وهموا أن ذلك الايوان الخرب آهلا بالجند والاعوان وكأن متكلمهم كسرى أنوشروان . وكانوا يعرفون بهزاد قبل ذلك المساء طبيباً فارسياً وهو بالطبع ناقم على العباسيين ولم يكن يخطر لهم انه رسول من الاحزاب السرية القائمة في خراسان للانتقام من دولة العرب — ومن أشهر تلك الاحزاب جماعة الخرمية وهم طائفة ظاهرها ديني واختلفت الاقوال في حقيقة مذهبها ولكنها كانت حزباً سياسياً يستخدمها رجال المطامع في طلب السيادة وفي جملتهم أصحاب أبي مسلم وأهله ولا سيما ابنته فاطمة فان الخرمية كانوا يقدسونها ويذكرونها في أدعيتهم وللخرمية دخل كبير في تاريخ الاسلام وكانوا اذا اشتدوا ظهروا واذا ضعفوا اختفوا وكانت لهم مخابرات سرية في المدائن الاسلامية يتعاونون ويتكاتفون وفيهم المسلمون والزردشتيون والمجوس وانما تجمعهم جماعة الفرس

ولا بدع اذا كان منهم جماعة في بغداد كالذين جاءوا مع بهزاد وهم من وجهاء القوم وأصحاب الثروة والنفوذ هناك وفي نفوسهم أشياء على الخلفاء لما رأوه من قتلهم أبا مسلم وجعفر البرمكي وغيرهما . وكانوا يتحدثون بذلك سراً وهم ينتظرون تبدل الاحوال وآمالهم عالقة بالمأمون إذا تولى الخلافة ولم يخطر لهم ما أتاه الامين من خلعه . فلما أنبأهم بهزاد بذلك ثارت الغيرة في نفوسهم وتحمسوا ونهض أحدهم وقال « اننا على ما أقسمنا عليه لاندخر في سبيل ذلك مالا ولا رجالا ولكن لابد لنا من التؤدة »

فقال « ذلك ما عزمنا عليه . . أقيموا أنتم في أعمالكم كالعادة حتى تأتي الساعة وأنا أعرف أماكنكم فكونوا على استعداد . . » قال ذلك وتحول

والسراج لا يزال في يده فوضعه في مكانه وهو يقول « قد آن لنا الانصراف وهذا آخر اجتماع لنا في هذه الديار على هذه الصورة وسنجتمع على غير كلفة أو حذر قريباً ان شاء الله . . »

فنهض رفاقه وأخذوا يتأهبون للخروج فالتفوا بعباءاتهم وهموا بالانصراف وتناول بهزاد عباءته فالتف بها وأطفأ السراج وتركه في مكانه وخرج . فلما أظلم الطاق لم تعد ميمونة تستطيع ضبط نفسها والصبر على التستر فهمت أن تنادي بهزاد فأمسكت جدتها بيدها وطلبت اليها أن تصمت ريثما يتفرق القوم ونهضت وأشارت اليها ان تتبعها بخفة وهدوء فأطاعتها ومشت وركبتاها تتلاطمان من الارتعاش لا تكادان تحملانها وزادت رعدتها وارتجافها حتى اصطكت أسنانها كأنها أصيبت بتشنج

ولم تتوسطا الطاق حتى رأتا الجماعة امتطوا خيولهم بعد أن صافحوا بهزاد وودعوه وانصرفوا وبقي هو وحده فتحول نحو مربط جواده ليركبه فسمع وقع خطوات تتبعه فالتفت فرأى شبحين بلباس النساء فتحول نحوهما بهدوء ورباطة جأش وقال « من أرى ؟ . »

فتراكضت ميمونة نحوه وترامت على ذراعه وصاحت «أنا ميمونة وهذه جدتي عبادة »

فشعر بهزاد برعدتها فتجلد وقال « وما الذي جاء بكما الى هذا المكان ؟ »

فقالت عبادة « جئنا للتفتيش عنك فقد شغلت خاطرنا بغيابك » ومولاتنا بنت المأمون أصيبت بحمى لا ترضى معالجتها الا على يدك فلما ابطأت بالرجوع لم نر أحداً أولى منا بالبحث عنك هنا لاننا نعرف منزلك وطرقك . . »

فأطرق وهو يمسك لجام الفرس بيده والصندوق باليد الاخرى ثم قال وما الذي جاء بكما الى هذا المكان وكيف عرفتما أني أجيء اليه »

فقالت ميمونة « قد ساقتنا اليه العناية والحديث في ذلك يطول وأنت الآن في حاجة الى الراحة ونحن كذلك . . »

فقال « هلم بنا الى المنزل » ثم التفت الى عبادة وقال « أظنك أكثرنا تعباً فاصعدي الى الفرس فاركبيه ونحن نمشي بجانبه »

فقالت « العفو يا سيدي هذا لا يكون .. لا يركب فرسك سواك ولكن الى اين نذهب . . ؟ »

قال « الى المنزل »

قالت « الى المنزل في المدائن ؟ »

قال « نعم »

فأمسكت يده بكلتا يديها وقالت « لا بالله . لا تذهب الى هناك »

قال « ولماذا ؟ »

قالت « لان في الذهاب خطراً عليك »

فأجابها وهو لا يزال ماشياً « وأي خطر ؟ »

قالت « رأينا الجند والعيارين جاءوا للبحث عنك في منزلك » وقصت مختصر ماشهدتاه الى أن قالت « فأخاف ان يصيبك سوء »

فقال وهو يتغير « أنت تخافين وأما أنا فلا اخاف »

فقالت « بالله أطعنا في ذلك وتعال نذهب معاً في الطريق نحو الشاطىء فان الحراقة في انتظارنا هناك »

فقال « لابد لى من الذهاب الى منزلى يا خالة »

فلم تصبر ميمونة على السكوت فهمت أن تتوسل اليه ليغير عزمه فاذا هي تسمع وقع أقدام مسرعة فالتفتوا جميعاً فرأوا شبحاً قادماً نحوهم من جهة المدائن فأجفلت ميمونة وصاحت « ويلاه أظنه واحداً من العيارين »

فسمعت الرجل يقول « كلا لست منهم »

فعرفوا صوت سلمان فدهشوا وصاح بهزاد « سلمان .. ؟ »

قال « نعم يامولاي . . . » فوصل اليهم وهو يلهث من سرعة الركض فابتدره بهزاد قائلا « ماوراءك ؟ »

قال بصوت متقطع من التعب « ان المنزل يامولاى محاط بالجند والعيارين

وهم جماعة كبيرة أرسلهم الامين للقبض عليك . . »

قال « وكيف أتيت المدائن حتى رأيت ذلك وعهدي انك في بغداد »

قال « عرفت هذا العزم من مصدره فاحتلت في الخروج بأسرع ما يستطيع النـاس فأدركت المنزل وقد سبقوني اليه ورأيتهم محيطين به يتشاورون في فتحه فعلمت انك لست في داخله وتذكرت انك تأتي الايوان بعض الاحيان فأتيت لعلي اراك وأنذرك بما هناك حتى لا تعرض نفسك للخطر . . »

قال « وهل افر منهم ؟»

قال « وكيف اذاً . . ؟ وهل تلق بنفسك في الخطر ؟ بالله اطعني »

قال « هذا لا يكون ولـكن اذهب أنت بهذه الخالة وميمونة الى الحراقة وأنا لا بد من ذهابي الى المنزل لامر هام فاذا لقيت فيه جنداً يحكم الله بيني وبينهم »

فلم تعد ميمونة تتمالك عن التصريح بما في خاطرها فقالت « وهل نحن خائفون على حياتنا ؟ وحياتك هي العزيزة ... ان حياتك عزيزة يا سيدي ... أتظننا لم نسمع حديثك .. ؟ فقد عرفنا مهمتك وفي نفسي من هذا الصندوق شيء فأحب الاطلاع عليه .. »

قال « ربما اطلعت عليه بعدئذ وأما الآن فلا بد من الذهاب الى البيت إني لم أتعود الفرار »

فازدادت ميمونة اعجاباً به ولم يروا بداً من اطاعته فقالوا « نسير جميعاً حيثما تشاء ويصيبنا ما يصيبك »

فمشى وسلم زمام الفرس الى سلمان وأراد هذا أن يحمل الصندوق عنه فأبى ومشت عبادة وهي تتثاقل في خطاها وتبالغ في اظهار عجزها وكذلك سلمان وميمونة كأنهم مساقون الى القتـل رغم ارادتهم وبهزاد يطاوعهم بالتأني

الفصل السابع والثلاثون

حديث الغرام

أما ميمونة فلا تسل عن قلبها وما قاساه من الاضطراب في ذلك المساء بما تضارب فيه من الامل والخوف والفرح والاسف . فكانت تمشي معهم وهي سابحة في أبحر الهواجس تراجع ما سمعته أو شاهدته في الطاق فاذا تصورت مساعي حبيبها في نصرة الفرس اختلج قلبها فرحاً فيعترض فرحها ما تخلل أقواله من التعريض بسفره الى خراسان فتنقبض نفسها وهي مع ذلك لم تفهم محلها من قلبه . وأحست بافتقار كلي الى خلوة تستطلع فيها أفكاره واذا تصورت مجالسته على انفراد شعرت بتهيب وخجل

قطعوا مسافة الطريق والظلام شامل وهم سكوت يمشون الهوينا وكل منهم يفكر في امره ويتشاغلون بتجسس الطريق لان أكثرها وعر . وكلما اقتربوا من البلد تطلعوا الى ما عساه أن يكون من أمر أولئك الجند . فلما دخلوا الاسواق استأذن سلمان بالمسير أمامهم ليستطلع حال المنزل فمضى ثم عاد وهو يقول « ان الجند انجلوا عن البيت بعد أن كسروا ابوابه ونهبوا ما فيه . . »

فقال بهزاد لا يهمني مما في البيت الا شيء واحد اذا ابقوه فهو يكفيني »

فظنه سلمان يعنى كتبه وأوراقه فقال « إنهم أخذوا الكتب ومزقوا الاوراق »

فقال « وهذا لا يهمني » وظل ماشياً وهم يتبعونه حتى وصلوا المنزل فرأوا الباب مكسوراً فدخلوا منه وسبقهم سلمان الى غرفة يعهد فيها مسرجة فأضاء السراج وعاد ليضيء طريقهم فرأوا آثار النهب ظاهرة في كل خطوة وبهزاد يسير والصندوق بيده وهو يتفرس في الارض . فمروا في باحة كبيرة فيها كثير من الآثار الدالة على ان ذلك البيت بني على انقاض ايوان سابور حيث

كان المنصور يقيم قبل بناء بغداد . فاستطرقوا من الباحة الى باب آخر هو باب البيت الداخلي فرأوه مفتوحاً فدخلوا فيه وبهزاد لا يزال يتفرس في الارض وهم يعجبون لسكوته وقلة اهتمامه بما أصاب بيته من النهب . وبينما هم يسيرون في الدهليز رأوا بهزاد تحول عنهم الى كوة في جداره الايمن فتناول منها معولا كان هناك وقد بدا البشر في محياه ودفع المعول الى سلمان وقال « احتفظ بهذا » ومشى ولم يعد يلتفت الى شيء حتى دخل غرفة كبيرة في وسط المنزل في أرضها بساط عليه تراب من أثر المشى وأوراق مبعثرة من أثر النهب والى جوانبه وسائد فأشار الى عبادة وميمونة بالجلوس وأمر سلمان ان يتبعه ودخل من باب في صدر الغرفة الى حجرة وأغلقا الباب وتركا السراج في الغرفة

فلما خلت ميمونة بجدتها نظرت اليها فرأتها تلهث من التعب والعرق قد بلل خمارها وهي في حاجة الى الاستراحة فودت لو انها تنام فتغتنم الفرصة لمحادثة بهزاد . فتشاغلت عنها ولم تخاطبها في شيء فرأتها تكبو وتتثاءب من النعاس فقالت لها « توسدي ياسيدتي واستريحي » ونهضت فأتتها بوسادتين استلقت عليهما وهي تقول « اذا خرج بهزاد أيقظيني »

فقالت « سأفعل ذلك »

ولم تمض دقائق قليلة حتى نامت عبادة وشخرت وظلت ميمونة وحدها كأنها في بحر تتقاذفها أمواجه واستغرقت في التفكير عن سبب تنتحله لمخاطبة بهزاد

وهي في ذلك فتح باب الغرفة فاجفلت والتفتت فرأت بهزاد خارجاً وقد بدل ثيابه فالتف برداء خفيف واعتم عمامة صغيرة . وخرج سلمان في أثره والمعول بيده فأشار الى سلمان بالخروج بمعوله فخرج وظل بهزاد واقفاً فوقفت ميمونة احتراماً له وهي مطرقة حياء وهياما فألقى يده على كتفها وهو يقول « اجلسي يا ميمونة يابقية البرامكة »

فلما سمعته يكنيها بأهلها وهذه أول مرة أظهر انه يعرف نسبها خجلت وجلست وقد ارتج عليها . فبادر الى وسادة ثناها واشار اليها ان تجلس عليها

وهو يقول « اقعدي على هذه الوسادة يا ابنة جعفر »

فازدادت ميمونة استغرابا من هذا التصريح وتجلدت حتى لا تضيع هـذه الفرصة منها وقالت وهي مطرقة وقد توردت وجنتاها « أراك تخاطبني بلقب جديد »

فقال وهو يتناول وسادة اخرى ليقعد عليها « اني أخاطبك باسمك الحقيقي وان كنت تحسبيني أجهله ... رحم الله جعفراً وأحياه »

فرفعت بصرها اليه وقد ابرقت عيناها بما غشيهما من ماء الحب وقالت وصوتها يتقطع من شدة تأثرها وهي تحاول اخفاء ذلك بالابتسام « هل ترجو قيامة الأموات في هذه الدنيا ؟ »

قال « ان لم يحي بدنه فسيحيي ذكره . . ان جعفراً لم يمت يا ميمونة لأن الرشيد قتل بدنه ولا سلطان له على ما خلفه من الذكر الحميد . . »

فقالت وهي تتشاغل بتثنية طرف كمها وقد انقبضت نفسها عند ذكر مقتل أبيها « اني أشكر احسانك ومجاملتك ياسيدي . فانك طالما أحسنت الينا وسترت فقرنا » قالت ذلك وشرقت بدموعها

فلما رآها تبكي تفطر قلبه وكاد يبوح بما في نفسه ولكنه لم يكن يرى التصريح بحبه في ذلك الحين فغالطها وقال « ان فضل جعفر واحسانه شمل الملأ كافة وما من مسلم او غير مسلم الا وهو مدين له واذا وفينا بعض الدين فأي فضل لنا »

فلم يعجبها هذا الجواب وهي انما كانت تتوقع ان يقول كلة غير هذه . . كانت ترجو أن تسمع منه كلمة الحب . . فخافت ان يكون ضميرها خانها فتنهدت وسكتت وأرسلت يدها الى وجهها وأخذت تمسح عينيها بانامليها . فامسك معصمها ورفع يدها عن وجهها وقال وصوته يكاد يختنق « ما بالك تبكين ؟ »

فقالت وهي لاتزال مطرقة وقد أحست بمجرى كهربائي يجري من يده الى كل عروقها « انى حزينة ياسيدي دعني افرج كربتي . . »

فقال « وما سبب حزنك . . ؟ »

قالت « تسألني عن حزني وانت تعلم سببه . وهل اتعس من فتاة يتيمة الابوين . تخاف ان يعرفها الناس ؟ . ان انتسابي الى جعفر بن يحيي وبقائي حية بين هؤلاء الاقوام من أكبر أسباب شقائي . قالت ذلك وجذبت يدها من يده وقد غصت بريقها

فاستأنف القبض على يدها وضغط عليها بين كفيه وهو يغالب حبه وقال « معاذ الله أن تكوني تعيسة كما تقولين »

فحاولت اخراج يدها من بين يديه وهي تقول « بل أنا تعيسة . . وكيف لا أكون كذلك وقد عرفت الليلة أن . . » وتشاغلت بابتلاع ريقها وأمسكت عن الكلام ونظرت اليه فاذا هو يتفرس في عينيها ويتجاهل غرضها والهوى يكاد يشف عن سريرته . ومخاطبة العيون أفصح من مخاطبة الالسن

العين تبدي الذي في قلب صاحبها من الشناءة أو حب اذا كانا
ان البغيض له عين يصدقها لا يستطيع لما في القلب كتمانا
فالعين تنطق والافواه صامتة حتى ترى من صميم القلب تبيانا

فادركت ميمونة من تلك النظرة ان بهزاد يحبها ولكنها أحبت أن تسمع ذلك من فيه فحولت نظرها عنه الى جدتها وكانت قد استغرقت في النوم وقد علا صوت غطيطها ثم أطرقت وسكتت فابتدرها قائلا « كملي حديثك . قولي ما هو الذي عرفته الليلة يا ميمونة ؟ »

قالت « ان ذكره يؤلمني . . ودعني وشأني . . ولا أحب ان تهتم بي . . فانك في شاغل عن مثلي بما أنت فيه من المطالب الهامة . . فلا أريد ان أشغلك بما تحدثني به نفسي من احلام الصبي »

فقال « لعلي مشتغل بمثل هذه الاحلام . . قولي . . »

فاستبشرت بقرب التصريح فرفعت بصرها ونظرت اليه نظرة عتاب وهيام وابتسمت والدمع يترقرق في عينيها وقالت « اعذرني ياسيدي على تطفلي وصغر نفسي . اني على يقين من خيبة أملي وحاشا لبهزاد القائد العظيم ان يقع في ما وقعت فيه فان اشتغاله بجمع الاحزاب لقلب الدول واستنهاض الامم ينزهه عن الالتفات لفتاة مثلي . قد تقتضي مساعيه ان يدوس الجماجم ويقتل المئات

فهل يبالي بقلب فتاة يتيمة مسكينة مثلي ؟ » وكانت يدها لا تزال بين يديه فاجتذبتها وغطت بها وجهها وأخذت في البكاء

فلما سمع قولها ورأى بكاءها غلب عليه الهيام ولكنه تجلد وقال « وهل تريدين ان امسك عن السفر ؟ »

فتنهدت وقالت « آه . . حبذا ذلك . . ولكن ما الفائدة لي من بقائك . لا . . أنا أطمع بعدولك عن السفر ولكن . . . » وسكتت

فصاح فيها « ولكن ماذا ؟ قولي »

الفصل الثامن والثلاثون

أحبك بلا شرط

فعظم عليها صغر نفسها والتجاؤها الى الحيلة في استطلاع حبه لها فأطرقت وقد شق عليها تحيلها على تلك الصورة وشعرت بتقيد قلبها وحبس احساسها وعلمت انها انما سيقت الى ذلك من عظم حبها وخافت مع ذلك أن تسمع منه ما يخيب أملها . فغلبت عليها الانفة ونقمت على نفسها لتصاغرها الى هذا الحد فاسترجعت رشدها وعزمت على أميالها فظهر عليها الانقباض وحدثتها نفسها ان تجافيه وتقطع الحديث فنهضت وهمت بالخروج فامسكها بطرف ثوبها وقد استغرب نفورها فجأة وجذبها نحوه وهو يقول ويظهر العتاب « الى أين يا ميمونة ؟ »

فقالت وهي لا تلتفت اليه « دعني يابهزاد . قالت ذلك وغصت بريقها وهي تحاول التملص من يده

فقال « اقعدي يا ميمونة لاسبيل الى الذهاب الآن . . فانك غريبة هنا ولا منزل لك تلجأين اليه »

فأثر قوله في نفسها وتذكرت مصائبها فوقفت وغطت عينيها بكفيها وأطلقت لنفسها عنان البكاء

فرق لها قلبه وسكت وقد كاد يختنق ووقع في حيرة وهو يتجلد في كتمان

إحساسه وقال كنت تريدين ان تقولى شيئاً . . قولي »

فظلت واقفة وهى تغالب عواطفها وتحاول كتمان هيامها ولا تجد الى ذلك سبيلا وشعرت انها مغلوبة على أمرها وهيهات أن تقوى على التجلد فاصطكت ركبتاها ولم تعد تستطيع الوقوف فقعدت وهي تتشاغل بمسح عينيها بطرف كمها ثم نظرت الى عينيه فرأت فيهما شيئاً يكاد ينطق بمكنونات قلبه فهمت أن تصرح بما ترجوه منه فغلب عليها الحياء فاذا هو يبتسم لها وعيناه تبرقان وجداً وهياماً ومع ذلك مازالت خائفة من التصريح فظلت ساكتة

أما هو فاستأنف الكلام قائلا « قولى ياميمونة . . . قولي »

واختنق صوته

فنظرت اليه وقد احمرت عيناها وذبلت أجفانها فازدادتا سحراً وفتنة وقالت « أراك تبالغ في المجاملة . . كفى يا سيدي . . . كفى استخفافاً بي . . قل انك لايهمك أمري وهذا يكفيك مؤونة الاهتمام بي . . »

فقال « بل أمرك يهمني كثيراً . الا يشعر قلبك بذلك ؟ أراك تتجاهلين أكثر من تجاهلى أم انت لاقلب لك » واخشوشن صوته

فأبرقت أسرتها وحدقت في عينيه كانها تستطلع حقيقة مايعنيه وابتسمت والدمع يحول في عينيها كما يضحك الطفل اذا منعته لعبة يطلبها ثم دفعتها اليه فجأة . . وتجلدت والحياء يغالبها وقالت « يهمك أمرى كثيراً . . كثيراً قل اذاً انك . . »

ففهم مرادها لكنه أظهر انه لم يفهم فقال « ماذا أقول ياميمونة قولى أنت أولا . . »

فقالت «وهل تحتاج حالى الى قول وهذه دموعي تقول عني فقل انت .. قل بالله انك تحبنى . ، أو دعني وشأنى » قالت ذلك وحولت وجهها عنه وهي تكاد تختنق من تضارب الحب والخجل وخوف الفشل

فلم يعد بهزاد يستطيع إمساك هواه ولكنه تراجع وفكر فيما هو فيه من الامر الهام فخاف أن يحول ذلك التصريح دون مشروعه « ان ذلك لايحتاج الى تصريح . . نعم إنى أحبك . . »

فلما سمعت تصريحه غلب عليها السرور حتى كادت تضحك فغصت بالضحك كما كانت تغص بالبكاء وتساقطت دموعها رغم ارادتهـا ولم تتمالك أن صاحت « انك تحبني يابهزاد ؟ . . تحبني ؟ .. أحقيقة ما اسمعه أم وهم ؟ أنا في يقظة أم في منام ؟ حبيبي بهزاد أنت تحبني ؟ »

فلما رأى لهفتها تذكر مايسيئه فبدا الاهتمام في وجهه وقال « نعم إني .. » وتشاغل ببلع ريقه وحك ذقنه وسكت

فخافت أن يكون قد ندم على ماقاله فنظرت اليه وقد امتزجت في عينيها ملامح الخوف والرجاء وقالت « مالك ؟ أراك تتردد . . ماذا جرى . . الا تحبني ؟ »

قال « بل احبك ولـكن . . »

قالت « ولـكن ماذا ؟ »

قال « ولـكن اسمحي لي ان اقول شيئاً آخر . . »

قالت وقـد بان الوجل في محياها « اما وقـد قلت انك تحبني فقـل بعد ذلك ماشئت . . » ثم قالت « لا . . تمهل . . لا تقل . . أخاف ان تهددني بالفراق . . »

قال « لا أهددك به ولـكنه شرط من شروط حبك . .

فنظرت اليه شزراً وقلبها يختلج وفي عينيها امارات العتاب وقالت بصوت خافت ناعم « اراك تشترط في الحب . وانا احبك بلا شرط »

فأطرق خجلامن ذلك التوبيخ اللطيف ثم رفع بصره اليها وقال صدقت . . الاخير في الحب اذا تقيد بشروط . . ولـكني اشترط امراً يعود لمصلحتك . . اتذني لي بذكره واطيعني فيه »

قالت « اني احببتك بلا شرط ومن مقتضيات هـذا الحب المطلق ان لا أضع عائقاً في طريق حبك فاشترط ماشئت »

فقال « قد علمت الآن اني مسافر . . فاذا سافرت فانما اسافر في خدمتك . . وقد تحسبين انك عرفت حالي وهان عليك الحـكم على مستقبلي . . سمعت أني رسول من جماعة الخرمية . . إني لم اكـذب ولـكنني اكثر من ذلك

واقول بالأسف انى لا استطيع التمتع بهذا الحب الا بعد الانتقام فاذا بقيت حيّ وعدت ظافراً فتلك هى السعادة ان اكون قد انتقمت لأبيك وللقتيل قبله والا فما انا قادر على مقاومة الاقدار ولا اجهل ان هذا الشرط صعب عليك بل هو ظلم مني ولكن لاخيرة في الواقع »

قال ذلك ونهض وهو يقول « انهضي الآن الى فراشك »

فنهضت وقلبها يرقص طرباً وان ساءها فراقه وتأجيل الاقتران ولكن سرها سعيه في الانتقام لوالدها على انها شغل ذهنها بما قاله عن نفسه من انه اكثر مما عرفت عنه فقالت في نفسها من عساه ان يكون ولكنها لم تجسر على مراجعته او استفهامه فأطاعته وهمت بالذهاب الى الفراش . فأشار بهزاد الى باب تلك الغرفة يستطرق الى حجرة وحمل المصباح بيده ومشى بين يديها وهي تتبعه وافكارها تائهة فدخلت الحجرة وفيها سرير عليه فراش من جلد فوقه وسادة وغطاء وقال « هذا هو فراشك الليلة . » ورجع والمصباح في يده ولم تمض هنيهة حتى توارت أشعة ذلك المصباح عنها فنزعت الخمار ونامت

الفصل التاسع والثلاثون

الحفر

توسدت الفراش كما هي وتغطت واستولى السكوت على ذلك البيت الا شخير جدتها فانه ما زال يشوش ذلك الهدوء وقد خيم الظلام . فلما خلت بنفسها عادت اليها هواجسها وتذكرت ما مر بها في ذلك اليوم من الاهوال منذ كانت مختبئة في الايوان الى أن اطمأن خاطرها وتحققت محبة بهزاد لها فانشرح صدرها ولكنها تنبهت لأمر كانت شديدة الميل للاطلاع عليه وقد شغلت بحديث العتاب — انتبهت لذلك الصندوق ورغبتها في معرفة ما فيه فعولت على اغتنام فرصة ثانية لاستطلاعه

قضت ميمونة ساعة وساعتين وهي تتقلب على الفراش وأجفانها

لا تغمض لعظم تنبهها على أثر ذلك الحديث رغم ما شعرت به من التعب البدني والعقلي . وطال أرقها حتى ملت الوساد وحدثتها نفسها أن تنهض ولكن الظلمة أقعدتها عن كل حركة فصبرت نفسها على ملازمة الفراش ريثما يطلع النهار

وهي في تلك الحال من الارق والقلق وقد زادها السكوت وحشة سمعت حركة وراء الحائط فأصغت فاذا هي تسمع ضرب معول في الارض فخفق قلبها وظنت لأول وهلة أنها واهمة فتنصتت فسمعت تهامساً فنهضت مذعورة وتلفت الى جدران الحجرة فرأت فوق سريرها نافذة صغيرة يبدو منها بصيص نور ضعيف . فأخرجت رأسها من النافذة فرأت خلاء بين البيت والسور على أرضه مصباح عرفت انه مصباح بهزاد ورأت رجلا طويلا قد حسر عن ساعديه وشمر عن ساقيه وكشف رأسه وبيده معول وامامه حفرة وقد اخذ ينبش بمعوله وبين يديه رجل آخر عرفت حالا انه بهزاد وتفرست بصاحب المعول فاذا هو سلمان . فزادت دقات قلبها وارتعدت ركبتاها وتعاظم ارتعاشها حتى كادت تسقط فتجلدت واسندت نفسها الى النافذة وهي تحاول الاختفاء لئلا يراها بهزاد . وتربصت فسمعت بهزاد يقول « لابد ان يكون هنا . . احفر ايضاً »

فقال سلمان « اخاف أن تكون مخطئاً يا سيدي فقد اخرجنا تراباً كثيراً ولا اجد اثراً للجثة »

فقال « لا . . لست مخطئاً . ألم يكن هنا ايوان سابور ؟ »

قال « بلى . »

قال « وقد أكد لي ذلك الشيخ الهرم ان المنصور كان يجلس في قاعة الايوان مكان هذا البيت وانهم دفنوا الجثة في بستان الايوان ولا يمكن ان يكون البستان في غير هذا الخلاء وقد نبشنا كل بقعة منه ولم يبق غير هذه . فاحفر »

قال « ليت ذلك الشيخ كان معنا الليلة فيهدينا الى . . »

قال « الم اقل لك انه مات ونشكر الله لبقائه حيا حتى دلنا على المكان وهو

على ثقة من قوله لأنه كان في عهد المنصور شابا واصابه مما شاهده تأثير محزن لم ينسه في عمره . احفر . اننا على هدى »

فعاد سلمان الى الضرب بمعوله وجرف التراب الى الخارج وهو يقول « انى لا أرى اثراً للجثة يامولاي »

وكان بهزاد في أثناء ذلك يتفرس بما يخرج من التراب ثم انحنى وقبض على قطعة من نسيج نفض التراب عنها وقال « اليست هذه قطعة من ذلك البساط ؟ »

فأمسك سلمان عن الحفر وتناول ذلك النسيج وقد تهرأ وتقطع وقال « بلى . بلى . . إنها جزء منه . . » وعاد الى الحفر بهمة ونشاط وميمونة تتفرس فيه وتستغرب حركاته

وبعد أن اشتغل برهة تعب وصار يلهث وتصبب العرق عن ساعديه ووجهه فوقف وأسند يده على المعول وتنهد تنهداً شديداً فابتدره بهزاد قائلا « أظنك تعبت ولكن لابد لنا من اتمام عملنا في هذه الليلة . هات المعول » ومد يده فتناول المعول وأخذ يشتغل بالحفر بسرعة ونشاط ولم يحفر هنيهة حتى سمعت ميمونة مصادمة المعول لجسم صلب كأنه أصاب حجراً ورأت بهزاد توقف عن الحفر ومد يده فاستخرج قطعة عظم مستطيلة وصاح « هذه ساقه أو فخذه . ابشر يا سلمان »

فتقدم سلمان ونزل الحفرة بنفسه وجعل يجرف التراب ويبحث فيه حتى عثر على شيء تناوله بين السبابة والابهام ودفعه الى بهزاد وقال « هذا خاتم »

فأخذ بهزاد الخاتم وتقدم نحو المصباح وتفرس فيه وقال « إنه خاتمه بعينه »

قال « وكيف عرفت ذلك يا سيدي ؟ »

قال « ألا تذكر أنه واحسرتاه عليه لما استقدمه المنصور من خراسان أوصى كاتبه اذا جاء كتابه وعليه ختمه كاملا لا يعمل به وانما يعمل بالكتاب اذا كان عليه نصف الختم فقط ؟ »

قال « بلى . . »

قال « انظر ان هذا الخاتم عليه اسمه وهو ممحو من أحد جانبيه . . فهو خاتمه وهذه هي ساقه فابحث عن الجمجمة »

فأخذ سلمان يحفر بيده ويخرج قطعاً من أقمشة متهرئة أو من عظام نخرة وأخيراً أخرج الجمجمة وناولها الى بهزاد فنفض التراب عنها وقد بدا البشر في وجهه يتخلله انقباض ثم امتقع لونه وقال « هذا هو رأسه . . هذا هو رأس المقتول ظلما . . ان عثورنا عليه يساوي نصف الخلافة واذا انتقمنا له فقد نلنا الخلافة كلها » وما تمالك أن قبله وأكب سلمان عليه فقبله وأخذ يمسح التراب عنه بطرف ثوبه بلطف واحترام وبهزاد واقف ينظر الى الرأس وقد تغيرت سحنته وتجلى الغضب على عينيه فابتدره سلمان وقال « أهنئك ياسيدي بما توفقت اليه فقد وقعت على ضالتك وكفى الآن . فاذا شئت رجعنا الى المنزل للراحة فقد كان هذا الليل شاقاً عليك . . » قال ذلك وتحول نحو المصباح فحمله باحدى يديه والجمجمة باليد الأخرى ومشى بهزاد فى أثره وقد تولاه السكوت والغضب كأنه أصيب بجمود

أما ميمونة فلما رأتهما تحولا نحو المنزل قعدت على فراشها وقد أنهكها التعب وزادت هواجسها وتهيبت من الخروج الى بهزاد في تلك الساعة للاستفهام عن سر ماشاهدته وصبرت نفسها الى الصباح

قضت بقية ذلك الليل كأنها في بحر هائج ولم تغمض عينيها الا قبيل الفجر فاستغرقت في النوم ولم تستيقظ حتى أيقظتها جدتها ففتحت عينيها فرأت جدتها واقفة عند رأسها وهي تقول لها « قومي ياميمونة اننا على أهبة المسير »

الفصل الاربعون

الفراق

فنهضت مذعورة وندمت على استغراقها في النوم وتلثمت بخمارها واحتذت نعالها ومشت في أثر جدتها حتى خرجتا من الدهليز فسمعت صهيلا

فالتفتت فرأت بهزاد على جواده وقد تزمل بعباءته وجعل الصندوق بين يديه على القربوس والتفت الى ميمونة وعبادة وأشار اليهما اشارة الوداع وأومأ الى سلمان قائلا « اذهبا مع سلمان .. » وهمز جواده

فأحست ميمونة كأن قلبها قد نزع من مكانه وهمت أن تستوقف بهزاد فاذا هو قد ساق فرسه مسرعا فبهتت وكاد الدم يجمد في عروقها ونسيت موقفها ولم تتمالك عن البكاء حتى انتبهت واذا جدتها قد أمسكت بيدها وقالت « هلم بنا الى القارب فانه في انتظارنا على الشاطىء .. وأما الطبيب فانه سيوافينا في قصر المأمون »

فمشت وقد تولتها الدهشة وعيناها شائعتان نحو بهزاد حتى توارى وجدتها لا تعلم بما يكنه قلبها أو لعلها علمت ببعض ذلك وتجاهلت رفقاً بعواطفها خلافا لعادة العجائز في حب الاستطلاع والبحث عن الاسباب وان كانت لاتهمهن خصوصاً اذا لم يكن لهن ما يشغلهن عن أمور الناس فانهن يجدن في الحديث عن الآخرين لذة . واذا توسمت إحداهن في جارتها شيئاً جديداً بذلت كل وسيلة في استطلاع كنهه . أما عبادة فقد ربيت في بيت رجل كبير وتعودت معاناة العظائم ومشاهدة الغرائب وانقطعت لتربية ميمونة وتولت كفالتها ولازمتها ملازمة الظل فهى لا تخاف أن تأتي أمراً يخالف . ولو لحظت فيها ميلا الى رجل لا ترضاه لها ما سكتت عنها . وأما بهزاد فانها أكثر ميلا منها اليه فآثرت السكوت حتى ترى مايأتى به القدر

ساروا الهوينا نحو الشاطىء وسلمان بلباسه الاصلى وقد التف بعباءته وما زالوا سائرين حتى أقبلوا على دجلة فرأوا الحراقة فى انتظارهم فركبوا فيها وأمروا الربان فأدار الدفة نحو بغداد وأرخى الشراع وجلست عبادة بجانب حفيدتها على مقعد في صدر الحراقة وكل منهما في هاجس . وجلس سلمان بجانب الربان وهو يتلفت نحو الشاطىء على الجانبين كانه يراقب أمراً يتوقع حدوثه

ولم تصعد السفينة بهما ساعة حتى رأيا حراقة نازلة من جهة بغداد تشق عباب الماء وعليها علم عرف سلمان حالا أنه علم الفضل بن الربيع وان

السفينة من سفنه فاختلج قلبه في صدره واسرع الى ميمونة وعبادة وأشار اليهما أن تنزلا عن المقعد وتستترا . فلما رأت ميمونة إشارته ولهفته خافت ونزلت وعيناها تراعيان الحراقة التي دنت منهم وقد فرشت بالسجاد والوسائد . فرأوا فيها جماعة من الخدم وقوفا وفي صدر المجلس شاب جميل الخلقة عرفت عبادة حالا أنه ابن الفضل والتفتت الى ميمونة فرأتها تنظر اليه وحالما تحققته انقبضت نفسها وضاقت حتى صارلون وجهها كلون التراب وأغضت بصرها وتشاغلت باصلاح خمارها

أما عبادة فنظرت الى سلمان كأنها تستطلع رأيه فاذا هو يبتسم تشجيعاً لها وقال بصوت منخفض « لا تخافي يا مولاتي ان هذا الغلام لا يتجرأ على أمر ونحن في حراقة مولاي المأمون »

فقالت « وما الذي كان يفعله لو كنا في سواها ؟ »

قال « ربما أوقفها واستفهم عمن فيها لانه ذاهب الى المدائن للبحث عن . . » وأومأ بعينيه الى ميمونة

فقالت « قبحه الله انه لا يزال على عزمه ؟ »

فقال وهو يبتسم « وقد استشار المنجمين واستكتبهم الارصاد التماسا لمحبتها فقالوا له إنها خرجت من المدائن فالظاهر أنه لم يصدق قولهم فذهب ليتحقق ذلك بنفسه . . »

وسمعت ميمونة قول سلمان وتجاهلت حياء وأنفة ولكنها عجبت لاطلاع سلمان على خبرها مع ابن الفضل وتركت الكلام لجدتها فقالت هذه « خسوء النذل إنه لا ينال قلامة من ظفرها وأنا حية »

وكانت حراقة ابن الفضل قد حاذت حراقتهم ووقف بعض الخدم على حافتها يتفرسون في ركابها فلم يقع نظرهم على غير سلمان وهب أنهم رأوا غيره فان هيبة المأمون تمنعهم من التحرش بها

مرت حراقة ابن الفضل وميمونة ترتعد خوفاً وكرها فلما تجاوزتهم أراد سلمان أن يعبث بالفتاة ليخفف ما بها فقال « أرى مولاتي كثيرة النفور من ابن الوزير وهو يكاد يموت شغفاً بها . . »

فرفعت نظرها اليه لتتحقق غرضه من ذلك الكلام فرأته يبتسم فأمسكها الحياء عن الكلام فقالت جدتها « إننا لا نقدر على النظر الى هذا الشاب »

فقطع كلامها وقال « ولا الى أبيه »

وكانت عبادة تظن سلمان يجهل حقيقة حالها فلما سمعت ما قاله استغربته ورنت اليه كأنها تنكر عليه قوله فابتدرها قائلا « يحق لك يا مولاتي أن تكرهيه وتكرهي أباه ولا تعجبي لاطلاعي على سبب هذا الكره فاني خليفة مولاي الطبيب في نصرتكما .. اركنا الى وثقا بي فأني خادم لكما . . »

فلما سمعت عبادة قوله توسمت الصدق في لهجته فاطمأن بالها . وأما ميمونة فلما سمعت ذكر حبيبها تنبهت لما هي فيه وقالت وهي تظهر السذاجة « ألعل الطبيب مسافر ؟ . . »

قال « نعم انه مسافر للبحث عن بعض العقاقير الطبية » وضحك

فأدركت ميمونة انه يمازحها وهو لا شك عارف بأسرار مولاه فابتسمت وقد استأنست بمزاحه وارتاحت الى خفة روحه وقالت « هل تظنه مسافر قريباً ؟ »

فأجابها وهو يضحك « انك تسألين هذا السؤال قلقاً على مولاتنا بنت المأمون لانها لاترضى العلاج الا من يده . . بارك الله فيك . . نعم أظنه مسافراً قريباً والحق يقال اننا إن حتمنا بعمل يعمله فانما نتكهن ونخاف أن يخطىء ظننا لأنه يعمل مايعمله فجأة . . »

فقالت عبادة « يلوح لي انك تتجاهل ياسلمان فان الطبيب لا يخفى عنك شيئاً على ما يظهر . . وأنت تقول انك لا تعلم بوقت سفره »

فلما سمعها تتكلم بصيغة الجد أراد أن يغالطها لئلا تعتمد على قوله فيكون قد باح بما يعلمه وإن كان لا يخاف عاقبة اطلاعهما عليه فقال « إن مولاي الطبيب حريص على مقاصده ضنين بما يكنه ضميره وهب انه ينوى سفراً فهو لايكاشفني به صريحاً فلعله كاشفك بذلك يامولاتي ؟ » قال ذلك ووجه كلامه إلى ميمونة

أما هذه فاحترست مما احترس منه وهب انها لم تخف التصريح بما تعلمه فالحياء يمنعها من الخوض في هذا الشأن فاطرقت وتصاعد الدم الى وجهها فتوردت وجنتاها فاكتفى سلمان بذلك وأراد تغيير الحديث فتحول نحو الربان وقال له « العلنا لا نزال بعيدين عن بغداد ؟ »

فاجابه وهو يشير باصبعه الى الامام « اليست هذه قصور كلواذة »

فالتفت سلمان وتفرس فى الافق وقال « بلى إني أرى ابنية هذه البلدة عن بعد . . فاذاً نحن على مقربة من دار السلام »

قال « نحن على مقربة منها ولا نلبث أن نرى مأذنة جامع المنصور ثم نشرف على قصر مولانا »

ولما سمعت ميمونة ذكر القصر تذكرت دنانير وزينب وكيف ذهبت مهمتها من حيث استقدام بهزاد الطبيب عبثاً. وأخذت تفكر فيما تقوله لدنانير هل تخبرها بحقيقة الحال أم تكتم ما اطلعت عليه . وهي تفكر في ذلك واذا بسلمان يدنو نحوها باهتمام فلما اقترب منها قال وهو يوجه خطابه الى عبادة « لايخفي على مولاتي ان ماشاهدناه الليلة من حال مولانا بهزاد يجب أن يبقى مكتوماً »

فقالت عبادة « وماذا تقول لدنانير اذا سألتنا عنه ؟ »

قال « نقول اننا لم نجده في بيته »

فقالت « حسناً »

الفصل الحادي والاربعون

السفر

تركنا دنانير في صباح الامس بعد ذهاب عبادة وميمونة وهي قلقة على سلامة زينب تنتظر رجوعهما بالطبيب . فانقضى ذلك النهار وهي في انتظارهما على احر من الجمر . على ان الفتاة تحسنت حالها قبل انقضائه وبرحت الفراش وعادت الى اللعب كالعادة كأنها لم تكن تشكو مرضاً

وباتوا تلك الليلة وهم يتوقعون رجوع عبادة وميمونة في الصباح فلما مضى نصف اليوم التالى ولم يأت أحد اشتغل بال دنانير وحسبت لذلك التأخير غير حساب . وفي اصيل ذلك اليوم جاء بعض الخدم ينبئها بقدوم الحراقة . فخرجت لاستقبالها على المسناة فلم تر الطبيب فيها وبعد ان رحبت بعبادة وميمونة ورأت سلمان معهما سألتهم عن الطبيب فقال سلمان « إننا لم نقف له على خبر ألم يأت اليكم ؟ »

قالت « كلا . . ان أمره لعجيب . . أين ذهب ياترى ؟

فقال « لا أدري . . وهذه عادته فى غيابه كانه مشتغل بأمور خاصة لا يعرفها احد وسأبحث عنه في بغداد »

وكانوا في أثناء الحديث قد دخلوا القصر فأتتهم زينب ووجهها مشرق لا بأس بها فقبلتها عبادة وميمونة وشغلاها عن الطبيب والسؤال عنه . وبعد ان استتب بهم المقام أظهر سلمان أنه ذاهب للبحث عن مولاه في بغداد وخرج ومكث اهل القصر في انتظاره

وعاد في اليوم التالى وهو يظهر الاهتمام وطلب مقابلة دنانير وكانت مع عبادة وميمونة في الحديقة فجاءها بعض الغلمان يقول « ان سلمان يرجو مقابلتك الآن اذا شئت »

فأسرعت وتركت رفيقتيها في حيرة من أمر تلك الدعوة ولا سيما ميمونة فاضطرب بالها لما عساه أن يكون المراد منها

أما دنانير فلما لقيت سلمان تقدم اليها سراً وقال « انى وجدت مولاى الطبيب على الجسر وكان عازما على المجيء اليك فلما رآنى عهد الى برسالة أبلغك اياها »

فقالت « وما هي ؟ »

قال « اخبرنى انه جاءه كتاب من مولانا المأمون يستقدمه اليه حالا . . »

فقطعت كلامه قائلة « من ولى العهد . وهل به بأس ؟ »

قال « كلا ولكنه أمره بالشخوص الى مرو بلا سبب يعلمه . فأنابني بابلاغ ذلك اليكم وأمرني أن ابقى هنا تحت أمرك بما تريدين »

قالت « وهل يطول غيابه ؟ »

قال « لم يخبرني عن مدة الغياب »

فأطرقت حيناً وقد ساءها ذلك السفر السريع لأنها كانت تستأنس ببهزاد وتعتمد عليه على الخصوص بشأن زينب كما علمت . فقالت « ساعه الله . . ولكن لعل له عذراً . . ما الذي حمل مولانا المأمون على استقدامه اليه بهذه العجلة ؟ . » قالت وتحولت تطلب الرجوع الى الحديقة وهي تقول « فأنت تقيم عندنا الآن ؟ »

قال « لا استطيع الاقامة هنا ولكنني اتردد اليكم وقت الحاجة . كوني مطمئنة »

وعادت دنانير الى الحديقة فرأت ميمونة قد تركت جدتها جالسة في مكانها وتقدمت لملاقاة دنانير وقد بدت اللهفة في محياها فلما رأتها تذكرت ما لحظته فيها من الميل الى بهزاد وعلمت ان خبر سفره يسؤوها فأرادت التظاهر بعدم الاكتراث وكتمان خبر سفره فرأتها تنظر اليها والحياء يمنعها من الاستفهام فأدركت مرادها فابتدرتها قائلة « ما بالك يا بنية . . لماذا تركت جدتك وحدها ؟ » قالت ذلك وألقت ذراعها على كتفها بتحبب فأحست بارتعاشها فقالت « كأني أشعر بارتعاشك . . »

فرفعت ميمونة نظرها وفي وجهها ملامح الاستعطاف وقد اطمأنت الى ملاطفتها فقالت « ما الذي أتانا به سلمان ؟ »

قالت « اتانا برسالة من الطبيب ؟ »

قالت « وما هي ؟ هل سافر ؟ »

فاستغربت دنانير صدق ظنها وارادت مداعبتها فقالت « وهل دلك قليك على سفره ! فقد قيل من القلب الى القلب دليل »

فخجلت الفتاة لتلك العبارة وهي الى تلك الساعة لم تشعر باطلاع دنانير على شيء مما يكنه قلبها . فلما سمعت هذا التلميح احمر وجهها وتشاغلت باصلاح احدى ضفائر شعرها وقالت « لماذا تقولين ذلك يا خالة ؟ فانما همني الأمر

بالنظر الى مولاتنا بنت ولى العهـد لعلمى بتعلقها به . . . »

قالت وهي تبتسم « بارك الله بمروءتك . واذا علمت انه سافر هل يسوؤك سفره من اجل مولاتنا ؟ »

قالت وهي تظهر السذاجة وقلة الاكتراث « هل سافر حقيقة ؟ »

قالت « نعم سافر » قالت ذلك وتفرست في وجهها فرأت البغتة ظاهرة فيه وقد تحول احمرار الخجل الى صفرة الوجل فاستدركت بقولها « ولكنه يعود قريباً . . لأن قلبه لايطاوعه على الفراق »

فخافت ميمونة اذا ظلت بين يدي دنانير ان ينفضح امرها فتظاهرت بما يدعو الى ذهابها وانصرفت تطلب غرفتها لتخلو بنفسها فلقيهـا سلمان في الدهليز . فلمـا وقع نظرها عليـه بغتت وخفق قلبهـا وابتدرته قائلة « هل سافر بهزاد حقيقة ؟ »

قال « نعم يامولاتى »

قالت « الى أين ؟ »

قال « الى مرو في خراسان حيث يقيم مولانا المأمون . . »

فقالت « كيف سافر وتركنا ؟ . . » وغصت بريقها

فقال « قد تركنا جميعاً الا أنت وهذا كتابه اليك » قال ذلك ودفع اليها منديلا ملفوفاً فتناولته وعلمت من ملمسه ان في جوفه كتاباً فاشرق محياها وخبأت المنديل في جيبهـا وهمت بالانفراد في غرفتهـا فاستوقفها سلمان قائلا « هل تحتاجين الى شيء آخر ؟ »

فخجلت لعجلتها واهماله فقالت « أشكرك ياسلمان . انى لا أنسى جميلك وهل استغني عن مروءتك وقـد قلت انه اوصاك بى فافعل بما تراه »

فقـال « اني رهين اشـارتك وسـاتردد اليك وأقوم باوامرك » قال ذلك ومضى

الفصل الثاني والاربعون

الكتاب

أما هي فاسرعت الى غرفتها وما صدقت أنها انفردت بنفسها فجلست على البساط وفتحت المنديل واستخرجت منه لفافة من الكاغد وكان الكاغد لايزال قريب العهد بالاستعمال في المكاتبات والفضل في ذلك لابيها جعفر فانه أول من استخدمه في الدواوين بدل الجلود ففضت الكتاب وقرأته بلهفة فاذا فيه :

« من المحب الذي تسمونه بهزاد الى ميمونة بنت جعفر بن يحي المقتول ظلماً »

« أما بعد فقد كنت عازما أن اكتب اليك بلسان أجدادنا العظام لو كنت تفهمينه ولكن قضت صروف الزمان ان نتفاهم بلسان أمة ظلمتنا وغلبتنا على أمرنا بالغدر والخيانة فقتلت رءوساءنا واستخدمت قوادنا وحكماءنا واستبدت في شؤوننا. وسيأتي يوم نقلب لهم فيه ظهر المجن ونأخذ بالثأر . فيعلم الظالمون أي منقلب ينقلبون . وكنت أحب أن أراك قبل سفري وأودعك مشافهة لولا خوفي من أن يغلبني قلبي كما غلبني في اثناء ذلك الاجتماع ففضح سراً كتمته عدة أعوام وكنت عازماً على كتمانه حتى يأتي وقته فابوح به في يوم آتي به عملا يؤهلني لحبك . ولكن أبيت الا أن أقول لك انى احبك فقلت وأقول اني أحبك . . انى احبك يا ميمونة . . احبك حباً مبرحاً . . أقول ذلك الآن وانا لا احاذر ان يحول قولي دون ما عقدت النية عليه منذ عرفتك وقبل ان أعرفك . ولو كنت بين يديك ما قلت ذلك مخافة ان يغلب علي الغرام فاطيعك بل أطيع قلبي في البقاء عندك فاضيع سعياً قضيت العمر في تدبيره . أما وانا في مأمن من ذلك فلا أبالي ان ابوح لك بمكنونات قلبي . . اعلمي يا منيتي اني اوقفت حياتي لك وللانتقام لوالدك وما أنا بهزاد ولا أنا طبيب ولا كيماوي ولا انا رسول من جماعة او جماعات وانما أنا

من ستعرفينه وتفتخرين بحبه . ولا اقول من انا حتى تأتي الساعة ودون الوصول اليها قطع الرقاب والاستهداف للحراب . انى ذاهب الى خراسان لابدعوة من المأمون ولا بأمر احد من الناس وانما انا ذاهب لاتمام امر بدأت به ولابد من اتمامه انى ذاهب طوعا لصراخ صاعد من أعماق القبور ينادى اهل النجدة أن ينتقموا للمظلوم من الظالم — واما الصندوق فقد كنت احب ان اريك ما يحويه ولكنني اشفقت على قلبك . وسافتح لك الصندوق كما فتحت لك قلبي ولكل اجل كتاب . اقيمى في بغداد في حراسة الله وقد اوصيت غلامى سلمان ان يقوم بخدمتك وهو امين صادق فاعتمدى عليه وثقي به واحتفظي بما اطلعت عليه حتى يأتيك النبأ الصحيح من خراسان يوم تنقلب الاحوال وينتصر الحق على الباطل واذا لم يسعدني الزمان بما ارجوه فاني اموت ناعم البال وقد فعلت فعل الرجال . وغاية ما يستطيعه الانسان أن يجود بنفسه في نصرة الحق. والله من وراء ذلك وهو على كل شيء قدير »

وما أتت على آخر الكتاب حتى امتقع لونها وتغيرت سحنتها وكادت تسمع نبضات قلبها باذنها وقد خارت عزائمها وتوهمت نفسها في حلم ففركت عينيها . ولما تحققت يقظتها طوت الكتاب وخبأته في جيبها واستلقت على البساط واستغرقت في بحار الهواجس فراجعت في مخيلتها خلاصة علاقتها ببهزاد منذ عرفته بالمدائن وما كان من عنايته بها وبجدتها وكانت تحسبه يفعل ذلك رغبة في الاحسان وانه لا يعرف حقيقتها وقد ظهر لها من ذلك الكتاب أنه كان مشغوفاً بها عالقاً بحبها فندمت على ما أضاعته من الفرص بمكاشفته الغرام

على أنها تذكرت بعض ما جاء في كتابه من الوعود والاشارات فاشتاقت الى تلاوته فاستخرجته وأعادت قراءته ثانية وثالثة وهي تحاذر أن يدهمها قادم أو يراها راء ثم سمعت خطوات قريبة فاخفت الكتاب واستلقت وهي تظهر الميل الى الرقاد ثم تباعدت الخطى وعاد السكوت فعادت الى هواجسها فراجعت ما ارتسم في ذهنها من عبارات حبيبها فرأت أنه معرض نفسه لخطر الموت فاختلج قلبها خوفا عليه وفضلت رجوعه عن عزمه وبقاءه معها تتمتع

برؤيته فلما تصورت عزمه على الانتقام لوالدها هان عليها الفراق وتكبدمضض البعاد وخيل لها أنه سيعود ظافراً منصوراً فتفاخر به وتعوض عما قاسته من الذل والاستتار

الفصل الثالث والاربعون

الشاكرى

على أنها تحيرت في أمره ومن عساه أن يكون اذا لم يكن بهزاد الطبيب ولا رسول الخرمية . ولما أعياها التفكير استسلمت الى التقادير وصبرت نفسها لترى ما تأتي به الايام ولما طال تفكيرها واستغرقت في هواجسها وهي مستلقية غلب عليها النعاس وكادت تنام واذا بقارع يقرع الباب فنهضت وفتحته فرأت دنانير وحدها فرحبت بها . فدخلت وهي تضحك فاظهرت ميمونة أنها كانت نائمة فقالت دنانير « مالى أراك منفردة يا بنية ؟ »

قالت « استلقيت على هذا البساط لاستريح فشعرت بألم الرأس وغلب على النعاس »

فاظهرت أنها صدقتها وتحولت تريد الخروج وهى تقول « نامي يا حبيبتى ترينه في الحلم »

فاستغربت تعريضها وانكرت وقالت « وماذا تعنين ؟»

قالت وهي تلتفت نحوها « لا تخافي يا ميمونة . ان جدتك غائبة الآن فلا تكتمى . على ان تكتمك لا ينفعك وانا قهرمانة قد عانيت الزمان ولا فائدة من الكتمان لاني قرأت الكتاب من عنوانه »

فتوهمت ميمونة أنها تشير الى ذلك الكتاب مع علمها أنها لم تره فقالت « وأي كتاب تعنين ؟ » وبدا الارتباك في وجهها

فقالت « لا أعني كتابا مرقوما » وتحولت نحوها بجملتها وقالت « وانما أعني ان دلائل الحب لا تخفى على أحد وقد عرفت حبك بهزاد من أول مقابلة ويسوؤنى أنه سافر قبل ان ... وأومأت بجفنها

فجات ميمونة من ذلك الايماء ولكنها سرت لبقاء الكتاب مكتوما عنها وهان عليها مكاشفة دنانير بحبها وفي المكاشفة راحة للمحبين اذا وثقوا من كتمان حبهم فابتسمت واطرقت

فاستبشرت دنانير بقرب اقرارها وهي انما تلتمس ذلك منها لمشاركتها بالسعي في نيل مطلوبها فألقت يدها على كتفها وأشارت اليها أن تقعد فقعدت وقعدت ميمونة الى جانبها وهي تلاطفها وتهش لها لتجرئها على المكاشفة ثم قالت سامح الله طبيبنا كيف سافر قبل ان يتم العقد... لا تخجلي ياميمونة فانك تحبينه حباً طاهراً ولا شك انه يحبك ايضاً . وهو من خيرة الشبان لا حرمك الله منه »

فتجرأت ميمونة على الكلام وقالت « وهل الحب عيب يا خالة ؟ »

قالت « معاذ الله .. ألم اقل ذلك .. ؟ فلا يصعب عليك فراقه فانه لا يلبث أن يعود فلا تجزعي »

فتنهدت وسكتت والسرور باد في اسرتها ثم قالت « انى يتيمة مسكينة فلعل الله أشفق على ذلى وأراد تعزيتي وفي كل حال فانا لا غنى لى عن مساعدتك لاني في حماك وتحت رعايتك »

قالت « انك مولاتى وبنت مولاى ولا انسى فضل والدك رحمه الله فكونى على يقين أنى عون لك بكل ما أستطيعه وهذه مولاتنا زينب قد أحبتك واستأنست بك ... »

ولم تتم كلامها حتى سمعت خطوات مسرعة نحو تلك الحجرة وصوت تأمر تجفأ ينادي « أين مولاتنا القهرمانة ؟ »

فعلمت دنانير أن بعض الغلمان جاء بمهمة فصفقت فجاء الغلام حتى وقف بالباب وصاح « أأدخل ؟ »

فقالت « ادخل »

فدخل وقد علته البغتة وحيا

فصاحت به « ماوراءك ؟ »

قال « ان شاكريا بباب القصر يقول انه يحمل كتابا اليك »

فقالت « شاكرى ؟ وما شأن الشاكرية عندنا . انهم رسل الخليفة وليس في القصر رجال ... لعله مخطىء برسالته »

قال « قد أخبرته بذلك فقال انه يحمل رسالة الى قيمة القصر » وسماك باسمك

قالت « اذهب وهات الرسالة لنرى فحواها »

فخرج وظلت دنانير وقد استغربت الخبر أما ميمونة فارتبكت في امرها وخافت ان تكون الرسالة بشأنها أو لامر يسوؤها . ومن تتوالى عليه النوائب انما يسبق الى ذهنه ما يسوءه ويغلب أن يصدق ضميره فيه

الفصل الرابع والاربعون

الكتاب

ولم تمض هنيهة حتى عاد الغلام وفي يده كتاب مختوم دفعه الى دنانير وخرج فنظرت في الختم فرأته ختم الفضل بن الربيع وزير الامين فتشاءمت من رؤيته واخذت في فضه ويدها ترتجف وادركت ميمونة بغتتها فاختلج قلبها ولبثت تنتظر ما يبدو منها . ففضت دنانير الكتاب واخذت تقرأه والدهشة بادية فى عينيها وميمونة تراقب حركاتها وتكاد تخطف الكتاب من يدها لتطلع على ما فيه ولكنها تجلدت وصبرت نفسها فرأت دنانير بعد ان فرغت من تلاوة الكتاب اعادت قراءته وقد ظهر الارتباك عليها ثم تحفزت للوقوف فلم تتمالك ميمونة عن أن امسكتها بيدها وصاحت وصوتها يرتجف « الى اين ؟ .. قولى لى أليس هذا الكتاب بشأنى ؟ اني ارى عليه ختم الفضل بن الربيع لا ريب انه يتعلق بي . . »

قالت « واذا كان بشأنك فانه يخاطبنى أنا .. »

قالت « إذاً هو يتعلق بي .. قولى .. ماذا يريد مني .. وبلاه قولى ... »

فانتثرت دنانير منها ونهضت وهي تقول « لا علاقة له بك .. »

فتبعتها وأمسكت بيدها وترامت عليها وقالت « اتوسل اليك ان تصدقيني ..

بالله قولى ولا تخفى عني واعذري لمفقي »

فخلصت يدها بلطف وقالت وقد بان الغضب بوجهها « ان هذا الرجل قد بالغ في القحة . وتجاسر كثيراً . . وكأنه اغتنم غياب سيدي وحسب اننا نخاف سطوته ونطيع أوامره .. قبحه الله »

فزادت ميمونة تأكداً ان الكتاب يتعلق بها فصاحت « مهما يكن من فحوى هذا الكتاب فاني احب الاطلاع عليه والامر لك في كل حال.. اطلعيني عليه ولو كان فيه قتلي بالله اطلعيني عليه »

فلم تر دنانير بدا من مسايرتها فدفعت الكتاب اليها فتناولته بيدها وهي ترتجف وقرأته وهاك نصه

« من الفضل بن الربيع وزير أمير المؤمنين الى القهرمانة دنانير

«اتصل بأمير المؤمنين أن في قصر مولانا المأمون فتاة اسمها ميمونة جاءت القصر من عهد قريب ويحب ان يراها ويسألها عن بعض الشؤن ويطلب سرعة ارسالها مع الشاكري حامل هذا الكتاب »

وما اتمت ميمونة تلاوة الكتاب حتى غشى الدمع عينيها وكاد الكتاب يقع من انامليها لفرط ارتعاشها وصاحت « ويلاه ان حبل تعاستي لا يزال متصلا . . ويلاه . . ماذا افعل .. دعيني اخرج من هذا القصر ولا تتحملوا غضب الخليفة من اجلي »

فأخذت دنانير تخفف عنها وقالت « لابأس عليك . . لا تخرجي من هنا . ولا نسلك لاحد انك في ضيافتنا وجوارنا . كوني مطمئنة » قالت ذلك وخرجت وظلت ميمونة وحدها . ولما صارت دنانير في الدهليز صفقت فجاء الغلام فقالت « قل للشاكري ان يذهب ولا جواب عندنا على الرسالة... »

ورجعت الى ميمونة وهي ترتجف من الغضب فوقعت ميمونة في حيرة وأخذت تندب حظها ودنانير تطمئنها وتخفف عنها . وهما في ذلك اتت عبادة وهي خالية الذهن من الامر فلما رأتهما في تلك الحال قالت « ما بالكما . . ماذا جرى ؟ »

فابتدرتها ميمونة قائلة « هلم نخرج من هذا القصر لئلا نكون سبباً في غضب الخليفة على أهله . . » قالت ذلك وهمت بالخروج

فاستغربت عبادة قولها وقالت « لماذا ؟ . .ماذا حدث في هذه الساعة ؟ »

قالت ميمونة « ان وزير السوء كتب في طلبي وزعم أن أمير المؤمنين يحب أن يسألني عن بعض الشؤون . . »

فاطرقت عبادة وفكرت هنيهة وقالت « قد علمت السبب في ذلك . ان هذا الكتاب لايمكن أن يكون من أمير المؤمنين وانما كتبه الفضل لغرض في نفسه أنا أعلمه وأظنكما تعلمانه أيضاً . والاحسن أن نخرج من هذا القصر قبل أن يتفاقم الخطب ويحدث مالا تحمد عقباه بسببنا »

فصاحت دنانير « انكما في ضيافتنا ولا تخرجان مطلقاً . . أيجسر هذا الوغد على أضياف ولى العهد . . حاشا لله أن تخرجا على هذه الصورة »

وتذكرت ميمونة سلمان وشعرت بافتقارها الى رأيه فقالت « وأين سلمان الآن . فقد زعم ان بهزاد أوصاه بنا . . »

فلما سمعت دنانير اسم سلمان هدأ روعها واسترجعت رشدها وقالت « إذا جاء سلمان شاورناه في الامر فانه خبير . ونرى ما يكون »

الفصل الخامس والاربعون

مجلس الفضل

أما سلمان فانه رجع من قصر المأمون في ذلك الصباح الى مخدعه فغير هندامه وجعل نفسه الملفان سعدون وسار حتى دخل مدينة المنصور وتوجه الى قصر باب الذهب وهو يتوكأ على عكازه ويسرح لحيته وقد تأبط كتابه ومشى يلتمس المنزل الذي أعد له في أثناء اقامته هناك بأمر الامين . فدخل حجرته وتظاهر باستغراقه في المطالعة والاهتمام بكشف أمر أهمه . ظل في ذلك الى العصر وهو يتوقع من يأتيه في استفتاء أو استطلاع لعلمه ان الجواسيس والعيون مبثوثة بالابواب ينقلون خبر القادمين والذاهبين الى صاحب الشرطة سراً

وهو في ذلك سمع وقع حوافر جواد يقترب من حجرته فاصاخ باذنيه فسمع الراكب يتحول ويخطو نحو بابه مسرعاً فادرك من رائحة الطيب التي فاحت انه ابن الفضل وعلم من سرعة خطوه انه جاء متلهفاً فظل جالساً حتى قرع الباب فنهض وفتح له واستقبله بفتور واستخفاف على غير عادته فتهيب ابن الفضل من رؤيته لما سبق الى ذهنه من اقتداره على استطلاع الغيب فحياه وهو يبتسم وقال « كيف حال الملفان سعدون اليوم ؟ »

فاجابه بالاشارة أن يدخل ويجلس وظل ساكتاً

فابتدره ابن الفضل قائلا « ما بالك يا ملفان ؟ مالي أراك غاضباً »

قال « تفضل يا ابن الوزير واجلس . . من انا وما هو غضبي ولكني رأيت أهل هذا الجيل لا يليق بهم غير الخداع والكذب » قال ذلك وأشار الى ابن الفضل أن يجلس

فقال ابن الفضل « لا حاجة بي الى الجلوس . اني لم آتك لامر يهمني وانما أدعوك لمقابلة والدي »

قال « اذا كان والدك يسيء الظن بي ولا يصدق قولي كما فعلت أنت فلا فائدة له من سماع كلامي »

فاستغرب ابن الفضل تعريضه به وعلم أنه يشير الى ذهابه للبحث عن ميمونة في المدائن بعد ان اكد له سعدون أنها خرجت منها ولكنه تجاهل وقال « ما هذا التعريض والتلميح وأي متى أسأت الظن بك ؟ »

قال « أظنك تحملت المشقة في الذهاب الى المدائن لانك صدقت قولي انها خرجت منها ؟ . هل وجدتها هناك ؟ »

فخجل ابن الفضل وغلب على حجته ولكنه غير الحديث وقال « سنعود الى هذا الشأن في فرصة أخرى . . والآن تفضل الى والدي فانه سيسألك عن أمر هام يتعلق بالدولة والخلافة . . »

ففهم من هذه العبارة على سذاجة قائلها ما يغنيه عن بحث طويل وقال « اني رهين اشارة الوزير . . أين هو الآن ؟ »

قال « هو في قاعة صاحب الشرطة بهذا القصر »

فمشي سعدون الى نعاله وشدها بقدميه وتأبط كتابه وقبض على عكازه وخرج في أثر ابن الفضل وهو يفكر في ماعساه أن يسمع من الاسئلة وان كان قد أدرك ان الغرض الاول السؤال عن بهزاد . استنتج ذلك من القرائن الجارية ومن قول ابن الفضل ان أباه سيسأله عن امر يتعلق بالدولة . ولكنه كان يهاب الفضل ويخاف فراسته ودهاءه ولا سيما بعد ان رآه مطلعاً على خبر بهزاد ومجيئه الى بغداد وأمر بالقبض عليه ففشل . فسار سعدون في أثر ابن الفضل وهو مطرق يتمتم ولم يكن يخاف ابن ماهان صاحب الشرطة لعلمه بضعفه واغتراره بنفسه

وبعد هنيهة وصلا الى مجلس صاحب الشرطة فدخل ابن الفضل بلا استئذان وظل الملفان سعدون واقفا . فلما وصل ابن الفضل الى القاعة ناداه فدخل فرأى الفضل متكئاً في صدر القاعة على وسادة كبيرة وقد اقطب حاجبيه وظهر الاهتمام في وجهه وبيده مذبة يذب بها عن وجهه وكتفيه ولا هوام هناك وانما كان يتشاغل بذلك لما تزاحم في خاطره من المشاغل الهامة وابن ماهان جالس بجانبه على وسادة وقد أرسل لحيته على عرض صدره وبالغ في صبغها بالحناء فجاءت شديدة الحمرة ومع طعنه في السن مازال ينكر على نفسه عدد سني عمره ويغالب الشيخوخة فقعد مقعنساً وفي وسعه أن يتكيء بين يدي الفضل على غير كلفة وانما خاف أن يعد ذلك منه عجزاً وهرماً

فلما دخل ابن الفضل لم يتحرك أبوه من متكئه وانما وجه بصره الى سعدون وقال « هذا هو الملفان سعدون ! أظنني رأيته بالامس هنا ؟ »

فقال نعم « يا أبتي . . وهو رئيس المنجمين في دار مولانا الامين »

فاشار اليه أن يقعد وهو مطرق يتظاهر بالسذاجة وقلبه يخفق تهيباً من الفضل بعد تلك المقابلة الباردة (ويكاد المريب يقول خذوني) على انه تمالك وهدأ روعه وتشاغل بتسوية المنديل الحريري حول كتابه المعهود . ولم يمهله الفضل أن جلس حتى سأله « ألعلك رئيس المنجمين ؟ »

قال « هكذا يقولون يامولاي ولكني لا أستحق هذا اللقب »

قال « يظهر انك أهل لأكثر من ذلك لما بلغني من أخي صاحب الشرطة

وابني هذا عن مقدرتك العجيبة على استطلاع المخبآت . . »

قال « اذا ظهر ما يعجب فالفضل فيه لهذا الكتاب ولما تلقيته من القواعد الحقة التي يستعان بها في كشف الغوامض . فانا أقول مايظهر لي أو يلقى الي وقد أتلو العبارة وأنا لا أفهم معناها »

فالتفت الفضل الى ابن ماهان كانه يستطلع رأيه في ذلك فاجابه هذا باشارة حاجبيه وجبينه مصدقاً لما قيل كل التصديق . فابتسم الفضل ابتسامة تشف عن ارتياب وقال « أنا أجربه وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان . هل أنت مجيب لما اسألك عنه ؟ »

فرفع الملفان رأسه نحو الفضل وبصره متجه الى الذبة يتحرك بحركتها كانه يظهر التهيب من النظر الى وجهه وقال « اسأل ماتريد وانما العلم عند الله فاذا فتح على بشيء قلته والا اعترفت بعجزي فلا حياء ولا خوف . . تلك عادتي وذلك هو شأني . . »

فلما قال ذلك عقب ابن ماهان وابن الفضل على قوله معاً « تمام » لأنهما خبرا ذلك فيه

فاعتدل الفضل بمقعده وقال « انى أسالك عن أمر هام يتعلق بالخلافة فاصدقني خبره كما تراه . . . ولاتظنني أسألك عن أمر أجهله ولكنني أختبر معرفتك . . »

فابتسم الملفان ابتسام الاستعطاف وقال « اذا كنت في ريب من صدقي فالاولى اطلاق سبيلي فاني . . »

فقطع الفضل قوله قائلا « لا . . لا أطلق سبيلك قبل أن أختبر صدقك أو خداعك . . فاذا كنت من أهل العلم الصحيح قل لي عما أضمره »

فلما سمع سعدون جفاء عبارته خافه فعمد الى الملاينة وقال « الامر لمولاي في ذلك وله أن يطلق سراحي أو يقيدني أو يقتلني أو يفعل بي مايشاء بلا اختبار »

فاحس ابن ماهان باستياء سعدون من تلك العبارة فقال « لا يريد الوزير بك الا خيراً ولكنه تعود أن يرى في بلاط الخليفة جماعة من المنجمين الدجالين

ولما قلنا له عن عملك وفضلك أحب اختبارك . . . فقل مايبدو لك من أمر الخلافة »

الفصل السادس والاربعون

التنجيم

ففتح الكتاب وأخذ يقلب فيه ويتمتم ويطرق وهم سكوت ينتظرون مايبدو منه الى أن قال وهو يوجه خطابه الى ابن ماهان « ألم أخبرك عن أمر الخلافة قبل أن يعرف أحد بخبرها ؟ »

قال « بلى ولكن المراد أن نعرف أعداءنا وما عساه أن يكون من أمرهم »

فعاد الى التفتيش في الكتاب وهو يقرأ حتى بدا التعب في وجهه وتصبب العرق من جبينه فاستخرج من كمه قطعة بخور مضغها في فيه وأشار أن يعطوه قدحاً فيه ماء ووعاء فيه نار فأتوه بموقد صغير من النحاس كالمبخرة وضعوه بين يديه فالقى قطعة البخور في النار وتناول القدح وأخذ يتفرس في الماء تفرس الخائف من امر يطرأ عليه ثم صاح بغتة « الى المدائن . . في قصر شابور ؟ »

وكرر التفرس في الماء جيداً وهو يقول « اليس هذا قصر شابور . . ومن سكن فيه ؟ » وسكت وهو يختلس النظر الى سامعيه ليرى هل هم يضمرون بهزاد فرأى ابن ماهان يشير بالاعجاب فعلم انه أصاب ولكنه تظاهر بالتعب فالقى القدح من يده وتناول منديله واخذ يمسح العرق من جبينه وهو ساكت فقال له الفضل « وماذا جرى في ذلك القصر ؟ »

فالقى في النار بخورا وأعاد النظر في القدح وقال « انى ارى جندا وعيارين نزلوا من المراكب الى البر مسرعين . . دخلوا ذلك القصر »

فقال الفضل « ثم ماذا . . »

قال « ذهب التعب سدى يا مولاى لأنهم لم يجدوه في البيت . . »

فأبرقت اسرة الفضل ولـكنه ما زال يظهر الاهتمام وقال « بارك الله فيك قد عرفت ما في نفسي فاعلم انى أطلب الرجل الذى كان يقيم في ذلك القصر هل تعرف اسمه ؟ »

فأطرق كأنه يراجع امراً ألقى اليه ثم قال « يسمونه بهزاد الطبيب الخراسانى . . »

فلم يتمالك الفضل عن اظهار الاعجاب فقال « هو الذي اطلبه . . أين هو الآن . . ابحث لنا عن مكانه . . »

فعاد الى الـكتاب وقلبه وبخر ونظر في القدح قليلا ثم وضع القدح من يده وصفق وقال وهو يشير بيده الى خارج بغداد « هو خارج بغـداد على جواده في صحراء بعيدة وعليه لباس السفر »

فصاح الفضل « هرب . . . هرب الخراسانى اللعون . . . وهل رأيت خادمه ؟ »

فأعاد نظره إلى القدح وقال « لا أرى معه أحداً »

قال « وهل عرفت بالتنجيم شيئاً عن خادمه أو رفيقه . . »

فعلم سلمان أنه يعنيه لان الذي أطلع الفضل على خبر بهزاد ذكر رفيقه وانهما جاءا معاً لمهمة سرية من خراسان الى بغداد . سمع الفضل ذلك في خراسان فلما دخل بغداد أمر بالقبض عليهما فلم يظفر بهما . وقد علم سلمان باطلاع الفضل على خبرهما وارساله الجند للقبض عليهما وساعده ذلك على انقاذ بهزاد كما رأيت فلما سأله الفضل عن رفيق بهزاد تجاهل وقال « علمت أن له رفيقاً يسمونه سلمان . . »

قال « نعم سلمان . . أين هو الآن . .؟ »

فلما بلغ السؤال الى هذا الحد اضطربت جوارحه ولـكنه لم ير بداً من التجلد فقال وهو ينظر في القدح ثم يتلفت يمنة ويسرة « انه في بغـداد . . . وأظنه في مدينة المنصور ولـكنني أراه مستتراً وقد أقام بينه وبين المنجمين ستراً كثيفاً ربما غلبت عليه وكشفته في فرصة أخرى »

فقال الفضل « ان بقاء سلمان هذا في بغداد غنيمة كبرى تعوض عن فرار رفيقه وقد بلغني أن سلمان هذا يتزيا كل يوم بزى جديد ويتظاهر بثقافة جديدة .. »

فقال « ولهذا السبب ظهر لى بهذا المندل مستتراً ولكنه لا يخفى على الملفان سعدون ولو تمنطق بالنجوم وتعمم بالشمس وانتعل القمر . والامور مرهونة بأوقاتها »

ثم رأى أن يغتنم هذه الفرصة لنيل البغية التي يسعى اليها أعداء العباسيين فقال « وهل يظن مولاي أن فرار بهزاد خير من بقائه هنا ؟. . »

قال « ان فراره منجاة له من أيدينا وكأنك ترى غير ذلك ؟ »

ففتح الكتاب وقلب صفحتين وقرأ ثم قال لكنه ذاهب لنصرة رجل كبير في خراسان

فادرك الفضل أنه يعني المأمون فقال وما الفائدة من نصرته وهو بعيد

قال أرى ذلك الرجل الكبير صاحب سلطان خوله إياه أمير المؤمنين يخشى أن يحاربه به إن لم يتلاف أمره ويقص جناحيه » وقد أراد سلمان أن يحرض الفضل على خلع المأمون ليتسع الخرق بين الاخوين فتسنح الفرصة للطامعين

فادرك الفضل إشارته فالتفت الى ابن ماهان فرآه ينظر اليه مثل نظرته فتفاهما وعولا على تحريض الامين على خلع أخيه والفضل أكثرهما رغبة في ذلك لما يعلمه من حقد المأمون عليه لساعيه ضده ولكنه تجاهل وأراد تغيير الحديث فقال بورك فيك يا ملفان . . . والتفت الى ابنه وقال لقد أسأنا الى رئيس المنجمين وأسأنا الظن به وأخشى أن نكون قد فرطنا في الامر . . . »

فقال ابن الفضل « كنت واثقاً بالملفان ولكنك حملتني على الشك به حتى فعلنا ما فعلناه . . . »

ولم يكن الملفان عالماً بما فعله الفضل من مكاتبة دنانير بشأن ميمونة فنظر الى الفضل وقال « أرجو ان لايكون في ما فعلتموه ضرر »

فقال « إنما أسأت بك الظن لما رأيته من انكار المكان الذى تقيم فيه تلك الفتاة ثم علمنا من جواسيسنا أنها في قصر المأمون فكتبت الى قهرمانته أطلب ارسالها الينا فاساءت الجواب وردت الرسول خائباً فارسلنا اليها جنداً يأتون بها قهراً . . . »

فشق على سلمان ما قد يصيب الفتاة من الاذى ولكنه تجاهل وقال « لم أنكر على مولانا (وأشار الى ابن الفضل) مكانها ولكنني قلت له إنها خرجت من المدائن ولم تكن نزلت ذلك القصر بعد ولو سألني بعد نزولها لأخبرته بمكانها وكنت عازماً على أن احملها اليه بالحسنى فاستعين على ذلك بهذا الكتاب فليته لم يستعجل » قال ذلك وقد ساءه ما توسمه من الغلظة التى استخدموها في هذا السبيل . . »

فقال الفضل « ان قهرمانة القصر أساءت الأدب في رد الشاكري ولعلها لا تعلم أن تلك الفتاة مغضوب عليها وعلى كل أهلها وانما أردنا تشريفها واستبقاء حياتها لأنها وقعت من ولدي هذا موقع الاستحسان »

الفصل السابع والاربعون

مجلس الامين

وهم في ذلك جاء الحاجب وقال « إن رسول الوزير بالباب »

فقال « يدخل » والتفت الى الحضور وقال « هذا رسولنا مع الجند الى قصر المأمون لنسمع ما جاء به »

ثم دخل الغلام وهو من الشاكرية . وألقى التحية وتأدب . فقال له الفضل « ما وراءك ؟ »

قال « هل أقول ؟ »

قال « قل ... هل أتيتم بالفتاة ؟ »

قال « نعم ولكنها لم تأت وحدها »

قال « ومن جاء معها ؟ »

قال « جاءت معها مولاتنا أم حبيبة بنت ولي العهد »

فاجفل الفضل وقال « أعوذ بالله وكيف أتيتم بها ومن قال لكم ذلك ؟ »

قال « لم يقل أحد ولا نحن رضينا بمجيئها ولكنها جاءت رغم ارادتنا فتعلقت بالفتاة وتمسكت باثوابها وقالت ان تأخذوها فخذوني معها »

قال « إنا لله وإنا اليه راجعون .. ألم يكن في وسعكم اجتناب مجيئها . »

قال « كلا يا مولاي لأنها تعلقت بالفتاة ولم تبال باقوالنا وتهديدنا حتى حدثتنا أنفسنا ان نرجع خائبين فأتينا بالاثنتين ومعهما القهرمانة دنانير »

قال « ودنانير أيضاً . »

قال « نعم ياسيدى وعرضت نفسها للقتل وقالت انها تفضل الموت على تسليم ضيفتها فأتينا بالثلاث معاً »

قال « وأين هن الآن ؟ »

قال « هنا في دار النساء وأم حبيبة تطلب مقابلة عمها الخليفة »

فتغير وجه الفضل عند ذلك لدخول المسألة في مركز حرج ولكنه كان واثقاً بتسلطه على إرادة الامين ولا سيما اذا أطلعه على سر الفتاة وانها بنت جعفر الوزير وانه إنما أراد القبض عليها ليقدمها للامين يرى رأيه فيها . فنهض وهم بالخروج ثم تحول الى ابن ماهان وقال « صدق من قال إن في العجلة ندامة ولو اطعنا الملفان ما وصلنا الى هذا المشكل ولكن لا بأس » والتفت الى سعدون وأشار مودعاً وكان الملفان قد وقف فاحنى رأسه شاكراً واطمأن على ميمونة لمجيء أم حبيبة معها إذ يطلع الأمين على امرها ويحتفظ بها اكراماً لبنت أخيه وتنجو من ابن الفضل ثم خرج من المجلس وقد غابت الشمس وأضيئت الشموع الكبيرة المشهورة بشموع محمد الامين

وكان الامين ساعتئذ مختلياً بمغنيه وندمائه في مجلس غناء هو عبارة عن ايوان كبير بين قاعات القصر في وسطه بركة يتدفق فيها الماء من أنابيب بشكل رءوس الثعابين وحولها أغراس الرياحين ومقاعد الجلساء والمغنين . وقد قام الوصفاء من الخصيان بخدمته وفيهم السقاة وعليهم الالبسة الثمينة الباهرة بزي

الجوارى وقد ارسلوا شعورهم جدائل مفردة ومزدوجة وفي أيدي بعضهم الدفوف أو المزاهر أو العيدان يدقون ويغنون . غير الجوارى الحسان بالبسة الغلمان مما أهـدته اليه والدته زبيدة أم جعفر . وكان الامين يغالى في اقتناء الخصيان من أقاصي البلاد وينفق في استجلابهم الاموال حتى صيرهم لخلويه ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه (١)

وكان في ذلك المساء بلباس المنادمة وهوغلالة صفراء مصقولة صقلا شديداً وعلى رأسه عمامة خفيفة وقد جلس على سرير من الآبنوس المنزل بالعاج وبين يديه مائدة عليها أنواع الاطعمة والاشربة والرياحين وقد فاحت رائحة المسك وغيره من الاطياب حتى ملأت الفضاء

وبينما هو في مجلسه هذا أنبأه الحاجب « ان ابنة ولى العهدبالباب » فبغت وظن مخبره واهماً فاستفهمه قائلا « ابنة اخي . »

قال « نعم يا مولاى »

فتحير في أمره ولم يدر بماذا يجيب إذ يعز عليه أن تقابله ابنة أخيه وهو في مجلس الشراب على تلك الصورة : ولم يكن سلطانه وقوة بطشه ليمنعا خجله من فتاة صغيرة يسترضيها الناس بتفاحة أو لعبة ـ لأن سلطان الأدب والحشمة أغلب على النفس من سلطان السياسة والشدة ولذلك كان الادب قوة ولأديب النفس هيبة يجلها العقلاء وغير العقلاء وصاحب الرذيلة مهما عظم سلطانه وان استغرق في المنكرات لا يزال في ضميره بقية من احترام الفضيلة وأهلها .ألا ترى أرباب المعاصي وان تساهلوا فيارتكابها يستنكفون من أن ينتسبوا اليها أو يقال انهم من أهلها فهم اذلاء وان عزوا ويغلب عليهم الجبن في موقف الانسانيةوان كانوا أبطالا في مواقف القتال أو على سدة الملك . ان مرتكب المعصية محكوم عليه بالمذلة والضعة من عند نفسه لاعتقاده أنه يخالف السنن الادبية فضلا عن الدينية وقد يكون سيداً مطلقاً لا سلطان عليه ولا يخشى حكماً ولا قصاصاً وربما كان معطلا لا يخاف عقاباً ولا يرجو ثواباً ولـكنه يخاف شيئاً لا صورة له في الوجود ـ يخاف « ما قيل عنه وما يقال » وقد لا يضره ذلك ولا ينفعه

(١) راجع رواية العباسة أخت الرشيد صفحة ٦٢

ولكنه فطر على التماس حسن الاحدوثة وهي « الشهرة ولولاها لكان الناس كالبهائم يأكلون وينامون — إلا من عصمهم دينهم وهم قليلون

فهذا الامين مع تهتكه وسكره وعلمه بمخالفة ذلك للشرع والعرف وكم نصحه الناس ولم يرعو فانه خجل أن يقابل ابنة أخيه وهي فتاة صغيرة حرصاً على كرامته . وماذلك إلا لعلمه بطهارة قلبها وصفاء سريرتها — وللجنس اللطيف هيبة في مثل هذا المقام

فلما أنبيء باستئذانها عليه تردد بالاذن لها في الدخول وأكبر من الجهة الثانية أن يظهر خجله من مجلسه هذا وينهض لمقابلتها في غرفة أخرى وهو الخليفة صاحب السلطان الاكبر مالك رقاب العباد . ولا هو يستطيع من الجهة الثالثة ردها ولا عذر له في ذلك فغلب عليه اجابة طلبها فقال « تدخل ابنة أخينا »

الفصل الثامن والاربعون

زينب ودنانير

وكان القدح بيده فوضعه على المائدة وتردى بالحشمة على قدر ما يستطيع الجالس هذا المجلس . فلما رأى جلاسه ذلك جنحوا الى التهيب وتولاهم السكوت وألقوا أدوات الشراب من أيديهم وأشار الامين الى الغلمان والجواري فتباعدوا واستولت الحشمة على تلك الجلسة وأصبح القوم سكوتاً كأن على رءوسهم الطير

فدخلت زينب وعليها مطرف من خز قد التفت به وخمار مزركش يكسو رأسها إلا بعض وجهها وقد اشرق ذلك الوجه حياة وتجلت فيه الطهارة وسلامة القلب . وفي طهارة الاطفال رونق للناظر وهيبة للمتأمل وعظة للعاقل — فيستدل علماء الاخلاق من ذلك على ما فطر عليه الانسان من الميل الى الخير وأنه انما يساق الى الشر بما يعرض له من أسباب المطامع أو يمارسه

من اختلاف المشارب . وإذا أتى شراً انما يأتيه في الدفاع عن نفسه أو ماله ـ وقد يظهر أنه مهاجم متعد ولو فحصت ضميره واستطلعت خبايا قلبه لرأيت أساس ذلك التهجم الدفاع عن نفسه

فالاطفال مثال الفطرة البشرية الساذجة لا يعرفون الكذب أو التملق أو الخداع . يقولون ما يعتقدون لا يخافون ولا يحاذرون ولاسيما اذا ربوا كما ربيت زينب على أيدي دنانير وقد تثقفت واستنار عقلها على قدر ما يسمح به سنها وتعودت أن لا ترد ارادتها فلما رأت الجند يخالفونها في استبقاء ميمونة شق عليهما اباؤم وأكبرته ولما زجرت ارادتها بكت وجاءت معهم كما تقدم فدخلت في تلك الساعة على عمها وقد أبرقت عيناها وفيهما أثر البكاء

فلما رآها الامين لم يتمالك أن بش لها ونهض لاستقبالها فلم يبق أحد من الحضور الا وقف تهيباً ولم يروا بداً من تخلية المكان لينفرد الخليفة بابنة أخيه فخرجوا وغادروا المائدة وأباريقها وأقداحها وزهورها ورياحينها وقد تبعثرت قطع الفاكهة واقداح الشراب ومنثور الازهار وقد اضاءت مناثر الشمع في جوانب الايوان وود الامين لو تنطفىء لتخفى تهتكه

فلما دنت زينب من عمها ترامت على ذراعيه وقد غلب عليها البكاء فضمها الى صدره وقبلها وهو يقول « لا بأس عليك يا ابنة أخي ماذا اصابك »

أما هي فما لبثت أن شمت رائحة الخمر فى فيه حتى نظرت الى ما حولها نظر الاستغراب فاراد أن يلهيها عن الاستفهام فقال « ما بالك ياحبيبة ماذا تريدين ؟ لماذا لم تدخلى دار النساء ؟ »

فقالت « قد كنت هناك وأحببت أن أراك ولم أكن أعلم أنك على المائدة »

فسره أنها تحسبه مشغولا بالطعام فقال « ألك حاجة نقضيها لك ؟ »

قالت « نعم لى حاجة ... » والتفتت نحو الباب وقالت « نعم لى حاجة .. أين دنانير ؟ . . هي تقص عليك خبري »

فتجلد الامين وهو يحسب لهذا المجيء الف حساب لما يعلمه من اساءته الى أبيها ولكنه استبعد أن تطلع هي على شيء من ذلك فتجاهل وقال « هل القهرمانة معك ؟ »

قالت « نعم كانت معي في دار النساء وقد ارادت ان لا افاجئك وانت في هذا المجلس » ثم نظرت في ما على الارض من الادوات وقالت « ارى مائدتك ياعماه تختلف عن مائدتنا ألعل هذه مائدة الخلفاء » قالت ذلك بسذاجة واخلاص ولكن قولها اصاب قلب الامين لما حواه من التوبيخ الصريح عن غير عمد فقال « إنها مائدة بعض الاضياف كانوا عندنا الليلة . . . هلم بنا ندخل دار النساء » قال ذلك ولم يعد يصبر على البقاء هناك لئلا يسمع توبيخاً آخر فنهض وهو قابض بيدها وهي تتوكأ عليه حتى دخلا دار النساء الى قاعة مفروشة بالبسط والنمارق ليس فيها احد واجلسها إلى جانبه وهو مشتاق الى سماع شكواها ليطلع على جلية الخبر . ثم صفق فجاءه غلام فقال « ادعو القهرمانة دنانير »

وبعد قليل دخلت دنانير وهي مطرقة وقد غطت رأسها بالنقاب وهمت بتقبيل يده ثم وقفت متأدبة فقال « ما الذي جاء بكما يا دنانير ؟ »

قالت « يسوؤنا اننا ازعجنا امير المؤمنين وكدرنا عليه مجلسه ولكن سيدتي أم حبيبة أبت الا ان تجيء الليلة ولم استطع منعها »

فقال « وما الخبر ؟ »

قالت « ألم ترسل الينا في طلب ضيفتنا ؟ »

قال « وأي ضيفة تعنين ؟ »

قالت « ضيفتنا ميمونة »

قال « لم أفهم مرادك افصحي »

فادركت دنانير ان الفضل فعل ذلك من عند نفسه فقالت « نزلت عندنا منذ يومين فتاة غريبة اسمها ميمونة ألفتها سيدتي زينب وأحبتها فجاءني كتاب من الفضل وزيرك يطلبها باسمك فاعتذرت اني لا استطيع تسليمها لانها ضيفة ولها حق الجوار فارسل الينا جنداً ليأخذوها قسراً فلما رأت مولاتي اصرارهم على اخذها تعلقت بها وابت إلا أن تأتي معها فلم استطع التخلي عنها فجئت معها »

فاطرق الامين وقد اكبر في الفضل انتحال اسمه بغير اذنه ولكنه تجلد وقال « من هي ميمونة هذه ؟ ألعلها من موالينا ؟ »

قالت «هي فتاة يتيمة لا ملجأ لها ولا معين وقد يكون في قصر امير المؤمنين عشرات أو مئات أمثالها »

قال « وأين هي الآن ؟ »

قالت « هي في هذه الدار يا مولاي »

قال « استقدميها لأراها »

فلما خرجت دنانير كان الامين واضع يده على كتف زينب فضمها اليه تحبباً وقال « تحملت هذه المشقة من اجل هذه الجارية »

قالت « اني أحبها يا عماه . . . لانها لطيفة وحلوة ستراها الآن وقد قلت للجند ان يتركوها فابوا .. الا تريد ان تعطيني إياها ؟ »

فاستلطف الامين سذاجتها ولطف تعبيرها وقال « سأفعل ما تريدين طيبي نفساً » وبعد قليل عادت دنانير وميمونة تتبعها وهي مطأطئة رأسها تذللا وقد توردت وجنتاها وتكسرت اهداب عينيها من البكاء

فلما اقبلت عليه ترامت على قدميه وصاحت « اني جارية أمير المؤمنين »

فلما رأى الامين جمالها أعجب بها ورق لبكائها فأمرها بالنهوض وهو يقول « لا بأس عليك يابنية طالما كنت في ضيافة بنت أخينا ولك هذه المنزلة عندها . . قومي » والتفت الى دنانير وقال « خذيها الى دار النساء وامكثوا الليلة عندنا ريثما أنظر في أمرها . . وانت يا زينب ضيفة علينا الليلة كوني مطمئنة اننا لا نرد لك طلباً »

فاستأنست الفتاة بعمها وهي في معزل عن أحوال السياسة لا تعلم شيئاً مما جرى بعد وفاة جدها بين ابنيه ولما رأت عمها يضمها ويبش لها تذكرت والدها فقالت « ومتى يأتي والدي يا عماه »

فلما سمع سؤالها انقبضت نفسه وقال « قريباً ان شاء الله » ولم يزد

وكانها شعرت برغبته عن التوسع في هذا الموضوع وأمسكت ونظرت في الارض وهي لاتستطيع التعبير عن شعورها — وهو شأن النساء في احكامهن فانها مبنية على الاحساس بقطع النظر عن الحكم العقلي فان المرأة اذا سألتها عن عمل انت عازم على الشروع به هل هي تتوسم فيه النجاح أو تخاف الفشل

أجابتك عن رأيها واذا طالبتها بالدليل على صحته قالت لاأستطيع برهانا ولكنني أشعر بذلك شعوراً داخلياً . ويغلب أن تصدق المرأة فى شعورها كما يصدق الرجل بعقله على تفاوت في شعور النساء وعقول الرجال . فكما تتفاوت عقول الرجال قوة في الاستنتاج واستخراج الاحكام وتمييز الصحيح من الفاسد فكذلك يمتاز النساء في قوة هذا الشعور باختلاف ما فطرن عليه من دقة الاحساس وسلامة الذوق . ولا يكون هذا الشعور مستقلا عن العقل ولكنه يغلب في المرأة كما يغلب العقل في الرجل — والرجل اذا جرد من ذلك الشعور كان ضربة على الانسانية لان الانسان يعامل عملاءه بالعقل ويعاشر أصدقاءه وأهله بالاحساس . ويتفاوت الاحساس في الناس فمن قل احساسه ساءت عشرته واستثقل الناس روحه وان كان رجيح العقل قوي الارادة . ولذلك رأيت جماعة من الاذكياء المجتهدين يستثقل الناس دمهم ويتجنبون معاشرتهم . ويكون ذلك عثرة في سبيل نجاحهم لأن الانسان يحتاج في اكتساب ثقة الناس الى شعور حي يجتذب به قلوبهم بحسن العشرة ووضع الشيء موضعه

وكانت زينب على صغر سنها كبيرة العقل دقيقة الشعور فالما سمعت جواب عمها مع خلوه من الدلائل على ما فى خاطره شعرت بانقباض نفسها عن الخوض في هذا الشأن ولوسئلت وكانت مدركة ما استطاعت تعليل انقباضها

أما هو فأسرع الى قطع الحديث وصفق فجاءه الغلام فقال « ادع لنا قيمة الجوارى »

فلما اتت قال لها « خذى ابنة أخينا الى قصرنا واكرمى مثواها واحتفظي بالجارية ميمونة وعامليها مثل سائر جوارينا » والتفت الى زينب وقال « أظنك تحتاجين الى الراحة والطعام فكوني مطمئنة لا يكون الا ما تريدين » وربت على كتفها ووقف فوقفت واصطحبت القهرمانة إلى دار النساء

أما الامين فلما خلا بنفسه عاد الى التفكير في ما سمعه عن الفضل وكتابه الى بيت أخيه بشأن هذه الفتاة وأحب ان يستقدمه ليساله عن حقيقة الخبر

فاعترض ذهنه ماكان فيه من الانس قبل مجيء زينب فعاد الى مجلسه ولم يكد يستقر فيه حتى تسرب اهله من كل صوب وعادوا الى الغناء والشرب والمنادمة وعاد الغلمان والجواري الى ماكانوا فيه

أما الفضل فقد تركناه خارجا من مجلسه وهو يستعيذ بالله مما آل اليه تسرعه في طلب ميمونة وأخذ يهيء الاعذار للدفاع عن نفسه وهي كثيرة بما له من النفوذ والدالة على الامين وهو الذى أحله هذا المحل وأيده في الخلافة ولبث ينتظر أن يدعوه الامين ويسأله

أما سعدون أو سلمان فانه مع تأسفه على وقوع ميمونة في قبضة الخليفة قد سره اغراء الفضل وابن ماهان على توسيع الخرق بين الامين وأخيه لان أصحاب المطامع السياسية لايفهمون لغة القلوب ولا يبالون بحركاتها وانما يهمهم الوصول الى الغرض الذي يسعون نحوه واذا اعترضهم رأس أو قلب داسوه . على ان سلمان يعرف منزلة الفتاة من بهزاد وقد أوصاه بها خيراً فأصبح يهمه التخفيف عنها والمحافظة على سلامتها حتى يرى ما تأتي به التقادير

الفصل التاسع والاربعون

الامين والفضل

وفي صباح اليوم التالي بعث الامين الى الفضل فجاءه في دار الخاصة فاجلسه الى جانبه وتلطف في الاستفهام عن أمر الفتاة فقال « لعل امير المؤمنين يستغرب جسارتى بطلب هذه الفتاة باسمه من بيت أخيه ولم أفعل ذلك الا اضطراراً وفي خدمة مصلحة الدولة . هل عرف أمير المؤمنين من هي هذه الفتاة ؟ »

قال « كلا »

قال « لو تأملها لرأى صورة أبيها فيها . . . انها بنت جعفر الوزير السابق قتيل أمير المؤمنين الرشيد جزاء خيانته . . »

فبغت الامين ونظر الى الفضل باستغراب وقال «ابنة جعفر بن يحيى ؟.. أظنك واهما »

قال « كلا يامولاى ولو سألتها ما أنكرت ذلك وقد علمت بنزولها بيت مولانا المأمون في صباح الامس فكتبت الى قهرمانة القصر ان أمير المؤمنين يريد ان يراها فارسليها فاجابت الشاكري جواباً قبيحاً . فصيانة لاسم أمير المؤمنين شددت في طلبها قهراً ولم أكن أحسب العلائق وطيدة بهذا المقدار بين طرائد امير المؤمنين وبيت أخيه .. . وكان يجب ان يكون أهل ذلك البيت عوناً لنا في القبض على أمثال هؤلاء . نعم انها فتاة لاخوف منها ولكننا نقدر ان نستفهمها وهناك أسباب للظن . . لأني » وسكت وهو يبلع ريقه ويظهر انه يكتم شيئاً يخشى ابداءه فابتدره الامين قائلا « قل ما بدا لك »

قال « ان أمير المؤمنين أعلم مني بهذه الاحوال ولا أحب أن ادخل بينه وبين أخيه ولكنني لاأستطيع السكوت عما يأول الى مصلحة الدولة وصيانة حقوق المسلمين . ما معنى اقامة بنت جعفر الذى قتله الرشيد انتقاماً لتداخله في أمر الخلافة بين ولديه وهو الذي أطمع المأمون بولاية العهد بعد ان كانت لامير المؤمنين وحده فاصبح لاترضيه ولاية العهد وربما طمع بالخلافة كلها .. »

فلما سمع الأمين تعريضه بالخلافة أجفل وحملق عينيه في الفضل فازدادتا صغراً وغوراً ولولم يكن الفضل قد تعوده لتهيب من منظره لأنه كان شديد الهيبة قوي البدن يلقى الأسد ولا يبالي به . فاستدرك الفضل قائلا « لا أعني ان مولانا المأمون يطلب الخلافة لنفسه ولكنني أخاف اذا طال حلم أمير المؤمنين أن يغريه بعض خاصته الفارسيين بطلبها التماساً للكسب من وراء ذلك »

فانصرف فكر الامين عن ميمونة إلى الخلافة وأخيه وانما جره الفضل الى ذلك عمداً ليشغله عن لومه في طلبها باسمه وليتدرج الى اغرائه على خلع المأمون لانه يخاف على نفسه وهو على يقين أن المأمون حالما تفضى الخلافة اليه اذا كان الفضل حياً انتقم منه أو انتقم من أهله وربما نكل بهم تنكيلا ولا نجاة له من ذلك الا بخلعه عن خراسان إذ يتفرق رجاله عنه ويضعف أمره

فقال الامين « ان هؤلاء الفارسيين هم أصل بلائنا وما زالوا من زمن ابي

مسلم وهم يناوئوننا ويمنوننا لاعتقادهم انهم ساعدونا على نيل الخلافة مع انهم لم ينالوا شيئاً الا باسمنا كما تعلم . . . وهم الآن يغرون أخي على التماسها لنفسه وانا حي ؟ »

قال « اذا كان امير المؤمنين لا يصدقني فهذا رئيس المنجمين اسأله عن الرجل الخراساني الذي تقدمت اليك بالقبض عليه يوم وصولي ولم اذكر لك سبب ذلك . . . ان هذا الرجل رسول من حزب الخراسانيين انصار المأمون أرسلوه لدس الدسائس علينا — انبأني بذلك جاسوس وأنا في طوس وذكر لي مقر الرجال فلما وصلت بغداد ارسلت في القبض عليه فلم يجدوه في منزله ثم لقيت الملفان سعدون رئيس المنجمين بالامس واستطلعته ما يعلمه وكان صاحب الشرطة حاضراً فعرف الرجل وقال انه هرب من بغداد الى أحزابه الطالبين للسلطة وارجاعها الى الفرس ولا ريب انهم يستخدمون لذلك اسم مولانا المأمون لانهم بدون دم قرشي لا يملكون واذا ملكوا لا اظنهم يستبقون أحدا ولا المأمون نفسه . . . لاتغضب اذا قلت مايخطر لي خدمة لمصلحة الدولة ومع ذلك فهذا الملفان حي ومولاي ابن ماهان صاحب الشرطة موضع ثقتك استشره والرأي في كل حال لأمير المؤمنين . . . »

وكان الفضل يقول ذلك باهتمام ويتظاهر بالغيرة على الدولة والأمين يصغي وقد همه الأمر فامسك عن التصريح برأيه حتى يشاور ابن ماهان وعاد الى الكلام عن ميمونة فقال له «سننظر في ذلك وأما ميمونة التي تقول انها بنت جعفر البرمكي فانها في قصرنا بين جوارينا ولا أري ان نسيئها أو نسيء احداً بسببها الا اذا ظهر لنا مايوجب ذلك انما اردت التلطف بها لان ابنة اخي كلمتني بشأنها »

فقال الفضل « الرأي لأمير المؤمنين » وهو لم يهمه امر الفتاة بقدر اهتمامه بخلع المأمون وان كان ابنه يفضل الحصول على ميمونة ولو ضاعت الدولة كلها لأنه شاب ربي في الرخاء ولم يعان السياسة وقضى مامر من عمره متكلا على ابيه وقد علق بميمونة وهو حسن القصد لا يريد بها الاخيراً وهي لولا ماسبق من حبها بهزاد وحقدها على الفضل لما كان ثمة ما يمنعها من قبوله

ورأى الفضل ان الأمين يريد فض الجلسة فنهض وخرج وظل الأمين وحده يفكر بما وعد به ابنة اخيه من اطلاق سراح ميمونة ويرى في اطلاقها من الجهة الأخرى خطرا خوفه الفضل منه فوقع في حيرة واخيرا نهض وسار الى دار النساء وسأل عن مقر بنت اخيه فدلوه عليه

وكانت ميمونة قد شعرت منذ دخلت قصر الخلافة بانقباض شديد وقام بنفسها انها اضاعت آمالها لعلمها بما ينويه حبيبها من نكاية الأمين ومع ماحاولته دنانير من التخفيف عنها لم تجف لها دمعة منذ دخلت ذلك القصر وكانت زينب تزداد شفقة عليها ورغبة في انقاذها وقد طمأنتها ان عمها وعدها باطلاق سراحها . فباتوا تلك الليلة وميمونة يئست من الرجوع لعلمها ان الفضل لايسكت عن كشف حقيقة امرها للأمين حتى ينجو من اللوم

فاصبحت في اليوم التالى وقد جاءتها دنانير وزينب ودار الحديث بينهن ومداره التخفيف عن ميمونة وهي منقبضة النفس لا يفرج كربتها غير البكاء ولا سيما إذ تصورت نفسها منفردة هناك وجدتها ليست معها ولا هي تعرف أين هو سلمان . فمكثت صامتة ودموعها تتساقط على خديها بلا بكاء وقد ظهر عليها الذل والانكسار . وكلما زادت انكسارا زادت زينب انعطافاً نحوها ولكنها كانت واثقة بوعد عمها . وبينما هن في ذلك سمعن حركة وهرجاً في خدم القصر ثم جاءت بعض الجواري تقول ان امير المؤمنين قادم الى ابنة أخيه

فنهضت زينب للقائه بالباب ووقفت دنانير وميمونة موقف الاحترام . . اما هو فدخل وقعد على وسادة هناك واجلس زينب الى جانبه وقال لها « العلك في شوق الى قصرك يازينب ؟ »

قالت « كما يشاء امير المؤمنين »

فاستحسن تأدبها على صغر سنها وقال « اذهبي مع حاضنتك بامان وقد امرت القهرمانة باعداد هودج يحملكما الى دجلة ثم تركبان الحراقة الى القصر »

فنظرت اليه زينب نظر المدل الطامع وقالت « وميمونة ؟ »

فقال وهو يضاحكها « تبقى في ضيافتنا يوماً أو يومين ثم نبعث بها اليكم معززة مكرمة »

قالت « لا . . . انت قلت انك ترسلها معي »

قال « قلت لك وقد رأيت الآن ان تبقى عندنا ضيفة كما كانت عندك . وهل هي ترفض الضيافة في قصر الخلافة ياحبيبة ؟ »

فشعرت الفتاة باصراره رغم تلطفه في الجواب ورفعت بصرها الى دنانير كانها تستغيث بها فنظر الامين الى دنانير وقال « قولي لمولاتك ان ميمونة ستبقى عندنا ضيفة ثم نرسلها . . »

فعلمت دنانير انه مصر على استبقائها عنده وادركت سبب استبقائها لأنها تنسمت من اخبار القصر انه اختلى في ذلك الصباح بالفضل . فوقعت في حيرة ولكنها أجابت « ان أمير المؤمنين لايرد أمره وبقاء جاريته في قصره شرف لها وتفضل منه . . »

فلما تحققت ميمونة انها باقية لامحالة ظلت ساكتة والدمع ينحدر على خديها فوقع نظر الامين عليها فرق لها وكاد يامر باطلاق سبيلها ولكنه تذكر كلام الفضل فأمسك نفسه ونهض وهو يقول لزينب « بحراسة الله يا ابنة أخي . . احتفظي بها يادنانير » والتفت الى ميمونة وقال « لا بأس عليك يابنية » وخرج وأمر قيمة الدار أن تعد ما يلزم لنقل زينب وحاضنتها الى قصر المأمون . فارادت زينب أن تتعلق بميمونة وتمنع عن الذهاب فامسكتها دنانير وأفهمتها بالتعقل ان أمر الخليفة لايرد لئلا يغضب وان ميمونة لابأس عليها فلما خلت ميمونة بزينب ودنانير بعد خروج الامين اطلقت لنفسها عنان البكاء حتى كاد يغمى عليها فاخذت دنانير تهون عليها ووعدتها ان تخبر سلمان بخبرها وهو يسعى في انقاذها وانها ستوسط سواه عند الاقتضاء فلم يكن ذلك ليخفف ما بها . ولما تحققت بقاءها أسرت الى دنانير ان تبذل جهدها في تسلية جدتها المسكينة فانها تركت الدنيا من اجلها فوعدتها بذلك وخرجت وقلبها يتقطع حزنا عليها ولما ودعت قهرمانة بيت الامين اوصتها بها خيراً فوعدتها بذلك

الفصل الخمسون

عبادة وزبيدة

ولما وصلت دنانير الى قصر المأمون رأت عبادة في انتظارها على المساة وكانت قد عاينت ما اصاب حفيدتها من القسوة والاهانة في أخذها الى الامين وحدثتها نفسها ان تصحبها الى هناك لكنها خافت أن يكون ذهابها سبباً لزيادة النقمة عليها وأشارت عليها دنانير بالبقاء في القصر ريثما تعود ووعدتها بارجاع ميمونة معها . فقضت بقية ذلك اليوم وطول ليله ساهرة وقد أخذ القلق منها مأخذاً عظيما وأصبحت في اليوم التالي وهي جالسة على المساة ترقب السفن النازلة حتى رأت حراقة عرفت من شكلها انها من سفن الامين . فلما وصلت ولم تر ميمونة فيها صاحت « اين ميمونة . . ؟ »

فأخذتها دنانير بيدها وقصت عليها الخبر باختصار ووعدتها بقرب رجوعها فقالت « لا . . لن ترجع ان الامين اذا عرف من هي أوقع الاذى بها ويلي لماذا لم اذهب معها فيصيبني ما يصيبها . . لقد اضعت تعبي في خدمتها » وجعلت تندب سوء حظها وتبكي بكاء الثكلى

فاخذت دنانير تهون عليها عبثاً وبعد هنيهة سكن روعها ففكرت في ما تستطيعه في سبيل انقاذ حفيدتها فوقعت يدها على حق الزمرد في جيبها فخطر لها أن تستخدمه في هذا السبيل . وكان الناس يتحدثون منذ أيام بمجيء زبيدة أم جعفر والدة الامين من الرقة ومعها خزائن الرشيد فقالت في نفسها « لعلي اذا سرت اليها واستعطفتها باسم زوجها استحث عاطفتها بما في هذا الحق من آثار الرشيد فتتوسط عند ابنها بالافراج عن حفيدتي . ولما خطر لها ذلك شعرت براحة وطمأنينة واستشارت دنانير في الامر فاستحسنت رأيها وقالت « لم يبق لنا باب نطرقه غير هذا ولعل هذه

المرأة اذا رأت آثار زوجها وسمعت ما أصابك من البلاء تنسى حقدها . سيري على بركة الله »

فخرجت عبادة في ظهر ذلك اليوم تطلب دار القرار قصر زبيدة وقد كان ذلك الذهاب صعباً عليها ولكنها استهانت كل صعب في سبيل انقاذ ميمونة

سارت من قصر المأمون في حراقة حتى نزلت الشاطىء بقرب دار القرار ومشت من هناك بثوبها الاسود وهي تتوكأ على عكازها وقد بدا الانكسار في محياها فضلا عن الشيخوخة والانكسار يبدو في الشيوخ مضاعفاً

وصلت باب القصر نحو الاصيل فرأت عنده جماعة من الشاكرية وقوفاً باسلحتهم فوقفت وحيتهم فلم ينتبه اليها أحد وظنوها من ابناء السبيل فتقدمت الى احدهم وقالت « ألعل مولاتنا ام جعفر في القصر ؟ »

فاجابها الرجل « هي هنا وماذا تريدين منها ؟ »

قالت « اريد ان أراها واتبرك بلثم ثوبها »

قال « لا تقابل أحداً الآن واذا كنت تلتمسين احساناً فليس اليوم موعده »

قالت « كلا ياولدي لا أريد شيئاً من ذلك ولكن لدي حديثاً أريد أن اقصه عليها »

قال « وما هو حديثك يا خالة ؟ »

قالت « انه حديث خاص بها ادخلني عليها اذا شئت »

فاستخف الرجل بقولها والتفت الى رفقائه وكانوا وقوفا يسمعون ما دار بينهما فتقدم شاكري آخر وقال « اتريدين مقابلة مولاتنا أم الخليفة نفسها ؟ »

قالت « نعم أطلب مقابلة ام الخليفة السيدة زبيدة . . اتقدم اليك أن تستأذن لى في ذلك ولا تماطلني فقد تعبت من الطريق ولا صبر لى على الوقوف . . »

قال « اراك مسكينة وسأطلب لك احساناً من قيمة القصر واكفيك مؤونة الدخول على مولاتنا أم جعفر لانها يندر ان تقابل أحداً »

فاثر ذلك القول في نفسها وتذكرت سابق أيامها وكيف أصبح حالها لا يدل على غير الاستجداء فقالت وهي تكاد تشرق بدموعها «لاأطلب احساناً يابني ولكن لدي أمراً يهم مولاتنا أم جعفر أريد عرضه عليها فاستأذن لى ولك الفضل »

فلما رأى الشاكرى بكاءها رق لها ودخل للاستئذان وظلت هي بالباب وقد تعبت فقعدت على حجر . وبعد هنيهة عاد الشاكرى وهو يقول « سألتني عن اسمك »

فتحيرت بماذا تجيب وفكرت قليلا ثم قالت « قل لها اسمى أم الرشيد »

فأجفل الجميع واخذوا يتفرسون بها وهم لايعرفونها واستغربوا هذا الاسم فقال احدهم « اسمك أم الرشيد ؟ وأى رشيد تعنين ؟ »

قالت « ألم تسألك عن اسمي فقل لها ان ام الرشيد بالباب تلتمس مقابلتك»

فعاد الشاكرى ومكثت هي بانتظاره وقد سرها تقدمها الى زبيدة بهذا الاسم لعله يكون فألا حسنا لهذه المقابلة . وما عتم الشاكري أن عاد وهو يقول « تفضلى يا خالة ادخلى »

فدخلت في اثر الشاكري وهي تتوكأ على عكازها حتى تجاوزت الحديقة الى باب القصر ونزعت نعالها ودخلت في الدهليز فانتهت منه الى غرف يستطرق بعضها الى بعض والجواري المقدودات يخطرن بين يديها وهن ينظرن اليها ويعجبن من حالها . أما هى فكانت تمشى مطرقة حتى افضى بها المسير الى قاعة كبيرة فاحت منها رائحة الطيب . فلما اطلت على القاعة رأت سقفها قبة مصنوعة من خشب الصندل ومكسوة بالوشي والسمور وانواع الحرير بالوانه الزاهية يتدلى على جدرانها ستائر مطرزة بابيات من الشعر ومعلقة بكلاليب من الذهب وفي ارض الغرفة بساط واحد من السجاد الثمين وعليه الوسائد والكراسى مما يبهر النظر (١) ولكنه لم يبهر عبادة لانها تعودت نحو ذلك في قصر ابنها

(١) راجع العباسة اخت الرشيد صفحة ٩٤

أيام نعيمها واقبال سعدها وانما كان همها في ذلك اليوم ان تنال رضى زبيدة في انفاذ حفيدتها

الفصل الحادي والخمسون

التقاء العين بالعين

فلما وصلت الباب رأت زبيدة في صدر القاعة متكئة على وسادة من الحرير الموشى فوق سرير من الابنوس المرصع . فتركت عصاها خارجاً والقت التحية باحترام ونظرت الى زبيدة ووقفت تنتظر امرها بالدخول أو الجلوس وكانت زبيدة بثوب سماوى اللون يأخذ بالابصار وقد تعصبت بعصابة مرصعة بشكل الطاوس من الحجارة الكريمة على غير عادتها كأنها فعلت ذلك عنوة في تلك الساعة . ظلت عبادة واقفة وزبيدة متشاغلة بجام من العاج فيه فتات المسك وقد تساقط بعضه فأخذت بالتقاطه عن الوسادة فظنت عبادة انها لم تنتبه لها فتنحنحت فرفعت زبيدة بصرها اليها باستخفاف وقالت « من هذا ؟ »

فاستأنست بذلك السؤال ومشت نحوها وهي تقول «انى جاريتك عبادة» ولما وصلت الى وسط القاعة نظرت اليها زبيدة شزراً وقلبت شفتها السفلى ورفعت حاجبيها اشارة الاستهجان وقالت « عبادة . . ؟ وقد قيل لى ان أم الرشيد تطلب الدخول علي . . »

قالت « هى جاريتك يامولاتى .. انظري في وجهي فعسى ان شحوبه لا ينسيك صاحبته »

فضحكت زبيدة وقالت « عرفتك . .. يا عبادة ألا تزالين حية بعد ؟ »

فاستغلظت عبادة هذا السؤال الدال على الاحتقار ولكنها كظمت وقالت « بلى لا أزال حية لسوء حظي »

فقهقهت زبيدة وقالت «ذلك جزاء نكران الجميل يا عبادة . . . اجلسي »

فجلست وهي ترتعد من الغيظ وندمت على مجيئها ولكنها تذكرت ضيق

ميمونة وأنها جاءت لانقاذها فهان عليها الصبر « فقالت لم انكر جميلا يا مولاتي ولـكن لله الامر يفعل ما يشاء »

قالت « صدقت لله الامر ولـكنه يجزي كل نفس وما فعلت . . . أرأيت عاقبة سعيك وسعي زوجك وأولادك في نزع الخلافة منا . . . أرأيت عاقبة الغدر ؟ أرأيت عاقبة الجرأة على مولاكم . . أرأيت كيف رد الله كيدكم في نحركم . . وكنت أحسبك قضيت نحبك قهراً من الثكل فاذا أنت لا تزالين حية تسعين »

وكانت عبادة وهي تسمع كلام زبيدة مطرقة فلما فرغت من قولها قالت « لم آت يا مولاتي لأناقشك الحساب وانما جئتك الآن مستعطفة فانك والدة وتعرفين انعطاف الوالدات وقد صرت جدة وتعرفين انعطاف الجدات »

فقطعت كلامها وقالت الآن عرفت حنو الوالدة والجدة .. ؟ أين كان ذلك الحنو لما أراد ابنك المقتول أن يخلع ولاية العهد عن ابني ويديرها لابن مراجل « تعني المأمون »

فقالت وقد جاشت أحزانها في صدرها وكاد الـكظم يخنقها « قلت لك يا مولاتي انما جئت مستعطفة . ولا استعطفك بحسنة أتيتها وانما اتقدم اليك بكرامة صاحب هـذه الآثار » واستخرجت حق الزمرد من جيبها ومفتاح الذهب معلق به ونهضت ومدت يدها نحوها لتعطيها اياه . فتباطأت زبيدة بتناوله مبالغة بالازدراء ويد عبادة ممدودة كأنها سائل يستعطي وأخيراً قالت زبيدة « وما الذي يحويه من الآثار ؟ »

فأخذت عبـادة تعالجه بالمفتاح ويداها ترتعشان من ضعف الشيخوخة وشدة التأثر حتى فتحته وتقدمت الى زبيدة فوضعته بين يديها على الوسادة وتراجعت الى مكانها فنظرت زبيدة فاذا في الحق خصلة من شعر زوجها وبضع أسنان من أسـنانه وقد فاحت رائحة المـك فقالت « ما هذا الشعر والاسنان ؟ »

قالت « إنها شعر مولانا الرشيد وأسنان طفولته .. ألم أكن ظئره ؟

ألم أرضعه وكان يناديني أم الرشيد . . ؟ بهذه الآثار أتقدم اليك أن تسمعي شكواى وترحمى ضعفى ليس من أجلى انا بل من اجل فتاة بريئة من كل ذنب كانت في عهد تلك الحوادث طفلة ربية على مهاد الرغد والرخاء وهى الآن يتيمة طريدة لا ملجأ لها ولا نصير وحياتها او موتها بين شفتيك . . بالله إلا عطفك عليها بكلمة تنقذها من الموت . . » قالت ذلك وشرقت بدموعها — وناهيك بعجوز تبكى وتستعطف

فلما سمعت زبيدة كلامها ورأت ثنايا زوجها وشعره كاد الحنو يغلب على عواطفها فسكتت هنيهة وعبادة تراقب حركاتها ولم تشك انها أصغت الى ندائها

ثم رأتها اقفلت الحق وهي تقول لها « الم تتقدمى بهذه الآثار الجامدة الى الرشيد في حياته ؟ »

قالت « بلى فعلت »

قالت « ولماذا تقدمت بها اليه ؟ »

قالت « تقدمت اليه بها ليعفو عن زوجى يحيى »

قالت « وماذا كان جوابه ؟ »

فبلعت ريقها وحارت في الجواب ولكنها لم تر بداً من الصدق فقالت « انه ردنى خائبة يامولاتي »

قالت « وهل ينبغي أن أكون أنا أعرف منه لحقك ياعبادة ؟ »

قالت « انى تقدمت الى الرشيد مطالبة بحق كنت أحسبه لى عليه وأما الآن فاني أستعطفك والتمس تفضلك ولا حق لى . . أطلب احسانك على فتاة لادخل لها في أمرنا — أما أنا فاذا قلت اني ارتكبت ذنباً نحوك فهـذا عنقى بين يديك ولا آسف على حياتى . أما تلك الفتاة المسكينة فلا ذنب لها . . »

فقالت « وأي فتاة تعنين »

فاستبشرت بسؤالها وقالت « أعني فتاة هى بقية ذلك القتيـل السيء الطالع ساقها شقاؤها الى الفرار مما أصاب أباها واعمامها وجدها فبقيت في قيد الحياة وظللت انا حية لأعولها وأتولى تربيتها فقضينا عدة اعوام ونحن

نتستر ونعيش عيش المتسولين وقد قبلنا حكم القضاء بذلك فساقت لنا التقادير اناساً وشوا بنا الى أمير المؤمنين وحملوا الفتاة المسكينة الى قصره فخفت ان يغروه بقتلها فلم اجد لي باباً اطلب الفرج منه سواك فاتيتك بهذه الآثار لعلها تعطفك على تلك المسكينة فتقولى كلمة يكون لها فيها الحياة فيأمر أمير المؤمنين باخراجها فاذهب بها واقضى بقية الحياة معها في كوخ حقير او اغادر هذه البلاد الى حيث تأمرين . بالله ترفقى . . . . اسألك برأس ابنك وبحنوك عليه إلا اصغيت لتذللى . . وانت تعلمين اني لم استعطف احدا على هذا الشكل في عمرى حتى ولا الرشيد رحمه الله ..» ولم تعد تستطيع امساك نفسها عن البكاء

وكانت عبادة تتوقع أن تسمع منها كلمة الانعطاف فاذا هى تسألها « وما اسم الفتاة ؟ »

قالت « ميمونة يا مولاتي »

فابتسمت وحول مبسمها هالة من الحقد والنقمة لاسبيل معها الى الانعطاف وقالت « ميمونة ! جئت تطلبين النجاة لميمونة ؟ لماذا لم ينجها حبيبها الخراسانى شاهر سيف النقمة على آل عباس كافة . . الذي لو أتيح له أن يشرب دمنا لشربه »

فلما سمعت قولها ارتج عليها ودهشت لاطلاعها على ذلك السر وهى تحسبه مكتوماً عن كل انسان وقد فاتها تفشي الجاسوسية في ذلك العصر وان لكل انسان جاسوساً على صاحبه . حتى الاب يتجسس على ابنه والابن على أبيه وكان لزبيدة عيون في بيت المأمون يأتونها بالاخبار عن كل حركة فيه وقد علمت بخبر الخراساني بالأمس وعزمت على أن تخبر ابنها به ولم تعلم انه غادر بغداد ونجا من حبائلها

أما عبادة فبغتت وجمد الدم في عروقها ولم تحر جواباً فظلت ساكتة ثم خافت أن يثبت سكوتها التهمة عليها فارادت التنصل منها على قدر الامكان فقالت « لم أفهم مرادك يامولاتى ومن هو ذلك الخراسانى وما هو شأننا بالدسائس والنقمة ونحن لانكاد نملأ جوفنا طعاماً . . . . بالله اقبلى

استعطافي فقد صغرت نفسي واكاد أتميز صغراً واستهانة وانما أطلب منك اخراج هذه الفتاة من قصر أمير المؤمنين ومهما أمرت بعد ذلك فاني طوع ارادتك . . . »

فحولت زبيدة وجهها عنها ومدت يدها بالحق اليها وقالت « كفى ياعبادة خذي هذا الحق لعله ينفعك في غير هذا السبيل واذا كنت في حاجة الى عطاء من مال أو طعام أعطيناك .. »

الفصل الثانى والخمسون

الغضب

فعلمت عبادة أن الكلام ذاهب عبثاً وان زبيدة تطلب انصرافها فتناولت الحق وهى تقول « كنت أقبل عطيتك ياسيدتى لو بقى لي مطمع في الحياة فاستغفرك على مابدا من جسارتى وأرجو أن يديم الله سعدك ويؤيد عرش ابنك » قالت ذلك وتحولت تظهر عزمها على الخروج وهى تتوقع أن يلين قلب زبيدة بما سمعته من التقريع فبلغت الى باب القاعة ولم تسمع صوتها ولا رأتها تحركت من مكانها . . فأكبرت أن تخرج من بين يديها ذليلة مغلوبة فعادت اليها أنفتها وتذكرت حالها على عهد ابنها وما أصابها من البلايا بسبب زبيدة وما رأته من قساوة قلبها وشماتتها بذلها فالتفتت اليها فاذا هى لاتزال جالسة على السرير وعيناها على الوسادة تتشاغل بالتقاط فتات المسك عنها وحول شفتيها ابتسامة تغني في شرح عواطفها عن مجلد لانها جمعت بين الاستخفاف وعز الانتصار وانفة الكبراء وشماتة الحاقدين

وكانت زبيدة تتوقع رجوع عبادة لانها لم تشف كل غليلها منها ولم تجبها ساعة الوداع رغبة في رجوعها وقد لذ لها الحديث مع امرأة ساعدتها الاقدار عليها حتى سحقتها سحقاً بعد أن قتلت ابنها وأذلت زوجها وسائر أهلها وشتت شملهم وقبضت على أموالهم وضياعهم وأصبح اسمهم فزعة

يخافها المنتمون اليهم — لان الرشيد انما نكب البرامكة برأيها وتحريضها وقد لذ لها النصر — وليس على قلب الانسان ألذ من النصر . ولو حللت أسباب السعادة تحليلا دقيقاً لرأيتها ترجع الى النصر أو مافي معناه . فالغالب في الحرب يتمتع بالنصر على أبسط معانيه وناهيك بلذة القائد عند مايرى جيشه ظافراً وجيش عدوه مدحوراً . وطلاب المال لايجمعونه خوف الجوع فان الانسان يشبعه مالا يعجز أفقر الفقراء عن الحصول عليه وانما يجمع المال ليستعين به فى تنفيذ أغراضه أو تقوية نفوذه فى الدولة أو الهيئة الاجتماعية وهو النصر أو الفوز . وطلاب الشهرة على اختلاف وجوهها انما يطلبونها التماساً لمثل هذه اللذة ـ فطالب الشهرة من طريق السياسة يشعر اذا مدحه الناس على عمل أعجبوا به انه تغلب على آرائهم بقوة عقله وان اعجابهم به انما هو اقرار بتقصيرهم عنه في ذلك السبيل . وطالبها من طريق العلم أو الشعر أو غيرهما من المهن القلمية يلذ له اعجاب الناس بنفثات يراعه أو بنات أفكاره مثل شعور القائد بانتصاره على اعدائه فزبيدة لذ لها الانتصار الباهر الذي توفقت اليه على البرامكة وجاءت مقابلة عبادة وتذللها تزكية للنصر فاستغرقت في تلك اللذة حتى نسيت عاطفة الشفقة أو تناستها أو لعلها أبعدت تلك العاطفة عمداً لان البرامكة تعمدوا اهانة ابنها واخراج الملك من زوجها

فلما التفتت عبادة نحوها ظلت هي مشتغلة بالتقاط المسك عن الوسادة وقلبها يخفق توقعاً لما عساه يبدو من تلك الوالدة المقهورة المغلوبة على أمرها فاذا هي تقول لها « أأخرج من بين يديك ولم أنل جواباً منك غير الشماتة والاستخفاف وقد تقدمت اليك بحرمة زوجك المدفون في طوس . . فاكتفيت بقولك ان الله انما أوصلنا الى هذه الحال جزاء ماجنته أيدينا . . ؟ وقد سرني انك تعرفين ذلك وان الله قادر على مثله في كل زمان ومكان »

ولما قالت ذلك لم تتمالك زبيدة عن النظر اليها فاذا هي قد تغيرت سحنتها من الاستعطاف والتذلل الى الغضب والنفور واحمرت عيناها وجف دمعهما وارتجفت شفتها وارتعشت يداها ورجلاها حتى كادت تقع الى الارض وهي تتجلد وكانت قد تناولت عكازها فتوكأت عليها ولم تزد على ما قالته

وأخذت تبحث عن نعالها لتلبسها وتخرج فصاحت بها زبيدة « عبادة ! »

فتغافلت وظلت سائرة في الدهليز فصاحت بها ثانية « عبادة ! يا أم الرشيد ! »

فلما سمعتها تناديها بهذه الكنية استبشرت وتراجعت وكظمت ما في نفسها لعلها تستطيع أن تنفع ميمونة فالتفتت واحدى يديها على العكاز والاخرى على خصرها كأنها تتماسك من الضعف فوقعت عيناها على عيني زبيدة وهي ترجو أن تقرأ شيئاً جديداً يشف عن انعطاف أو حنو لعلها تغير رأيها في ميمونة فرأتها لا تزال تبتسم ولم يتغير شكل ابتسامها وقد زاده رهبة ما بدا في عينيها من دلائل الغضب فظلت عبادة في هذه اللفتة بضع لحظات وهي تتفرس في عيني زبيدة ومع أنها قرأت الغضب فيهما ما زالت تغالط نفسها رغبة في انقاذ ميمونة واذا بزبيدة تقول بصوت مختنق « تدعين على ابني بالقتل ؟ . »

قالت « معاذ الله يا سيدتي . . أطلب اليه تعالى أن لا يريك مكروهاً به.. بل أتوسل اليه أن يحرس كل أبناء الناس لعله يصيب حفيدتي المسكينة طرف من عنايته » ثم تغير صوتها واختنق

فقطعت زبيده كلامها وقالت « ألم تكوني تطلبين ذلك من قبل ؟ »

فأدركت عبادة أنها تشير إلى أيام عزها قبل مقتل ابنها فقالت « ويلاه كنت أرجو ذلك ليبقى ابني ولكنني لم أكن أقوله بحرارة قلب ولهفة كما أفعل الآن لاني كنت لم أجرب بعد .. كنت مثلك يامولاتي لا أعرف من الدنيا الا نعيمها وراحتها وكنت أحسب الدهر يدوم لي فاذا هو قد أذاقني ما لم يسمع بمثله في الارض . . . . وأصبحت بعد أن عادني الدهر أرى العناصر تغالبني ولا أرى من دنياي غير المصائب ولا أتوقع غير النوائب »

فادركت زبيدة انها تعرض بما تخافه عليها من النكبة فكرهت أن تسمع شيئاً يكدرها اذا هي أطالت الحديث معها فوقفت وأخذت في اصلاح عقدها المعلق في صدرها والعصابة التي حول رأسها كأنها تتأهب للخروج . فاكتفت عبادة بما قالته وتحولت الى نعالها فلبستها وخرجت وهي لاتبالي

بما أصابها من الفشل بعد أن اجابت زبيدة ذلك الجواب

سارت عبادة تواً الى قصر المأمون وقضت الطريق وهي تمشي مسرعة وقد نسيت عجزها لفرط ما كان من تأثرها على أثر مادار بينها وبين زبيدة وكانت دنانير في انتظارها فلما قصت عليها ماجرى اسفت لفشلها وجعلت تخفف عنها وتهون عليها

الفصل الثالث والخمسون

الفضل بن سهل

لنترك أهل بغداد في حالهم وننظر في ما كان من أمر بهزاد بعد رحيله فقد قرأنا في كتابه الى ميمونة انه مسافر الى خراسان وقد فعل ذلك بعد ان اوصى سلمان بما عليه من السعي في اثناء غيابه . وغادر بغداد على فرسه وقد شد ذلك الصندوق الى السرج والتمس اقرب الطرق وكان اذا بات في خان أو نزل ادعى انه طبيب وصندوق العقاقير معه . . قضى في سفرته اياما قطع في اثنائها جبالا وسهولا واودية وانهاراً حتى اشرف على مدينة مرو الشاهجان عاصمة خراسان في ذلك العهد وهي في منبسط من الارض حولها سور مربع الشكل وفي وسط المدينة قلعة ضخمة يقال لها في اصطلاحهم « القهندز » تظهر للمطل على مرو عن بعد ويحسبها الناظر اليها بلدا ويغرسون على سطحها المطابخ والباقل كانها بستان على رأس جبل ولم يكن ذلك المنظر ليؤثر على بهزاد فانه نشأ في هذه المدينة وشب فيها فدخل تواً يلتمس منزل الفضل بن سهل

والفضل بن سهل أصله من سرخس نشأ مجوسياً وكان عالماً بالنجوم وقد أدخله في خدمة الدولة يحيى البرمكي في أيام الرشيد ولم يسلم الا سنة ١٩٠ هـ على مذهب الشيعة وانما أسلم رغبة في نصرة الفرس بخراسان . وكان هماماً فقدمه يحيى في الدولة حتى صار من خاصته ثم جعله قهرمانا له . وتوسم الفضل في المأمون نجابة وتعقلا فتوقع ان تصير الخلافة اليه فلزمه وخدمه وتقرب

منه . وكان المأمون يجله ويقدمه ولم يكن الفضل طامعاً بأقل من الوزارة — يحكى أن مؤدب المأمون قبل الخلافة لما رأى جميل رأيه بالفضل واكرامه اياه نقل ذلك للفضل وقال له « لا أستبعد أن يحصل لك منه ١٠٠٠٠٠٠ درهم » فاغتاظ الفضل وقال « والله ما صحبته لاكتسب منه مالا قل أو جل ولكني صحبته ليمضي حكم خاتمي هذا في الشرق والغرب »

وكان الرشيد لما بايع لأولاده بولاية العهد جعل للأمين العراق والشام الى آخر المغرب وهو الخليفة بعده وجعل للمأمون خراسان وسائر المشرق على ان يتولى الخلافة بعد أخيه الأمين . وكل ذلك بتدبير جعفر وغيره من أحزاب الشيعة وفي جملتهم الفضل بن سهل . ولما أراد الرشيد سنة ١٩٢ هـ أن يسير الى خراسان أمر ابنه المأمون ان يبقى في بغداد حتى يرجع . وكان الرشيد مريضاً فخاف الفضل ان يموت الرشيد في الطريق فيذهب سعيه هدراً فجاء الى المأمون وقال له « لست تدري ما يحدث بالرشيد وخراسان ولايتك ومحمد الأمين المقدم عليك وأن أحسن ما يصنعه بك أن يخلعك وهو ابن زبيدة وأخواله بنو هاشم وزبيدة وأموالها كما تعلم فاطلب إلى أمير المؤمنين ان تسير معه » فطلب المأمون ذلك من ابيه فامتنع أولا ثم اجاب — ولا بد لامتناعه من سبب كان يجول في خاطره وهو يتوقع قرب أجله ويرى لأولاده عليه رقباء يحصون أنفاسه ويستطيلون بقاءه

فسار المأمون مع أبيه والفضل معهما واهتم الفضل في أثناء الطريق بتأييد امر المأمون فاخذ له البيعة على كل من في عسكر الرشيد من القواد وغيرهم واقرله الرشيد بجميع ما معه من الأموال . ثم نزل المأمون مرو قصبة خراسان واشتد المرض على الرشيد وهو في طوس والأمين في بغداد وله عيون مع الرشيد اشدهم غيرة عليه الفضل بن الربيع وزير الرشيد بعد البرامكة . فلما بلغ الأمين اشتداد المرض على ابيه بعث الى ابن الربيع وغيره يستحثهم على بيعته . فلما مات الرشيد هناك سنة ١٩٣ هـ احتال ابن الربيع على من كان في ذلك العسكر والمأمون غائب في مرو وحرضهم على اللحاق بالأمين . فاطاعوه رغبة منهم في الرجوع الى اهلهم واولادهم في بغداد واغفلوا العهود التي اخذت عليهم

للمأمون وحملوا ماكان في عسكر الرشيد الى الأمين وتمت البيعة له كما تقدم خبر ذلك مفصلا

فلما بلغ المأمون موت ابيه ورجوع رجاله الى اخيه بالاحمال والاموال وقد نكثوا عهده خاف على نفسه فجمع خاصته بمرو وشاورهم في الامر واظهر لهم ضعفه وانه لايقوى على اخيه فنشطوه ووعدوه خيراً ولبث الفضل يترقب الفرص لنيل بغيته التي اسلم من اجلها وكان من جملة مساعيه قبل موت الرشيد في هذا السبيل انه انفذ بهزاد هذا طبيباً الى بيت المأمون وهو يعرفه من زعماء الخرمية وفيه اقدام وغيرة على الشيعة ونصرة للفرس ومعه سلمان خادما له وهو من رجال هذه الطائفة . وكانت المخابرات السرية دائرة بين بهزاد والفضل فلما مات الرشيد واستأثر الأمين بالخلافة وآن العمل في خراسان ركب بهزاد اليها ليشترك مع الفضل في التدبير

وكان الفضل يوم وصول بهزاد الى مرو جالساً في قصره مع أخيه الحسن فجاءه الحاجب ان بهزاد بالباب فامر بادخاله فدخل وهو لا يزال بلباس السفر وفي يده الصندوق فوضعه بالباب وسلم فرحب به الفضل والحسن وأجلساه في صدر القاعة . وكان الفضل ليمفاوي المزاج رقيق البدن أصفر الوجه مع صحة ونشاط وهو يومئذ في حدود الكهولة اذا نظرت الى عينيه رأيتهما يتطفان بما في صدره من المطامع وما يضمره من المكايد ومايفكر في نصبه من الحبائل مع صبر وتربص ولم يكن أخوه الحسن في مثل مزاجه ودهائه بل كان أقرب الى ظهور مافي نفسه وتجلي أغراضه في وجهه اذا غضب بان الغضب في وجهه او سر ظهر السرور عليه أما الفضل فكان وجهه لا يغيره تأثير ولا تظهر فيه عاطفة كأنه لايغضب ولا يفرح فلا تقف الحدة في سبيل أغراضه أو يعرقل الغضب مساعيه كما يصيب اصحاب المزاج الدموي أو العصبي فانهم لايصبرون على ضيم ولا يستطيعون الكظم فاذا غضبوا غلبت عليهم الحدة حتى يخرجوا عن الصواب فربما بدرت من أحدهم كلمة يقولها عن غير روية تذهب بها مساعيه هدراً بخلاف أصحاب المزاج الليمفاوي

فلما جلس بهزاد أخذ الفضل واخوه يسألانه عما فعله فقص عليهما ماجرى

له وهما يعجبان بشجاعته وغيرته على الفرس وهو لا يرى انه فعل شيئاً يذكر فسأله الفضل عن حزب الحرمية ببغداد

فقال « انهم على دعوتنا لا يدخرون في سبيلها مالا ولا انفساً

قال « كيف فارقت ذلك الغلام » يريد محمداً الامين

قال « فارقته بين الكاس والطاس والجواري والغلمان »

فقال الحسن « ان دولته ذاهبة لا محالة ولكن . . »

فاجاب بهزاد على الفور « ولكن ذلك لا ينفعنا الا اذا اذهبناها نحن »

فضحك الفضل ضحك الظافر وقال « ونحن فاعلون ان شاء الله إنما ينقصنا أن يستحكم الخلاف بين الاخوين حتى يستنصرنا هذا على ذاك فنشترط عليه ما يضمن غرضنا »

قال بهزاد « لا تلبثون أن تسمعوا بذلك قريباً بفضل صاحبنا سلمان . . وإلا ذهب إسلامك عبثاً . . ؟ »

فشق هذا التصريح على الفضل لأنه مع اشتهار ذلك عنه واشتراكه مع بهزاد في المنفعة من اسلامه لم يكن يرضى ان يقال عنه انه اسلم رغبة في الدنيا أو لعله بعد أن أسلم احتيالا أصبح يرى الاسلام حقاً . فسكت ولم يبد ملاحظة على انه أراد أن يثبت قدم بهزاد في هذه الخدمة لما أظهره له من اقتداره على العمل بعد رجوعه من تلك المهمة وتوقع ان يحتاج اليه في مثلها فنظر الى أخيه الحسن وضحك كأنه يكتم أمراً يتردد في التصريح به ففهم غرضه وابتسم وهو ينظر الى بهزاد فظل بهزاد ساكتاً ثم استلم الحسن الحديث فوجه كلامه الى بهزاد قائلا « اننا نرى لك فضلا كبيراً في نصرة الفرس وسيأتي يوم تنال فيه نصيبك من هذا الفوز »

فقطع الفضل كلامه قائلا « بل هو يناله من اليوم ... وهل نجد أليق منه ببوران » يعني بوران بنت الحسن بن سهل وكانت بارعة في الجمال يتحدث اهل خراسان بجمالها وتعقلها

فلما سمع بهزاد اسمها اجفل لأنه مقيد القلب كما تعلم ولكنه لم يكن يستطيع رفض ذلك الانعام فكادت البغتة تظهر في وجهه ولكنه تجلد وأخفى رأسه

شاكراً وقال « انها نعمة لا أستحقها ... ولم اعمل عملا يخولني هذا الانعام بعد ونحن لا نزال في اوائل الطريق . . »

فاستحسن الفضل عذره ولم يخطر له انه يأبى الزواج ببوران وليس في كبراء خراسان واحد إلا ويتمنى الحصول عليها فابتدره قائلا « هذا فضلا عن تقدمك في مناصب الدولة عند سنوح الفرصة »

فقال بهزاد « اعذرني ياسيدي اذا استعفيت من المناصب فأنا أخدم مصلحة أمتى بما تشاء من طريق آخر » ثم تحفز للوقوف وقال « واستأذن الآن في الذهاب إلى منزلى لتبديل ثيابي والراحة . . » قال ذلك ومشى الى نعاله فلبسها وتناول الصندوق وهم بالخروج فاستوقفه الفضل قائلا « وما هذا الصندوق ؟ »

قال « انه صندوق العقاقير يامولاى » ومشى

الفصل الرابع والخمسون

فاطمة

فلما خرج من القصر ركب فرسه وأوغل في المدينة وهو يسير في أزقتها الضيقة حتى بلغ الى بعض أطرافها وهو غارق في بحار التأمل وقد ساءه ما ذكره الفضل عن بوران لاعتقاده ان الفضل يعني ما يقوله من تزويجه بها وقد فاته انه انما قال ذلك ترغيباً له في مناهضة العباسيين ولوعلم الفضل حقيقة بهزاد لرآه أرغب أهل فارس فى مناهضتهم

على أن تلك الذكرى هاجت أشجانه وأذكرته ميمونة وكيف تركها في بغداد مع علمه أن العداء لا يلبث أن يتمكن بين الاخوين وتنتشب الحرب بين البلدين . ثم تذكر انها مقيمة في قصر المأمون فاطمأن خاطره . وأنسته هذه الهواجس طريقه فانتبه لنفسه فاذا هو قد تجاوز المكان الذي كان يقصده فدار حتى أتى زقاقا انتهى منه الى باب ترجل عنده ووقف والصندوق بيده وقرع الباب قرعا مخصوصاً ولبث واقفاً وبعد هنيهة فتح الباب وخرج منه عبد طويل القامة عليه سمات الشيخوخة وحالما وقع نظره على بهزاد ترامى على يديه وأخذ

يقبلهما ويقول « سيدي . . سيدي . . أنت جئت ؟ لقد طال غيابك » قال ذلك وأراد ان يتناول الصندوق فامتنع عن تسليمه اليه ومشى فادخل العبد الفرس الى الاسطبل واقفل الباب وسار بين يدي بهزاد مهرولا من الفرح في دهليز استطرقا منه الى فناء واسع وتحولا من بعض جوانبه الى غرفة في صدرها عجوز طاعنة في السن قد شاب شعرها وتغضن جبينها وطال حاجباها حتى غطيا عينيها وقد تزملت بمطرف وجلست الارباء فلما أطل العبد عليها صاح « مولاتى جاء سيدي . جاء سيدى »

فبغتت وصاحت « جاء ؟ اين هو » وكان بهزاد قد وصل اليها فجثا عند قدميها وقبل يدها فرفعت بصرها اليه وعانقته وضمته الى صدرها واخذت تقبله وهي تبكي وتقول بصوت مختنق « أهلا بولدي وحبيبي . اهلا بك . انت جئت يا كيفر . لقد طال انتظاري يا بنى وخفت ان أموت قبل ان اراك واني نذري . . » قالت ذلك وخنقتها العبرات

اما هو فتجلد وقال « ما الذي يبكيك ياسيدتي احمدي الله على لقائى »

فتراجعت وامسكت عن البكاء وقالت « انى احمد الله حمداً كثيراً يا بني على رجوعك سالما . من اين انت آت الآن ؟ »

قال « من بغداد »

قالت « وهل توفقت الى ما أردت .. »

قال « توفقت وجئتك بما تطلبين »

قالت « وقد دهشت « جئت برأسه ؟ »

قال « نعم ياسيدتي »

قالت « أين هو ؟ »

فأشار الى الصندوق وقال « هو في هذا الصندوق »

فمدت يدها لتتناول الصندوق وقد نشطت كأنها استعادت شبابها وقالت « في هذا الصندوق ؟ افتحه . . أرني رأس مولاى . . ارنى اياه لأتمتع برؤيته قبل انقضاء أجلى . . »

فقعد معتدلا والتفت الى العبد فانصرف من الغرفة . فلما خلا بالعجوز أخذ

يعالج الصندوق حتى فتحه واستخرج جمجمة وضعها بين يديها وقد فاحت رائحة التراب المتعفن فنظرت الى الجمجمة بعينين مغلقتين وصاحت « هذا هو رأس أبي مسلم . . هذا هو رأس والدي البطل . انك أحييته يابني » وأخذت تقبل الرأس وقد شرقت بدموعها

أما هو فكاد يبكي معها ولكنه تجلد وقال « وستفرحين يا سيدتي متى انتقمت له . . »

قالت وقد تماسكت رغم ما كان يبدو من ارتعاش أناملها « نعم يجب أن تنتقم له وأنا إنما دعوتك « كيفر » رغبة في ذلك . . ان اسمك يا بني معناه الانتقام .. انك ستنتقم لهذا المقتول ظلماً . وكيف عثرت عليه وقد بلغنا أنهم رموه في دجلة ؟ »

قال « كنت أظن ذلك ولكنني توفقت الى شيخ كان حاضراً مقتله ودلني على مدفنه في المدائن وأعانني على استخراجه .. هذا هو رأس أبي مسلم بلا ريب تفرسي فيه جيداً . . »

فأعادت النظر الى الرأس وعيناها تغشاهما الدموع وقالت « نعم هو بعينه ويدلني على ذلك خفقان قلبي . . . هـذا هو رأس والدي أبي مسلم . . كيفر يا كيفر انك نعم الرجل أنت . . انك ستنتقم له . . هل آن وقت الانتقام ؟ »

قال « قد آن يا سيدتي . . . وآن أن تقصي على خبري وأصل نسبي وتمنحيني الوديعة التي وعدتني بها وقلت إني سأستخدمها في ذلك الانتقام »

قالت « انها حاضرة يا ولداه تمهل قليلا .. ولا بد قبل تسليمك إياها من أن اقص عليك خبرها .. اجلس . . الا تحتاج الى طعام ! »

قال « كلا يا سيدتي »

الفصل الخامس والخمسون

النسب

فنهضت من مكانها وقد تشددت ومشت منتصبة القامة كأنها في عنفوان الشباب وضغطت على كتف بهزاد لتمنعه من النهوض معها ومشت الى خزانة في جانب الغرفة وأخرجت من جيبها مفتاحا عالجت الخزانة به حتى فتحتها وهو ينظر اليها بلهفة فأخرجت من الخزانة لفافة مستطيلة من الخز ورجعت بها فوضعتها بين يدى بهزاد وقعدت وهي تقول « أنت تعلم إنى فاطمة بنت أبي مسلم الخراساني ... »

قال « نعم »

قالت ويعتقد الناس وانت منهم انك ربيت في حجري ولاتعرف أبويك »

قال « نعم »

قالت « وانه لا يعرف أبويك أحد سواي »

قال « صدقت »

قالت « ان جماعة الخرمية يكرمونني لأنى من دم أبى مسلم ولكنهم لا يعلمون انك أنت من دمه أيضاً »

فصاح قائلا « أنا من دم ابى مسلم ؟ وكيف ذلك . . ! »

قالت وهى تبتسم « لانك ابني »

قال وقد ظهرت الدهشة في وجهه « ابنك ؟ أنا ابنك ؟ »

قالت « نعم يا ولدي ... انك حشاشة كبدي » وضمته الى صدرها وقبلته فقبل يدها وقال « وكيف ؟ »

قالت « لانى تزوجت ولا يعلم الناس إني خلفت ولداً من أبيك فيزعمون انك غلام فقير احتضنتك وربيتك

فتعجب بهزاد من ذلك والتبس عليه الامر ولم يعد يستطيع صبراً على السكوت فقال « وكيف اذاً ؟ كيف أنا ابنك »

قلت « لا تتعجب . . . ان أباك زوجي محرز بن ابراهيم توفي وانا في حدود الكهولة وقد يئس الناس من حملي ولكنني لما توفي كنت حاملا بك فتسترت حتى آن الوضع فولدتك وأخفيت خبرك حيناً ثم أظهرت اني احتضنتك وربيتك ولما كبرت غرست حب جدك ابى مسلم في قلبك وسميتك كيفر أي الانتقام لأن أولئك الظالمين أحرقوا قلبي بقتل جدك تلك القتلة الشنعاء غدراً ومازلت منذ تزوجت وأنا أعد نفسي بولد من دمي أكرس حياته لهذا الانتقام لان جدك أبا مسلم لم يخلف ولداً ذكراً ينتقم له وطال انتظاري . فلما جئت نذرتك لهذا الغرض . . وقد حفظت من أثر جدك خنجراً لم يخنه قط بل كان النصر مصاحباً له حيثما سار به » قالت ذلك وحلت اللفافة واستخرجت منها خنجراً استلته فلمع فرنده كالبرق ودفعته اليه وقالت « انتقم لأبي مسلم بهذا الخنجر »

فتناول بهزاد الخنجر وقلبه بين يديه ثم قلبه وأغمده وخبأه في جيبه وقال وهو يحسب نفسه في منام « إني إذاً حفيد أبي مسلم الخراساني . . قد كنت أجاهد في الانتقام من أجل فضلك في تربيتي فأنا الآن انتقم لجدي . . » ولما قال ذلك ابرقت عيناه وثارت الحمية في رأسه وتذكر ميمونة — لان المحب يذكر حبيبه على الخصوص في حال سروره أو كدره أما في حال السرور فلكي يشاركه بفرحه وأما في حال الكدر فلكي يتعزى برؤيته عن مصائبه . ولما تذكر ميمونة تذكر رأساً آخر في ذلك الصندوق فمد يده الى الصندوق وهو يقول « وهنا رأس اخر نحن ناقمون على قاتله » واستخرج يده وهو قابض على ذلك الرأس من شعرات في ناصيته يبس الدم عليها وقد جف جلد الوجه واسود والتصق بالعظم حتى يحسبه الناظر اليه عظما أسود

فنظرت فاطمة الى ذلك الرأس فلم تعرفه فقالت « رأس من هذا »

قال « تفرسي فيه . ألم تعرفيه ! »

فتفرست فيه وقالت « لا . . لم أعرفه »

قال « هو رأس جعفر القتيل الثاني »

فصاحت « رأس جعفر ؟ جعفر بن يحيى ؟

قال « نعم يا أماه . انه رأس جعفر المقتول غدراً » وحدثته نفسه أن يبوح لامه بحبه لميمونة فأجل ذلك الى وقت آخر وظل ساكتا وهو يراجع ما سمعه من الغرائب في تلك الساعة

قالت وكيف عثرت عليه يابنى ؟ »

قال « ألم تعلمى أن الرشيد غدر به وقتله ولم يكتف بقتله بل قطع بدنه قطعتين نصب كلا منهما على جسر من جسور بغداد ونصب الرأس على جسر ثالث . فظلت هذه القطع للحر والبرد والشمس والمطر حتى سافر الرشيد الى الري بعد سنتين وعند رجوعه عزم على الاقامة في الرقة فمر ببغداد وأمر ان تنزل جثة جعفر وتحرق وكنت في أثناء نصب الجثة قد وكلت الى سلمان أن يسعى في الحصول على الرأس فلما انزلوا الجثة أرضى الموكل بالاحراق وأخذ منه الرأس فحفظته في هذا الصندوق حتى جمعت اليه رأس جدي »

فأعجبت فاطمة بما أتاه ولدها فقبلته وقالت ضع هذين الرأسين في الصندوق وضع هذا الخنجر معهما حتى يأتى وقت تجريده فتتقلده وأنت فائز باذن الله . . اكتم ما ذكرته لك كتماناً تاما عن كل انسان وسيأتي يوم تتقلد به هذا الخنجر وتقتل به عدوك . . تقتل به بعض ابناء قاتل جدك . . ولكن احذر يا بنى ان تظهر للملأ ما تعمله فاذا دعيت للحرب فلا تكن قائد او اميراً »

فقال « ذلك ما عزمت عليه .. وإنما يهمني الانتقام »

فتنهدت وقالت « هل ارى ذلك اليوم واشفى غليلى ؟ »

قال « ارجو أن تريه وتفرحي بي »

قالت « وستجتمع بالحرمية . فكن لديهم كما يعتقدون بك . هم يعدونك زعيمهم لأنك ربيبى فابق معهم على هذا الحال لئلا يفسد عليك تدبيرك »

الفصل السادس والخمسون

كتاب سلمان

وكانت الشمس قد مالت الى المغيب وأعد الطعام فنهضوا وتناولوه وبات بهزاد (أو كيفر) تلك الليلة وقد أحس بنشاط جديد كأن روح أبي مسلم دبت فيه وتذكر ما علمه من حال الخلافة في بغداد وضعف أمرهم وهو يتوقع أن تسنح الفرصة للانتقام عند ما يخلع الامين أخاه وذلك لابد منه لعلمه بما دبره سلمان من الاسباب المساعدة على ذلك وأصبح أكثر رغبة في تعجيل الامر من ذي قبل

ونهض في اليوم التالي وسار الى مقابلة جماعة الحرمية ولهم مجتمع سري يجتمعون فيه على أنه اكتفى بمقابلة بعض كبارهم وتردد عليهم وشجعهم وأبلغهم ما شاهده من استعداد أنصارهم في بغداد لنصرتهم بما يملكون وتباحثوا في تدبير الامور والتربص ريثما يأتي الوقت للانتقام وكان هو ينتظر ما يأتيه من أخبار سلمان ببغداد

قضى في ذلك أياماً أو أسابيع ولم يذهب الى الفضل ولا سمع بخبر حتى أصبح ذات يوم واذا بهجان جاءه بكتاب خبأه في نعاله حذراً من أن يطلع أحد فتناول الكتاب وعلم من ختمه أنه من سلمان ففضه وقرأه فاذا هو يقول فيه :

« من سلمان خادم الحرمية الى رئيسهم ومقدامهم بهزاد »

« أما بعد فقد علمت ما نحن ساعون فيه وقد توفقنا الى ذلك بالامس فان الفضل بن الربيع لما قدم من العراق وقد نكث عهد المأمون ما زال خائفاً على نفسه منه اذا ولي الخلافة فأصبح همه النجاة من هذا الخطر فاستحثه رئيس المنجمين . . على تحريض الخليفة ليخلع أخاه من ولاية العهد ويبايع لابنه

موسى (ابن الامين) وجعل ابن ماهان يوافقه على ذلك لان الامين كثير الثقة بهذا الشيخ المغرور فقبل الامين رأيهما رغم نصح الناصحين وسمى ابن ماهان شيخ الدعوة ونائب هذه الدولة ولا يبعد أن يوليه قيادة الجيش فاذا انتشبت الحرب كانت قيادته شؤما على هـذا الخليفة لان الرجل كثير الغرور بنفسه . وعلمت في هذا الصباح ان الامين كتب الى جميع عماله بالدعاء لابنه موسى بالامرة وأظنه يبعث الى المأمون في خراسان يطلب اليه أن يخلع نفسه فافعلوا ما ترونه ونحن هنا في خير والسلام »

فلما أتى على آخر الكتاب انشرح صدره وشعر أنه تقدم خطوة كبرى نحو الغرض المطلوب وكان يومئذ في منزل والدته فاطلعها على الكتاب فاستبشرت وقالت قد دنا الوقت يا بني ولا أظن الفضل بن سهل يجهل ما يجب عليه في مثل هذه الحال واذا جهله فهل تجهله أنت أيضاً ؟ »

قال « ارشديني برأيك يا أماه »

قالت « اذا استفحل الامر بين الاخوين فالفرس ينصرون المأمون على أن ينصرهم ويرعى حقهم ولو أرادوا أن يتخلصوا من المأمون ويعيدوا السلطان لانفسهم بدون خليفة أفسدوا تدبيرهم وذهب سعيهم عبثاً لان العامة لا يحكمون إلا بالدين فاذا دعام داعيان أحدهما خليفة ذهبوا الى هذا »

قال « ولكن معنا خليفة هو المأمون نحكم الناس به »

قالت « وهل يخلد المأمون ؟ فاذا مات انتقل الامر الى بعض أهله ومن يضمن أن يكون خليفته راضيا عنا وقد يكون ناقماً علينا كما كان الرشيد فينتقم منا شر انتقام »

فوقع قولها من نفسه موقعاً عظيما وأعجب بدهائها وتذكر ما دار بينه وبين كبار الحرمية ليلة الايوان في المدائن وقال « وما الرأي اذن »

قالت « الرأي أن تهيئوا منذ الآن مستقبلا ثابتاً لأعقابكم . . فاذا لم يكن في الحكم بد من خليفة عربي فالعلويون أقرب مودة لنا من سائر العرب فاشترطوا على المأمون اذا أعنتموه أن يجعل الخليفة بعده لبعض العلويين

(الشيعة) فيتم لكم ما تريدون ... اعرض هذا الرأي سراً على الفضل بن سهل من عند نفسك وكن عاقلا حكيما

فلما سمع نصيحتها م بيدها فقبلها واستأذنها في الذهاب الى الفضل ليطلعه على كتاب سلمان ويباحثه في الامر

وصل القصر في الضحى فدخل ولم يعترضه الحاجب لما يعلمه من منزلته عند مولاه فمر في الحديقة وسار تواً يطلب مجلس الفضل وأخيه فقد كانا يقيمان معاً في ذلك القصر فاعترض طريقه قبة في وسط الحديقة رأى بابها غلاما فظن الفضل جالساً هنا فتحول وأراد الدخول فاذا بفتاة خارجة من ذلك الباب على غير كلفة لأنها لم تكن تعلم بوجود أحد غريب هناك فوقع نظرها على بهزاد فاجفلت وبدت البغتة في محياها وتوردت وجنتاها خجلا ووقفت لحظة كأنها صنم لا يتحرك وارتبكت في أمرها هل ترجع إلى القبة وفي رجوعها ضعف أو تقابل القادم وتحييه وهي تعرفه وهو لا يجهلها . وكانت بلباس البيت وعلى رأسها نقاب خفيف اذا سدلته على وجهها لا يغطى إلا بعضه ولما وقع نظر بهزاد على الفتاة أعجب برونق جمالها واشراق محياها وبريق عينيها بما يتجلى فيهما من الذكاء والحياء فخجل لما سببه لها من الانزعاج عن غير عمد فابتدرها قائلا « العفو يا مولاتى . أظنني ازعجتك وانا أطلب مولانا الفضل وقد حسبته في هذه القبة على جاري عادته الجلوس فيها صباحاً

فقالت وهي تنظر اليه نظر السذاجة وصفاء النية «أنت تطلب عمي الفضل إنه خرج مع والدي في هذا الصباح باكراً لمقابلة المأمون وليس في قدومك ازعاج على الاطلاق واذا صدق ظني وكنت بهزاد ؟ » وسكتت كأنها تنتظر جوابه فابتدرها قائلا « نعم يا سيدتى يسمونني بهزاد »

فقالت «ان والدي وعمي كثيرا الاعجاب بك ولو كانا هنا لفرحا بقدومك تفضل اجلس اذا شئت »

فأعجب بهزاد بلطف هذه الفتاة وذكائها على صغر سنها وعلم أنها بوران بنت الحسن بن سهل وتذكر تلميح عمها بشأنها فرأى أنها جديرة بأفضل الرجال ولو لم يكن قلبه مشغولا لكانت نصيباً حسناً فأجابها وقال

أشكرك يا سيدتي على تلطفك وكنت أود البقاء هنا ولكنني افضل الذهاب الى مجلس المأمون لمشاهدة العم والوالد . ائذني لي بالانصراف » قال ذلك وتحول يطلب قصر المأمون وهو قصر الامارة لأن المأمون كان يومئذ أميراً على خراسان

الفصل السابع والخمسون

المأمون

وكان المأمون قد جاء خراسان كما علمت فلما مات الرشيد وبلغه ما فعله الفضل بن الربيع من نكث عهده ورجوعه بالبيعة والاموال من طوس الى بغداد شاور أصحابه من الفرس في مروعما يفعله وكبيرهم الفضل بن سهل فأشاروا عليه أن يلحق ابن الربيع وأصحابه بجريدة فيردهم إلا الفضل ابن سهل فانه حذره من ترك خراسان لاى سبب كان وقال له « ان فعلت ذلك جعلوك هدية لاخيك ولكن الرأى ان تكتب اليهم كتاباً وتوجه رسولا يذكرهم البيعة ويسألهم الوفاء »

ففعل المأمون ولم يجده ذلك نفعاً فخاف على منصبه فأخذ الفضل يطمئنه وقال له « أنت نازل في أخوالك وبيعتك في أعناقهم فاصبر وأنا أضمن لك الخلافة » وأشار عليه ان يظهر التقوى لان العامة لا تحكم بمثل الدين . فتشجع المأمون ولبث ينتظر ما يكون وكان عاقلا حكيما لطيفاً وديعاً رقيق الجانب يحب العلم وقد تفرغ له على الخصوص لما أقام بخراسان وفيها جماعة من العلماء فكان يشغل نهاره في مجالستهم ومباحثتهم وقد اطلع على علوم القدماء ولا سيما الفلسفة . وكان ربعة في الرجال أبيض جميلا طويل اللحية خفيف الشعر ضيق ما بين الحاجبين وفي خده خال اسود وفي عينيه ذكاء ولطف . واشتهر باللطف والدعة حتى ضرب به المثل (١) وكان قد تربى تربية الشيعة وأحب مذهبهم لأنه شب في حجر البرامكة ثم الفضل بن سهل

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢

ولبث المأمون في خراسان يتشاغل بالمطالعة والتفقه بالعلم ينتظر ما يكون من أخيه الامين حتى جاءه منه في ذلك اليوم وفد يكلفه أن يبايع ابنه موسى ويقدم اسمه في الخطبة ويدعوه إلى بغداد بحجة أنه قد استوحش لبعده. فارتاب المأمون من هذا الطلب وبعث الى الفضل ليستشيره في الامر فجاءه في قصر الامارة وخلا به في مجلس خاص لم يحضره الا خواص الامراء وفى صدرهم الفضل وأخوه الحسن

فقال المأمون « قد جاءنى من أخينا وفد يطلبون الى أن اقدم ابنه موسى على ويدعونى ان اذهب الى أخي » فقال الفضل « اما ما يطلبه من تقديم ابنه ففيه نكث البيعة والله على الباغي وأما خروجك من خراسان فان عزمت عليه فانت صاحب الامر ولكنك لا تبقى لك عليه حجة في الدفاع عنك وليس هذا قولى فقط بل هو قول سائر أهل خراسان وهذا هشام (كبير وجهاء خراسان) اسأله » فبعث اليه فاستشاره فقال « انما أخذت البيعة علينا على أن لا تخرج من خراسان فمتى فعلت ذلك فلا بيعة لك في اعناقنا والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ومتى هممت بالمسير تعلقت بك بيميني فاذا قطعت تعلقت بيساري فاذا قطعت تعلقت بلساني فاذا ضربت عنق كنت اديت ما علي »

فلما سمع المأمون قوله تشدد وقال له الفضل « هذا هو لسان حال الخراسانيين وهم اخوالك » وأشار عليه باسقاط اسم الامين من الخطبة والطراز وقطع البريد عنه حتى يستفحل الامر بين الاخوين. واكرم المأمون الفضل فولاه الوزارة بكل معانيها للحرب والسلم وسماه ذا الرياستين

وهم في تلك الجلسة دخل الغلام يستأذن لبهزاد الطبيب فسأله المأمون عنه فقال الفضل هو طبيب قصركم في بغداد »

فتذكره وقال « يدخل »

فدخل بهزاد وحيا فأشار اليه المأمون بالجلوس فجلس ثم سأله كيف فارق بغداد فقال « فارقتها وهي تندب أهل الصلاح واذا سألني امير المؤمنين عن أهله فقد فارقتهم في خير وعافية ولكن ... »

قال « ولـكن ماذا ؟ »

قال « ولـكن لا اعلم كيف يكون حالهم بعد ما بلغني من استفحال أصحاب المطامع حتى نكثوا البيعة ولا ندري ما يكون من حال بغـداد فاذا رأى أمير المؤمنين أن يستقدم اهله اليه فعل . . »

فقال « أصبت أيها الطبيب انى فاعل ان شاء الله »

وبهزاد انما اشار بذلك على المأمون رغبة في استقدام ميمونة ونجاتها من اعدائها ولم يكن سلمان اخبره بشيء مما أصابها في بيت الامين

ثم استأنف الـكلام قائلا « وكيف فارقت ام حبيبة ؟ »

قال « فارقتها بصحة وعافية وهي مشتاقة الى أبيها »

فابتسم المأمون عند ذكر ابنته لانه كان يحبها كثيراً ويعجب بذكائها وتعقلها مع صغر سنها وتحقق أن بقاء أهل بيته في بغداد بعد هذا الانقلاب لا يخلو من الخطر فعزم على استقدامهم فنظر عند ذلك الى الفضل وكان جالساً الى جانبه فقال « وكيف ترى الطالع اليوم هل يوافق أن نرسل فيه من يحمل الينا أهلنا ؟ »

فاستخرج الفضل من جيبه اسطرلابا صغيراً من الذهب كان لا يفارق جيبه وأطل من بعض نوافذ القصر ونظر فيه وعاد فقال « ان الذهاب اليوم لا بأس به ياسيدي واذا كان في الغد فانه أفضل »

فأمر المأمون خادمه نوفلا ان يسافر من الغد لاستقدام أهل بيته والتفت الى الفضل فقال « وبماذا نجيب الوفد ؟ »

قال « الرأي لأمير المؤمنين واذا أذن بابداء رأيي فارى أن ترد الوفد خائباً فانك بين اخوالك امنع منه في بغداد بين رجاله وكلهم يداجونه رغبة في الدنيا . . والافضل ان تلاينه وتكتب اليه كتاباً رقيقاً لا تظهر فيه عزمك على مناوأته وتلطف في استعطافه فان ذلك اقرب الى الدهاء في السياسة »

فاستحسن المأمون رأى الفضل وكتب الى أخيه الامين كتابا هذا نصه « اما بعد فقد وصل كتاب امير المؤمنين وانما انا عامل من عماله وعون من اعوانه امرنى الرشيد بلزوم الثغر ولعمري إن مقامى به ارد على امير المؤمنين

وأعظم غناء للمسلمين من الشخوص وان كنت مغتبطاً بقربه مسروراً بمشاهدة نعمة الله عنده فان رأى امير المؤمنين ان يقرني على عملي ويعفيني من الشخوص فعل ان شاء الله » ودفع الكتاب الى رئيس الوفد

ثم تحرك المأمون فعلم أهل المجلس انه ينبغي الانصراف فنهضوا وأكثرهم رغبة في حل تلك الجلسة بهزاد لانه يحب أن يبلغ الفضل رأى والدته من أمر تلك البيعة لأحد العلويين على أن يجعل ذلك شرطاً من شروط نصرة المأمون

فصبر بهزاد حتى رجع الفضل الى منزله فتعقبه وطلب الخلوة به فلما خلوا بدأ بهزاد في الثناء على ما أبداه الفضل من الرأى الصائب في تلك الجلسة ثم مد يده ودفع اليه كتاب سلمان وقال « اقرأ هذا الكتاب »

فقرأه ولم يأت على آخره حتى غلب عليه الضحك وقال « اذا صح ما يظنه سلمان وعهد الامين بقيادة جنده الى ابن ماهان كان ذلك تتمة توفيقنا وهذا ما كنت أتمناه وأسعى فيه لان ابن ماهان فضلا عن غروره وضعفه فقد تولى خراسان أيام الرشيد وأساء السيرة في أهلها وظلمهم فعزله الرشيد لذلك ونفر أهل هذه البلاد منه وأبغضوه (١) فاذا حاربوه انما يحاربونه وهم ناقمون عليه . وهو مع ذلك يظن أهل خراسان يحبونه لان بعضهم خدعوه بكتب بعثوا بها اليه يعدونه اذا جاءهم سلموا له وهذا ما كنت أتمناه منذ بدأ الخلاف بين الاخوين ولذلك قلت إن تعيين ابن ماهان لقيادة الجند تتمة توفيقنا »

فقال بهزاد « ماذا تعنى بتوفيقنا يامولاي ؟ »

قال « أعنى أن ننتصر على الامين ونخلعه ونولى المأمون مكانه »

قال « وما الفائدة لنا من ذلك أليس كلاهما عباسياً عربياً وكلاهما ابن الرشيد قاتل جعفر وحفيد المنصور قاتل أبي مسلم ؟ »

قال « ولكن المأمون ابن اختنا وعلى مذهب الشيعة مثلنا وهو صنيعتنا يعمل برأينا فيكون النفوذ لنا »

(١) ابن الاثير ٩٦ ج ٦

قال « هل تضمن أنه يبقى على ولائنا ؟ واذا ضمنت ذلك فهل تضمن اذا مات أن يكون خليفته مثله ؟ فهل تأمن لبني العباس بعد ما ظهر من غدرهم بنا وبغيرنا غير مرة ؟ »

وكان الفضل يسمع قوله وهو مطرق كأنه أفاق من رقاد فلما بلغ الى هنا رفع الفضل بصره اليه وقال « صدقت يا بهزاد ... وقد فهمت مرادك ... انك أصبت كبد الحقيقة ولا بد أن نتدارك ذلك من اليوم . . وعاد الى الاطراق وهو يحك عثنونه ثم قال « ان الخلافة لابد منها للسيادة وهي لا لا تكون الا في آل النبي من بني هاشم . . واقربهم مودة الينا العلويون ... وبين ظهرانينا منهم اليوم علي بن موسى الرضا من أعقاب الحسين بن علي بن ابي طالب وهو عاقل حكيم والمأمون يحبه ويقدمه فاشترط على المأمون من الآن أن يجعله ولي عهده فتنتقل الخلافة بعد موت المأمون من العباسيين الى العلويين .. وهو تمام الظفر » ولما قال ذلك أشرق وجهه وقال بهزاد « انه الرأي الصواب يا سيدي » ونهض للخروج فقال له الفضل « اذا أتاك مثل هذه الرسالة من سلمان اطلعني عليها »

رجع بهزاد الى منزل والدته وهو في قلق لغياب ميمونة ولبث يتوقع مجيء بيت المأمون بفارغ الصبر لاعتقاده أنها معهم

الفصل الثامن والخمسون

حملة ابن ماهان

ودخلت سنة ١٩٥ هـ وقد جاهر الامين بخلع أخيه واسقط نقودا كان قد ضربها المأمون بخراسان باسمه وليس عليها اسم الامين وأمر فدعي لابنه موسى على المنابر ولقبه الناطق بالحق وقطع ذكر المأمون وبايع لابنه الآخر عبد الله ولقبه القائم بالحق

أما المأمون ففاوض الفضل في التجنيد فاغتنم الفضل الفرصة واشترط عليه مبايعة علي الرضا زعيم الشيعة في خراسان بعده فعظم ذلك على المأمون

ولكنه لم ير بداً من أن يطاوعه فوعده اذا هو نجح في حربه وفاز على اخيه ونال الخلافة جعل علي الرضا ولى عهده . واجتهد ذو الرياستين (الفضل) في التأهب للحرب والتجنيد فاعد جنداً بقيادة طاهر بن الحسين الملقب (ذا اليمينين) وانفذه الى الري لملاقاة جند الامين اذا جاءوا يطلبون خراسان وكان طاهر قائداً باسلا مع صغر سنه بالنظر الى ابن ماهان

أما بهزاد فقد كان في اثناء ذلك يترقب رجوع بيت المأمون وورود الخبر من سلمان وعرض عليه الفضل أن يتولى قيادة الجند فأبى وبعد أن مل الانتظار جاءه كتاب من سلمان هذا نصه :

« لقد صدق ظني ونجح سعي وقد تعين ابن ماهان رئيساً للجند الذاهب لمحاربتكم فاكتب هذا اليك والجند خارج من بغداد بقيادته وقد شيعه الامين نفسه . وذكر مشايخ بغداد أنهم يروا عسكراً اكثر رجالا وأوفر كراعا وأتم عدة وسلاحاً من عسكره وهو يعتقد أن اهل خراسان يحبونه وانه جاءه منهم كتب يعدونه فيها بالطاعة اذا جاءهم . ولما علم ان طاهر بن الحسين رئيس جند المأمون استخف به وقال إنما طاهر شوكة من أغصاني ومامثل طاهر يتولى الجيوش ثم قال لأصحابه « ما بينكم وبين أن ينقصف انقصاف الشجر من الريح العاصفة الا أن يبلغه عبورنا عقبة همذان فان السخال لا تقوى على النطاح والبغال لا صبر لها على لقاء الاسد وان اقام تعرض لحد السيف وأسنة الرماح واذا قاربنا الرى ودنونا منهم فت ذلك في أعضادهم » فصدق الامين قوله فولاه امرة الجند وأقطعه كور الجبل كلها وولاه حربها وخراجها وأعطاه الاموال وحكمه في الخزائن وجهز معه خمسين الف فارس وكتب الى أبي دلف العجلى وهلال الحضرمى بالانضمام اليه وأمده بالاموال والرجال شيئاً بعد شيء . وقد خرج ابن ماهان بحملته من هنا والناس يتوهمون أنه ظافر لا محالة لكبر سنه . ولما ذهب لوداع زبيدة أم الامين على جارى العادة كان همها وصايته ان يرفق بالمأمون اذا قبض عليه فقالت له « يا علي ان أمير المؤمنين وان كان مولدى واليه انتهت شفقتي فانى على عبد الله (المأمون) متعطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكروه وأذى وانما ابنى ملك نافس أخاه

في سلطانه الكريم يأكل لحمه ويقيه غيره فاعرف لعبد الله حق ولادته وأخوته ولا تجبهه بالكلام فانك لست بنظيره ولا تفتسره افتسار العبيد ولا توهنه بقيد ولا غل ولا تمنع عنه جارية ولا خادماً ولا تعنف عليه في السير ولا تساوه في المسير ولا تركب قبله وخذ بركابه وان شتمك فاحمل منه » ثم دفعت اليه قيداً من فضة وقالت « ان صار اليك فقيده بهذا القيد » فقال لها سأفعل مثل ما أمرت وأوصاه الامين أيضا بمثل ذلك . وقد علمت أن مولانا المأمون بعث في استقدام أهل بيته اليه ولا يلبثون أن يصلوا اليكم وانت تتوقع أن ترى ميمونة معهم فلا يشق عليك أن لا تراها فانها باقية هنا ولم أخبرك من قبل حتى لا أشغل بالك عليها . وأما الآن فلا سبيل الى كتمان ذلك عنك لانك ستعلمه من دنانير أو غيرها . فاعلم ان ميمونة مقيمة في بيت الخليفة ولا خوف عليها وسبب مجيئها اليه طويل ستقصه عليك دنانير شفاهاً ولا يزعجك ذلك طالما كنت في منصبي حريص على سلامتها والسلام » اه

فلما قرأ بهزاد الكتاب اسودت الدنيا في عينيه رغم ما حواه من الاخبار المبشرة بالنجاح بسبب ما جاش في صدره من عوامل الغيرة على ميمونة اذ تصور انها في بيت عدوه ونقم على سلمان لكتمان ذلك عنه ووقع في حيرة لا يدري ماذا يعمل أيخرج من مرو الشاهجان لملاقاة ابن ماهان في الري أم يمكث حتى تأتي دنانير ويستفهمها عن خبر ميمونة فغلب عليه هواه — والمحب مغلوب على أمره — ومكث ينتظر مجيء أهل المأمون ليطمئن على ميمونة قبل ذهابه للحرب . وعلمت والدته بذهاب الجند الى الري وعجبت لبقائه عندها فقالت له « ان الخنجر في هذا الصندوق ومتى أنت ذاهب ؟ »

فخجل وتناول الصندوق وقال « اني ذاهب الساعة وقد جئت لوداعك فادعي لي »

فكشفت عن صدرها وولت وجهها الى السماء وبسطت ذراعيها وصاحت « ان الله عونك على القوم الظالمين الذين قتلوا جدك غدراً وسلبونا حقوقنا وحرمونا من ثمار اتعابنا » ونهضت حتى ضمت بهزاد الى صدرها بحرارة

وقبلت عنقه وطال عناقها له . ثم أحس بماء ساخن ينحدر على عنقه ونفس حار يهب حوله فعلم أن والدته تبكي فأثر فيه ذلك كثيراً وكاد يبكي معها ولكنه تجلد وقال « لماذا تبكين يا أماه ؟ »

فرفعت رأسها عنه وقد تكسرت أهدابها من البكاء وبان الحزن والكآبة في وجهها وقالت أبكي ياولدى لانى لا ادرى هل أراك ثانية »

قال « ارجو ان اعود سالماً ظافراً واراك في صحة وعافية وتفرحي بما أصبناه من الانتقام لجدى »

قال ذلك وقبل يديها وما بين ثدييها وتناول الصندوق فاخرج الخنجر منه فتقلده ولبس ثياب السفر والتف بالعباءة فوق القباء والسراويل وتلثم بالكوفية فوق القلنسوة وجيء اليه بفرسه فركبه واراد أن يأخذ الصندوق معه فامسكت به امه وقالت « دع هذا الصندوق هنا وفيه رأسان عزيزان فاما ان تشفعهما برأس أو غير رأس من رءوس اعدائنا قتلة جدك او ان يبقى الرأسان هنا فنستأنف البكاء عليها حتى نموت »

فأثر قولها في نفسه وقال « بل أرجو ان لاتستأنفوا البكاء يا اماه » وترك الصندوق عندها وحول شكيمة جواده ومضى ولم يسر مسافة حتى انتبه لنفسه ورأى انه سيق الى ذلك الرحيل خجلا من والدته وقلبه لا يطاوعه على ترك مرو قبل مشاهدة دنانير واستطلاع حال ميمونة ونقم على سلمان لانه لم يبسط خبرها في كتابه

ظل بهزاد راكباً وهو يسير في أسواق مرو والجواد دليله حتى خرج من المدينة فلما صار خارجها اصبح يعلل نفسه في ملاقاة اهل بيت المأمون قادمين بقافلتهم في أثناء طريقه لان نفسه لم تطاوعه على الرجوع الى مرو بعد أن ودع والدته واخبرها أنه مسافر

الفصل التاسع والخمسون

حديث دنانير

قضى في طريقه أياما وعيناه شاخصتان الى الافق وكلما رأى قافلة أو فارساً أو جماعة ظن أهل بيت المأمون قادمين وما زال في ذلك حتى أصبح على بضع مراحل من مدينة الري حيث يقيم عسكر طاهر بن الحسين . واصبح ذات يوم وهو على مقربة من قافلة عرف عن بعد أنها تحمل نساء من اهل البيوتات لما فيها من الهوادج واحمال الثياب والخيام وما في خدمتها من الغلمان والعبيد فدنا منها وسأل مقدمها فاخبره انها تحمل بعض أهل المأمون فطلب مشاهدة دنانير فاخذوه اليها وهم يخافونه على ان بعض الغلمان عرفوه فدلوه على هودج دنانير فلما رأته امرت القوم في اناخة الاحمال قليلا فاناخوها وترجل بهزاد وأخذ في الاستفهام عن ميمونة فقال « كتب الى سلمان ان ميمونة في بيت الخليفة فما الذي ذهب بها الى هناك »

فقصت عليه خبرها كما وقع تماماً منذ جاءها الشاكري الى ان عادت هي وزينب من عند الامين خائبتين ..»

فقال « وماذا جرى لها بعدئذ ؟ »

قالت « لا بأس عليها في بيت الخليفة فقد وعد الامين ابنة اخيه أن لا يسمح بسوء يصيبها واظن سلمان خادمك حريصاً على راحتها ولا بد ان يتعهدها »

فظنها بهزاد تعرف اين هو سلمان فقال « وهل تعلمين اين هو سلمان »

قالت « لا ادرى من امر هذا الرجل شيئاً . . وربما غاب اشهراً ثم يظهر بغتة وقد رأيته قبل سفرنا وأوصاني أن اطمئنك عن ميمونة ولعله كتب اليك فوصل كتابه قبلنا لان الكتاب يرسل على هجين ونحن نسير بالاحمال والاثقال »

فلم ير بهزاد بداً من سرعة المسير الى بغداد للبحث عن ميمونة ولكنه

تذكر مهمته والحرب فقال « وهل رأيتم جنود الأمين »

قالت « رأيناها ورافقناها معظم الطريق »

قال « وأين هي الآن ؟ »

قالت « هي على عشرة فراسخ من الري وبلغني أن قائدها ابن ماهان مغرور بنفسه ومعتز بكثرة جنده واذا كان ما بلغني صحيحاً كان الخوف على طاهر شديداً »

قال « وما ذلك »

قالت « بلغني أن جند ابن ماهان يزيد على ٥٠٠٠٠ مقاتل ولا يزيد جند طاهر على ٤٠٠٠ »

فاطرق بهزاد ثم قال « ليست الغلبة للكثرة وانما هي للشجاعة والصبر »

قالت « ان الغلبة للشجاعة ولكن اربعة آلاف كيف يقفون أمام خمسين ألفاً وعلمت أيضاً أن طاهراً خرج بجنده القليل من مدينة الري وعسكر على خمسة فراسخ منها . ولو بقي في المدينة لكان له في حصونها ما يعصمه من الهزيمة »

قال « قد أحسن ابن الحسين لانه يخاف أهل الري اذا انهزم مثل خوفه جنود الامين . واذا أحسن الرأي بادر الى الحرب قبل ان يعرف عدوه قلة جنده »

فقالت « ويظهر انه عازم على ذلك وكنت احسب عمله خطأ فلم أصدق الخبر عنه وذلك أن بعض اصحاب طاهر قال له « ان جندك القليل قد هابوا هذا الجيش الكثير فلو أخرت القتال الى ان يشامهم أصحابك ويأنسوا بهم ويعرفوا وجه المأخذ من قتالهم » فقال « إني لا أوتي من قلة تجربة وحزم ان اصحابي قليل والقوم عظيم سوادهم كثير عددهم فان أخرت القتال اطلعوا على قلتنا واستمالوا من معي برغبة ورهبة فيخذلني أهل الصبر والحفاظ ولكني ألف الرجال بالرجال وأقحم الخيل على الخيل وأعتمد على الطاعة والوفاء وأصبر صبر محتسب للخير حريص على الفوز بالشهادة فان نصرنا الله فذلك الذي نريده ونرجوه وان تكن الاخرى فلست بأول من قاتل وقتل وما عند الله أجزل وأفضل »

فأعجب بهزاد ببسالة طاهر وحزمه وأحب الفراغ من الحديث فقال « فالآن انتم ذاهبون الى مرو.. »

قالت « نعم . وانت ؟ »

قال « انى سائر الى الري ثم الى بغداد ... أين أم حبيبة ؟ »

قالت « في هودجها هل تريد ان تراها ؟ »

قال « كنت أود ذلك لولا العجلة أهديها سلامي واسمحي لى بالانصراف »

قال ذلك وركب فرسه وودعها وانطلق يتنازعه عاملان — يدعوه الواجب الى نصرة طاهر في حرب ابن ماهان ويستحثه قلبه على السعى في انقاذ حبيبته من بين يدي أعدائه وقد زاد رغبة في ذلك بعد ان فهم من خلال حديث دنانير ان السبب في انتقال ميمونة الى بيت الامين رغبة ابن الفضل في التزوج بها — وكيف يصبر على ذلك وان اكدت له دنانير ان الرجل لم يبق له سبيل اليها طالما كانت في بيت الامين ولكن المحب كثير المخاوف سيء الظن

الفصل الستون

ساحة الحرب

ما زال سائراً على فرسه وقد التف بالعباءة وتلثم بالكوفية وتقلد الخنجر تحت العباءة فضلا عن السيف ومر بالري في الضحى وتأكد من أحاديث القوم ان طاهراً ينوى المبادرة الى القتال قبل أن يكتشف عدوه قلة رجاله . ولم يسر طويلا حتى سمع قرع الطبول للحرب وقد علت الضوضاء وتصاعد الغبار فصعد الى اكمة أشرف منها على سهل فرأى الجيشين قد تأهبا للقتال والفرق بينهما كبير فأوجس خيفة على جند طاهر وصمم على ان لا يبرح المكان حتى يرى النصر لجند المأمون ولو كلفه ذلك حياته . وكان ابن ماهان قد عبأ جنده ميمنة وميسرة وقلبا وعبأ عشر رايات مع كل راية مائة

رجل وقدمها راية وجعل بين كل رايتين غلوة سهم وامر امراءها اذا قاتلت الراية الاولى وطال قتالهم أن تتقدم التى تليها وتتأخر هي حتى تستريح ووقف ابن ماهان نفسه مع شجعان أصحابه

أما طاهر فانه عبأ أصحابه كراديس كل كردوس كتيبة بصفوفها وكردوس طاهر في الوسط ومشى بجنده على هذه الصورة وهو يحرضهم على القتال والصبر . ولحظ بهزاد ان جماعة من رجال طاهر فروا الى ابن ماهان فشق ذلك عليه ولكنه لو علم سوء تدبير ابن ماهان وانه بدلا من ان يكرم اولئك الفارين ليرغب غيرهم في المسير اليه امر بجلدهم واهانتهم وتعذيبهم مما اغضب الباقين عليه . وظل بهزاد واقفاً وعيناه شاخصتان وقلبه يخفق رغبة في الاشتراك في تلك المعركة ولكنه لبث يترقب الفرصة المناسبة

وبهزاد واقف على تلك الصورة اذا بطاهر بن الحسين على فرسه قد خرج من جنده حتى اشرف على جند ابن ماهان وبيده رمح قد اشرعه وفي رأسه رق كبير علم من شكله انه صورة البيعة التى اعطيت للمأمون . فوقف طاهر بين الصفين وطلب الأمان من ابن ماهان حتى يتكلم فامنه فرفع الرمح بيده والبيعة معلقة به وقال « ألا تتقي الله عز وجل اليس هذه نسخة البيعة التى اخذتها أنت خاصة ؟ . اتق الله فقد بلغت باب قبرك »

فغضب ابن ماهان لهذه الاهانة وأمر بالقبض على طاهر فلم يستطع أحد ذلك . ولم يسمع بهزاد شيئاً من كلام طاهر لبعده ولكنه فهم مغزاه . وما عتم ان رأى الجيشين يتحركان للالتحام فهجمت ميمنة ابن ماهان على ميسرة طاهر فانهزمت هذه هزيمة منكرة وفعلت ميسرة ابن ماهان مثل هذا الفعل على ميمنة طاهر فازالوها فخاف بهزاد وتحركت حميته واوشك ان يسوق جواده الى وسط المعركة لينصر طاهرا ولكنه تجلد ليرى له مدخلا نافعاً . وما فتىء يستجمع الهاربين ويردهم ويحرضهم على الرجوع وهو يجول على جواده ملثما ويخاطب الفارين بالفارسية بكلام محمس ويعيرهم بالفرار ويحقر ابن ماهان ورجاله في اعينهم فكان لكلامه وقع شديد على نفوسهم فاخذوا يرتدون

وكان طاهر من الجهة الاخرى يحرضهم على الثبات والصبر فصبروا واجتمعت قلوبهم وحملوا على عدوهم حملة شديدة من جهة القلب فهزموهم واكثروا فيهم القتل ورجعت الرايات بعضها على بعض فانتقضت ميمنة ابن ماهان وكانت ميمنة طاهر وميسرته قد تشددتا من كلام بهزاد وعادتا الى المعركة فتشدد قلب طاهر وقوى جنده كأن بهزاد بث فيهم روحاً جديدة فتقهقر جند ابن ماهان تقهقراً قبيحاً

فلما رأى ابن ماهان تقهقر جنده اخذه الرعب وخاف الفشل فنهض بنفسه وأقبل يحرض رجاله على الثبات ويعدهم بالمال ويقبح عمل طاهر ورجاله فرأى بهزاد الفرصة قد آنت للعمل وان هذا الانكسار لا يكون قاضياً باتاً إلا اذا قتل القائد الكبير فكر بنفسه كالصاعقة ويده على خنجره لا يبالي بما يتساقط حوله من النبال أو يتكسر من الحراب حتى دنا من ابن ماهان وصاح فيه « قف ايها القائد ولا تقل إني أخذتك غدراً »

فتحول ابن ماهان نحو بهزاد ولم يعرفه من تحت اللثام لكنه استل سيفه وضربه فخلا بهزاد من الضربة واستل خنجره كالبرق الخاطف وطعنه في صدره فخر قتيلا ورجع بهزاد من المعركة وقد اكتفى بما فعله ولم يعد يراه أحد . وشاع في العسكر أن ابن ماهان قتله أحد رجال طاهر بسهم ثم احتز بعضهم رأسه وحمله إلى طاهر وشدت قدماه الى رجليه كما يفعلون بالدواب وحمل على خشبة الى طاهر فأمر به فالقي في بئر . واعتق طاهر من كان عنده من غلمانه شكراً لله تعالى وتمت الهزيمة على جند الامين ووضع أصحاب طاهر فيهم السيوف وتبعوهم فرسخين واقاموا فيهما اثنتي عشرة مرة في كل ذلك ينهزم عسكر الامين وأصحاب طاهر يقتلون ويأسرون حتى حال الليل بينهم وغنموا غنيمة عظيمة . ونادى طاهر « من القى سلاحه فهو آمن » فطرحوا أسلحتهم ونزلوا عن دوابهم ورجع طاهر الى الري وكتب الى المأمون وذي الرياستين « بسم الله الرحمن الرحيم كتابي الى أمير المؤمنين ورأس علي ابن عيسى بن ماهان بين يدي وخاتمه في اصبعي وجنده مصرفون تحت أمري والسلام » فورد الكتاب مع البريد في ثلاثة أيام وبينهما نحواً

من خمسين ومائتي فرسخ. فدخل ذو الرياستين على المأمون فهنأه بالفتح وأمر الناس فدخلوا وسلموا عليه بالخلافة ثم وصل الرأس بعد الكتاب بيومين فطيف به في خراسان

الفصل الحادي والستون

موكب زبيدة

ولنعد الى ميمونة فقد تركناها في بيت الامين ببغداد كأنها على مقالي الجمر وحيدة غريبة لم تر سلمان ولا عرفت مقره حتى ظنته مات أو لحق ببهزاد واشتاقت الى جدتها واستوحشت لبعدها وهي لا تعرف مكانها فكانت تقضي نهارها منفردة تتظاهر بانحراف في صحتها أو دوار في رأسها فاذا خلت بنفسها استخرجت كتاب حبيبها وقبلته وكررت قراءته استئناساً بصاحبه. وكلما كررت ما قاله من عبارات النقمة على العباسيين وتهديده ايام بالانتقام يختلج قلبها في صدرها حذراً من وقوع ذلك الكتاب في يد بعض أعدائها ولكنها كانت حريصة على اخفائه لا تثق باحد ممن حولها من الجواري أو الوصائف. ولم تكن تثق بغير فريدة قهرمانة القصر لان دنانير قد اوصتها بها وهي من صديقات دنانير المعجبين بتعقلها وحكمتها. فكانت ميمونة ترتاح الى فريدة ولكنها تخافها على سرها لعلمها بتفشي الجاسوسية فلم تطلعها على شيء من أمر الكتاب أو بهزاد على أنها مع ذلك لم تعد تسمع شيئاً عن بهزاد ولا سبيل الى أخباره الا على يد سلمان وهذا لم يعد يظهر لها ولا هي تعلم انه في ذلك القصر على قاب قوسين منها وانه اختفى عنها لغرض في نفسه

قضت في ذلك أياما لا تدري ما يصير اليه أمرها ولا تبالي بما تراه في جواري القصر ونسائه من الاشتغال باللهو والضحك أو سماع الغناء أو الضرب بالآلات أو غير ذلك فاذا رأتهم في مجلس انس انفردت

في غرفتها واستخرجت كتاب بهزاد وأخذت تقرأه فاذا سمعت وقع خطوات أو صوت متكلم أخفت الكتاب في جيبها . واتفق مرة أنها أحست بالوحشة وأرادت الاستئناس بذلك الكتاب فأرادت تناوله من جيبها فلم تجده فأحست كان قلبها سقط بين قدميها وأعادت البحث جيداً فلم تقف له على أثر فخافت خوفا شديداً وزادت وحشتها من الانفراد هناك وأحست بافتقارها الى رفيق يؤنسها فلم تجد خيراً من أن تستدعي جدتها اليها فكتبت الى دنانير بطاقة تشكو فيها استيحاشها وتسأل عن جدتها وتوسلت الى القهرمانة في إيصال تلك البطاقة الى دنانير في قصر المأمون وكانت فريدة تتمنى القيام بخدمة وفاء لحق دنانير فأسرعت في ارسال البطاقة سراً

فلما وصلت البطاقة الى دنانير اهتمت بها كثيراً لانها تحب ميمونة وتحب لها الراحة فسعت في ارسال جدتها اليها بعد أن أطلعتها على بطاقتها فقالت عبادة « ارسليني اليها ودعيني أموت عندها وكنت أحسبها يطلق سراحها في بضعة أيام فاذا هي باقية الى أجل غير مسمى »

فقالت دنانير « هل تذهبين اليها متنكرة ؟ »

قالت « أخاف اذا عرفوني أن يزيدوا التضييق على ميمونة »

فقالت « أرسلك الى صديقتي فريدة وأخبرها انك مربية ميمونة وأوصيها أن تقيمك معها ولا أظنها الا فاعلة »

فأثنت عبادة على غيرتها ولبست ثيابها وودعتها وركبت حماراً نحو مدينة المنصور والرسول يسير معها حتى أتيا قصر المنصور فدفع الرسول كتاب دنانير الى القهرمانة فأدخلت عبادة الى القصر ولم تخف عليها حقيقة حالها كما انها لم تكن تجهل من هي ميمونة لكنها تجاهلت في الحالين رغبة في اخفاء ذلك عن سائر أهل القصر لأنها كانت من جملة الذين غمرتهم نعم البرامكة وحملوا على كتمان شكرهم . ولاتسل عن سرور ميمونة بجدتها حتى أصبحت لا يهمها احتباسها هناك اذا طال . ولم تجد بدا من اطلاعها على مادار بينها وبين بهزاد وما تبادلاه من عواطف المحبة حتى بلغت الى الكتاب فاخبرتها بضياعه ولم تكن عبادة غافلة عما بين الحبيبين ولكنها كانت تتجاهل أحيانا وقد ساءها

جداً ضياع كتاب بهزاد في ذلك القصر وأصبحت تخاف عاقبة ضياعه

أما سلمان فكان في أثناء ذلك يسعى في اغراء الامين على خلع أخيه بواسطة الفضل بن الربيع وابن ماهان . فالح الفضل على الامين بخلعه خدمة لمصلحة نفسه لانه كان يخاف انتقام المأمون منه اذا أفضت الخلافة اليه . وكان الامين يتردد في الأمر ان لم يكن خوفا من العواقب فحفظا للعهد او عملا برابطة الاخاء فلما سمع مشورة الفضل مال الى العمل بها وبقي عليه ان يشاور والدته زبيدة لانه كان شديد الاعتقاد بسداد رأيها وهي تقيم يومئذ في قصرها دار القرار بقرب قصر الخلد فتردد بين ان يركب اليها او يستقدمها اليه في قصر المنصور

فكر في ذلك حينا ثم غلب عليه اللهو فاشتغل بصيد السمك من بركة كبيرة في حديقة القصر فيها سمك مجلوب اليها فحمل قصبه فيها صنارة وجعل يصطاد السمك من تلك البركة وحوله جماعات من الوصفاء الخصيان بالبسة النساء يعدون بين يديه في تهيئة الصنارة او تنفير السمك من بعض اطراف البركة الى حيث الق صنارته وبعضهم يحملون شباكا وآخرون يعدون القصب او الصنانير او غير ذلك وهو مشتغل بلهوه معجب بنشاطه يداعب الوصفاء اظهاراً لقوة عضله فيلتقط احدهم بيده ويرفعه حتى يلقيه في الماء فيضحك الباقون منه ويطرون قوة امير المؤمنين ويعاجزون عن الاتيان بمثلها وبالحقيقة ان الامين كان قوي البدن كثيرا حتى ذكروا انه صارع الاسد وصرعه

وهو في لهوه جاء بعض الغلمان يقول ان موكب مولاتنا والدة امير المؤمنين قادم »

فسره قدومها وتذكر رغبته في استشارتها فامر باعداد ما يلزم لاستقبالها فاخذ قيم القصر وقيمته في ترتيب الوصائف والوصفاء صفوفاً وفي جملتهم فرقة من الجواري المقدودات الحسان كانت والدته زبيدة قد اهدتهن اليه لما رأت اشتغاله بالخدم والغلمان عن النساء فاتخذت هؤلاء الجواري والبستهن لباس الغلمان فعممت رءوسهن وجعلت لهن الطرر والاصداغ والاقفية والبستهن الاقفية والقراطق والمناطق فبانت قدودهن وبرزت ارداقهن وبعثت بهن اليه

فاختلفن بين يديه فاستحسنهن واجتذبن قلبه وأبرزهن للناس (١) من الخاصة والعامة فقلده بعضهم فى ذلك . فلما سمع بقدوم والدته في ذلك اليوم علم أنه اذا لاقاها بصفوف بينها صف من أولئك الجواري تسر منه فامر الفيم بترتيب الغلمان صفوفاً يرأسها كوثر الذي اشتهر بافتتانه به (٢) فصفت فرق الخصيان والجواري فضلا عن الغلمان الجرادية والحبشان الغرابية وكل فرقة بلبس خاص وألوان خاصة ومن أشكال الالبسة القصير والطويل بين أحمروازرق وسماوي ووردي وأصفر وفيهم الغلمان بالبسة النساء والنساء بألبسة الغلمان يتخللهم العوادون وأصحاب الطنابير والمزاهر

فاصطف الخدم على هذه الصورة من باب القاعة إلى باب القصر الخارجي صفوفا وبين يدي الصفوف غلمان بعضهم يحرق البخور وآخرون يحملون الازهار وآخرون ينشدون الاشعار ومشى الأمين بين الصفين لاستقبال والدته الى باب القصر . وكانت في قبة من خشب الصندل منزلة بالفضة والآبنوس عليها ستائر من الوشي معلقة بكلاليب الذهب والفضة . والقبة قائمة على هودج يحمله بغلان عليها سرجان من الفضة يقودها غلمان عليهم أقبية من الديباج المزركش وقد نقشت عليها اشارة الدولة لانهم من الجند . وفاحت رائحة المسك عن بعد

فلما وقف ذلك الهودج بباب القصر تنحى الوقوف إلا كبير الخصيان فاعان السيدة زبيدة في نزولها فتقدم الامين وقبل مابين ثدييها فقبلت رأسه ومشت بخفين مرصعين بالجوهر (٣) وعلى رأسها نقاب محاك بالذهب في حاشيته صور مرصعة بالحجارة الكريمة ويلوح من خلال النقاب عصابتها المرصعة وعقود الجوهر في عنقها والقراطق في اذنيها . وعلى كتفها مطرف ذهبي اللون التفت به فغطى منكبيها وجنبيها وظهر سائر ثوبها تحت ذلك من الحرير الوردي يغطي قدميها من الخلف ولا يغطيهما من الامام لتظهر خفافها المرصعة وهي أول من رصع الخفاف في الاسلام . على أن من يلقى زبيدة لا يشغله لباسها

(١) المسعودي ج ٢ (٢) ابن الاثير ج ٦ (٣) الاغاني

الفاخر الثمين عما في محياها من الجمال الجاذب وما يتجلى فوق ذلك من ملامح العظمة ودلائل الابهة والجلال

ولم تطأ قدماها باب القصر حتى انتشر خبر قدومها فبلغ عبادة فارتعدت فرائصها وخفق قلبها وأحبت الانزواء لئلا يظهر ذلك عليها أما ميمونة فكانت كثيرة الشوق لمشاهدة موكب أم الخليفة وقد طالما سمعت عنها وعن عظمتها فأطلت من جملة المطلين من كوى القصر خفية فأعجبت بجمال تلك المرأة وهابت جلالها

الفصل الثانى والستون

خلع المأمون

ظل الامين ووالدته سائرين الى قاعة خصوصية عملا باشارتها لانها تحب مخاطبة ابنها في شأن خاص فسره هذا الطلب لانه يحب مشاورتها أيضاً وقبل جلوسها جاءت المواشط فنزعن عنها بعض ما يثقلها من الالبسة ووقفت بعض الوصائف والغلمان يروحن بالمذاب بين يديها واشتغل آخرون باعداد الشراب والطعام . أما هي فقالت « أحب أن أراك يا محمد على انفراد ولا أرب لي في الطعام »

فاشار الامين فخرج الجميع ولم يبق إلا هو ووالدته فجلست على السرير وأشارت الى محمد ان يجلس بجانبها فجلس وهو يقول « ما أسعد هذه الساعة يا أماه ... كأنك جئت على موعد فقد كنت في هذا الصباح اهم بالذهاب اليك أو استدعائك إلي لاستشيرك في بعض الشؤون فاذا انت قادمة الى من تلقاء نفسك فتفاءلت بذلك خيراً »

فابتسمت مسايرة لابنها والغضب باد في عينيها وقالت « خيراً ان شاء الله ولكنني جئتك لأمر آخر يهمني ويهمك . . »

فاهتم الامين بقولها وقال « وما ذلك يا أماه ؟ »

قالت « ألا تزال تلك البقية الضالة عندك ؟ »

فلم يفهم مرادها واستفهمها قائلا « ومن تعنين ؟ »

قالت « اعني ابنة عدونا الذي تعمد خلعك من ولاية العهد وأغرى أباك الرشيد على مبايعة ابن مراجل »

فادرك انها تعني ميمونة بنت جعفر فقال « نعم يا سيدتي لا تزال بين جواري القصر »

قالت « وكيف أبقيتها ولم تخف شرها ؟ »

قال « لأني وجدتها يتيمة مسكينة لاضرر منها وقد أوصتني ابنة أخي بها خيراً بعد أن يئست من اطلاق سبيلها فأبقيتها هنا اتقاء ما ربما نخشاه منها »

قالت « يتيمة مسكينة ! تباً لها من خائنة غادرة . . . وأغرب من ذلك أن تقبل شفاعة ابنة أخيك بها واخوك أشد عداء لك من أعدائك . . . ألم يستعن عليك بالخراسانيين ! واذا أتيح له أن يخلعك عن هذا العرش ألا تظنه يفعل ؟ ومن أوجد هذا الغرور في نفسه اليس جعفر بن يحيى والد هذه الفتاة ؟ وكان أبوك رحمه الله أدرى منك باقدار الرجال فقتله شر قتله ولو لم يبادر إلى قتله ماجلست أنت هذا المجلس . . وتقول بعد ذلك انها يتيمة مسكينة وان ابنة أخيك أوصتك بها خيراً ؟ ان أخاك غلب فيه دم الفرس على دم الهاشميين فأخذ من أمه مراجل أكثر مما أخذ من أبيه الرشيد ولذلك رأيته يستعين باخواله علينا »

قالت ذلك وقد حمي غضبها وامتقع لونها وذهب احمرار شفتيها وتورد وجنتيها وظهر الغضب في عينيها ووافق ذلك مايجول في خاطره من خلع أخيه فاراد أن يجعل ذلك برأيها فقال « ألم يكن والدي بايع لي ولأخي عبد الله بالخلافة بعهد علقه بالكعبة ؟ . . . »

فقطعت كلامه وقالت وصوتها مختنق من الحنق « لاقيمة لذلك العهد لانه كتب باغراء ذلك الوزير الخائن رغبة في إخراج الخلافة من بني هاشم على يد أخيك هذا وهل يصلح أبناء الجواري للخلافة إذا وجد أبناء الاحرار

ايقاس ابن الجارية مراجل بابن زبيدة بنت جعفر ؟ . . اتعلم من هي مراجل وكيف اتصلت بأبيك حتى ولدت عبد الله؟»

قال « لا »

قالت « أنا أقص عليك خبرها . . كانت مراجل من جملة جوارى مع مارية وفاردة وغيرهما فرأيت والدك رحمه الله مشتغلا عني بزيارة مغنية كانت ليحيي وزيره اسمها دنانير كان يقضي أكثر اوقاته عندها فشكوته إلى أعمامه فشاروا على ان أشغله عنها بجوار أهديهن اليه فاهديته عشر جوار منهن مراجل(١)هذه وهي فارسية فولدت له عبد الله فرباه جعفر من صغره على حب الفرس حتى جرى ماتعلمه . فكيف يكون هو في مقامك .؟ وهذا العهد الذى أشرت اليه في الكعبة ابعث من يأتي به ومزقه لانه كتب خداعاً »

فسري عن محمد وقال « اذاً انت ترين ان اخلع اخي عبد الله من ولاية العهد! »

قالت « أولم تخلعه بعد ؟ اخلعه قبل أن يخلعك »

فاعتدل في مجلسه وقال « قد كنت عازماً على استشارتك في ذلك فوافق رأيك رأى وزيري الفضل »

قالت « اخلعه وبايع لابنك موسى وان كان صغيراً فتكون الخلافة أعرق في بني هاشم لأنه لم يولد لبنى العباس خليفة والداه هاشميان إلا أنت فاولادك أعرق في النسب الهاشمي من سائر العباسيين »

فانبسطت نفس الأمين وسكت وهو مطرق فابتدرته زبيدة قائلة « ولنعد الآن الى تلك الفتاة الخائنة فما اجدرك ان تقتلها وتتخلص منها »

قال « اقتلها ؟ واي ذنب اتت وما الذي نخافه من بقائها حية ؟ »

قالت « انك غافل يا محمد عما يجري حولك وقد شغلك اللهو عن دسائس الملقين . . أما أنا فساهرة على مصلحتك اعلم ما يجري في قصرك وفي غرف منامك . . وقد قلت لك ان بقاء هذه الفتاة في قصرك أكثر خطراً

(١) الاغاني ١٦

عليك من بقاء ولاية العهد لاخيك . . اقتلها . . » فاستغرب الأمين تشديدها وهو لم ير في الفتاة مايوجب ذلك فقال « لاشيء على اذا قتلتها ومثلها مئات بل الوف في قصري ولـكنني وعدت أم حبيبة باستبقائها و . . . »

فلم تمالك زبيدة عند سماعها قوله عن النهوض غضباً وصاحت انك لاتزال ساذجا تجوز عليك الالاعيب . . ولو كنت ذا دهاء لـكان لك بتوسط بنت عبد الله ببقائها عندك مايبعث على الشك فيها . . اعلم ان ميمونة هذه مخطوبة لاكبر أعداء العباسيين وبينها وبينه مكاتبة تشف عن تعمده الانتقام لابي مسلم الخراساني وجعفر بن يحيى وهو يعد العباسيين خائنين غادرين واذا لم تصدق قولي فاقرأ هذا الـكتاب » قالت ذلك واستخرجت من جيبها لفافة فيها كتاب بهزاد وناولته الى الامين

فتناول الامين الـكتاب وطفق يقرأه ولم يصل إلى آخره حتى ارتجفت يداه وارتعشت أنامله لما حواه من الطعن في العباسيين والنقمة عليهم وتهديدهم فنظر الى والدته وكانت قد قعدت واتـكأت على الوسادة وأخذ الغضب منهـا مأخذاً عظيما فالتفتت اليه وقالت « أرأيت هذه اليتيمة المسكينة !وهذا خطيبها يقول اننا غلبنا بالغدر والخيانة وانه سينتقم لوالدها وإنه ذاهب إلى خراسان لهذه الغاية فكيف تبقى هذه هنا في قصرك وبين جواريك تطلع على أحوالك ومساعيك ألا يكون مكثها هنا خطراً على تدبيرك وأسرارك ! »

فدهش الامين لسهو والدته على مصلحته وقال « كيف توصلت الى هذا الـكتاب ومن أتاك به »

قالت « أتيت به من وسط قصرك لاني ساهرة وأنت نائم ولا فائدة من الـكلام . . »

فتحمس « وقال انى آمر بالقائها في قاع دجلة الساعة »

قالت « أتلقيها في دجلة بلا سؤال ولا جواب ؟ »

قال « وأتخلص منها »

قالت « ما أبسط قلبك ! . ان مثل هذه قبل أن تقتلها يجب ان تستطلعها ماتعلمه من احوال أعدائنا اذ لايخلو أن تكون مطلعة على اسرارهم ومتى نلت

مرادك منها اقتلها أو اغرقها أو كانشاء »

قال « أدعوها اليك الساعة ونسألها معاً ؟ »

قالت « افعل »

فصفق لجاءه احد الغلمان فقال « الي بالجارية ميمونة »

وكانت ميمونة منزوية مع جدتها في ابعد غرف القصر خوفاً من ان تراها زبيدة . وعبادة تتوسل إلى الله ان ترجع زبيدة قبل ان تراها واذا بالغلام جاء يدعو ميمونة الى امير المؤمنين . فلما سمعت عبادة قوله سقط في يدها وتحققت ان زبيدة اتت لتحرض ابنها على الايقاع بها بعد مقابلتها تلك فندمت على ذهابها اليها . ولم تجد ميمونة بدا من الطاعة فتبعت الغلام حتى اتي القاعة فدخل وقال « الجارية بالباب يامولاى »

قال « تدخل »

فدخلت وهي مطرقة خجلا وركبتاها تصطكان من الخوف فوقع نظرها على زبيدة وهي متكئة وقد زادها الغضب هيبة ورهبة والامين جالس بجانبها كانه بعض غلمانها فوقفت وحيت فابتدرها الأمين قائلا « تقدمي ياميمونة »

فمشت نحوه وهي تنظر الى الارض وقد اخذتها الرعدة من الخوف فاذا هو يمد يده وفيها الكتاب ويقول « أتعلمين لمن هذا الكتاب ؟ »

فلما وقع نظرها على الكتاب عرفته حالا وأيقنت بافتضاح سرها فلم تعد يدها تطاوعها على استلامه من شدة الارتعاش فتناولته وأناملها ترتعد فسقط من يدها فانحنت لالتقاطه عن البساط فسقطت واهنة القوى ولم تعد تستطيع الوقوف وانحدرت دموعها على خديها وحاولت التجاهل والتشاغل بمطالعة الكتاب فلم تستطع وغلب عليها البكاء فتربعت عند قدمي الامين تقبلهما وتبكي ولا تفوه بكلمة

فصاحت زبيدة فيها « ويلك ما يبكيك ؟ أتظنين البكاء ينجيك . . من هو هذا بهزاد أليس حبيبك حامل سيف النقمة على العباسيين ؟ » ثم استدركت أنها يجب أن تحتال في كشف سرها فعمدت الى الملاينة فقالت « ولكن لا تخافي

إنما ينجيك الصدق . . قولي لنا أين هو حبيبك الآن وما الذي تعرفينه من أحوال الخراسانيين فاذا صدقتنا اطلقنا سراحك وأبقينا عليك والا فانك مقتولة »

فقالت وصوتها يتقطع من البكاء « ثقي ياسيدتي . . . اني لا أعلم شيئاً غير ما في هذا الكتاب وقد تفهمين من تلاوته انني . . . لم أكن أعرف هذا الشاب قبل هذا الكتاب وأقسم برأس امير المؤمنين اني لم اعد اعرف شيئاً عنه بعد تلاوته »

فضحكت زبيدة ضحك الاستخفاف وقالت « وتقسمين برأس أمير المؤمنين ؟ »

قالت « أقسم به . . لاني صادقة في قسمي »

فقال « الامين اصدقينا يابنية ولا خوف عليك واذا لم تقولي الصدق أتينا برئيس المنجمين في هذه الساعة فيكشف مكنونات صدرك . . فاذا اطلعنا على شيء تنكرينه كان جزاؤك العذاب الاليم »

قالت « الامر لأمير المؤمنين وليس عندي غير الذي قلته »

الفصل الثالث والستون

المندل

فصفق الامير وأمر الغلام أن يستدعي رئيس المنجمين فذهب الغلام وكانت ميمونة قد وقفت متأدبة فامرها الامين بالجلوس فجلست ولم تكن تعلم ان رئيس المنجمين هو سلمان نفسه وكانت تظن سلمان هرب او مات لطول غيابه عنها وبعد قليل اقبل الملفان سعدون بعمامته الكبيرة السوداء وجبته الطويلة وتحتها الثوب العسلي وقد تمنطق بزنار غرس فيه الدواة ولبس لحية كثيفة مسترسلة دب فيها الشيب تتصل من الجانبين بسالفين كثيفين وغير ذلك من قيافة الحرانيين اهل الذمة وهي تخالف ما تعرفه ميمونة عن سلمان ولو خامرها شك فيه ربما عرفته من عينيه وانفه

ودخل سعدون وحيا ووقف متأدباً وقد تأبط الكتاب وعيناه تختلسان النظر الى اهل ذلك المجلس فرأى ميمونة وزبيدة وعرفهما ووقع بصره على كتاب بهزاد بين يدي الامين فعرفه حالا لانه هو الذى حمله الى ميمونة فادرك لاول وهلة سبب طلبه وتجاهل . فامره الامين بالقعود بلا حجاب او ستر بينهما فقعد جاثياً وعيناه لا تتحولان عن الارض فابتدره الامين قائلا « دعوناك يامفان سعدون نطلب اليك ان تستطلع لنا سر هذه الجارية فقد سألناها فأنكرت وهددناها باستطلاع سرها على يدك . . . فاصدقنا »

وكانت زبيدة جالسة تنظر الى المنجم ولا تتكلم ريثما ترى علمه . وكانت قليلة الايمان بمقدرة المنجمين واذا رضيت باستدعاء المنجم ساعتئذ ارهاباً لميمونة لعلها تعترف بما عندها خوفاً من العقاب . أما سعدون فاستخرج كتابه والتمس ان يؤتى اليه بكانون فيه نار من خشب الزيتون زعم ان المندل لايتم إلا اذا كانت من ذلك الخشب وهو هين في بلاط الخلفاء فاتوه بالنار في شبه مبخرة من الفضة وضعوها على طبق بين يديه وهو يشتغل بالقراءة والتمتمة وسائر الحضور سكوت . ثم اخرج من جيبه قطعة بخور القاها في النار وطلب قدحاً فيه ماء فأتوه به فاخذه بيساره بين الابهام والسبابة وتفرس في الماء حيناً ثم استأذن الخليفة في ميمونة ان تتقدم نحوه وتضع يدها على كتابه فتقدمت وهي ترتعد خوفاً ووضعت كفها على ذلك الكتاب . وتناول سعدون يدها الاخرى وقرأ اساريرها ثم رفع يدها عن الكتاب واجلسها وفتح الكتاب وقرأ همساً وهو يبتسم ابتسام الفائز ويهز رأسه ثم نظر الى الأمين قائلا « ان لهذه الفتاة حديثاً طويلا وان لها لشأنا »

فضحكت زبيدة استخفافاً بهذه النبوة لانها لاتدل على معرفة فأدرك سعدون غرضها فنظر اليها وهو يتحاشى التفرس في وجهها تأدباً وقال « لاأقول ذلك تعمية أو ابهاماً ولكنني اعني انها ليست من عامة الناس بل هي من أصل عريق في الكرامة والوجاهة وان كانت اليوم في جملة الجواري

فقطعت زبيدة كلامه قائلة « اذا كنت على ثقة مما تقول فانبئنا عن حقيقة حالها بصراحة . . »

قال « واقول ذلك بوجودها ؟ »

قالت « قل »

فاعاد النظر الى القدح ثم نظر في وجهها وقال « انها بنت وزير مات مقتولا »

فلما قال ذلك اقشعر بدن الفتاة وامتقع لونها والتفت الامين الى امه لفتة ظافر بصدق ظنه فرآها لا تقل دهشة عنه ولكنها تجاهلت وقالت « ربما كنت مصيباً بما قلته » ومدت يدها الى كتاب بهزاد وقبضت عليه بكفها وقالت « وما الذي بيدي ؟ »

قال « كتاب »

ففهقهت وقالت « بورك بمهارتك . . ان الاطفال يعرفون ذلك ولكن اذا كنت رئيس المنجمين كما يسمونك قل ماهو فحوى هذا الكتاب »

قال « يسوؤني يا سيدتي استخفافك بعلمي وقد يجدر بي بعد ما سمعته ان أسكت عما أعلمه ولكنني أقول لك انك تقبضين على كتاب من نار بل النار أخف وطأة على هذه اليد اللطيفة من فحوى هذا الكتاب . . ان بيدك كتابا من رجل فارسي الى هذه الفتاة وفيه من نصرة الفرس والغض عن مقام العباسيين ما يسوؤك ويسوء مولاي أميرالمؤمنين . واذا لم يقنعك هذا الاجمال فصلته تفصيلا — ان هذا العلم لم يكذبني من قبل ولا أدري اذا كان قد صدقني الآن »

فبغتت زبيدة ولم تعد تستطيع غير الاعجاب فقالت « صدقت أيها الملقان واذ قد علمت سر الكتاب اعلمنا عن صاحبه أين هو الآن؟ »

قال « هو بعيد ياسيدتي . . انه في خراسان »

قالت « وما علاقة هذه الفتاة به ؟ »

قال « انها علاقة قريبة العهد واذا ادعت غير ذلك فانها كاذبة . . ولا يجوز ان تسئل عما حواه الكتاب من عبارات التهديد او الانتقام لانها كانت خالية الذهن منه حين وصوله اليها ثم لم تعد تعلم شيئاً عن صاحبه »

وكانت ميمونة أكثر استغرابا لما سمعته من الجميع لان الرجل

قرأ ما في ضميرها ولو أرادت هي أن تعبر عن احساسها لم تستطع تبيانه باوضح من ذلك فاشرق وجهها وبانت الطمأنينة في محياها ونظرت الى الامين نظر الاسترحام وظلت ساكتة »

أما زبيدة فخفت نقمتها عن ميمونة وان كانت لا تزال تكرهها فقالت لسعدون « اتعتقد براءة هذه الجارية ؟ »

قال « هذا ما ظهر لي بالمندل وعهدي بهذا العلم أن يصدقني ولو سألت أمير المؤمنين لأيد قولي بما علمه بالاختبار »

فأشارت الى ميمونة أن تخرج فخرجت وهي لا تصدق أنها نجت ، ثم التفتت زبيدة الى الملفان سعدون وقالت « اني واثقة بعلمك أيها الملفان ولكن قلبي لا يزال واجساً من امرها »

قال « لانك تكرهينها ولا عجب فان والدها أساء اليك والى سيدي أمير المؤمنين واذا شئت ان أعيد المندل في فرصة أخرى فعلت . واذا أذن أمير المؤمنين أن أجالسها مرة اخرى على انفراد زدته تفصيلا عن احوالها »

فقال الامين « لك ذلك ايها الملفان » ونظر الى والدته وأشار اشارة فهمت غرضه منها وكان سعدون يتشاغل بجمع ما تفرق بين يديه من ورق كتابه استعداداً للخروج فابتدرته زبيدة قائلة « أما وقد بدا لنا منك هذا العلم الواسع في استطلاع الغيب فاخبرنا عما يجول في خاطري وخاطر أمير المؤمنين »

فأدرك أن أهم ما يمكن ان يخطر لهما حينئذ المأمون واحزابه في خراسان فقال « يجول في خاطركما أشياء كثيرة اهمها يتعلق برجل في خراسان تحذرونه وهو يحذركم وقد تخافونه وهو أشد خوفاً منكم »

فوافق قوله ما في نفسها فقالت « صدقت .. وماذا ترى بعد ذلك فاعاد النظر في الكتاب طويلا حتى ظهر الاهتمام في جبينه وتصبب العرق منه ثم رفع نظره اليها وقال « لا ارى مناصاً من تجريد السيوف »

قالت « ومن يجردها »

قال « انما يظفر السابق وعلم المستقبل عند الله »

فالتفتت الى الامين ولسان حالها يقول « الم أقل لك بادر الى خلعه قبل ان يخلعك ؟ »

فقال الامين « قد اشار وزيرنا الفضل بخلع عبد الله فاذا لم يذعن حملنا عليه بالجيوش فهل نغلب ؟ »

فتناول الكتاب ثانية وقلب عدة صفحات ثم قرأ ونظر الى السماء من نافذة في تلك القاعة واخرج قلماً من منطقته وغطسه في المداد وكتب وحسب ثم قال « قلت لمولاي ان علم المستقبل عند الله وليس لى . ولكن يظهر لى من هذا الحساب أن الفئة التي فيها الفضل هي الغالبة باذن الله »

الفصل الرابع والستون

كشف السر

فتمكن اعتقاد الامين من صدق سياسة الخلع وعزم على خلع اخيه فاثنى على الملفان سعدون وأمر له بجائزة فعلم انه قد آن خروجه فجمع اوراقه ودواته وخرج

ثم نهضت زبيدة للخروج فأتتها المواشط فألبسنها ما خلعته عند وصولها ولما ودعت ابنها نصحت له ان يخرج للاقامة في قصر الخلد قريباً منها فوعدها بذلك فعادت بموكبها إلى دار القرار

وأقر الامين بعد خروجها على خلع أخيه وتولية ابنه موسى وبعث الى خراسان بذلك كما تقدم ثم جند جنداً أراد ان يجعل الفضل قائداً عليه فرغبه في ابن ماهان ففعل وخرج الجند لمقاتلة طاهر بن الحسين في الري كما رأيت . وبعد ارسال الجند انتقل الامين الى قصر الخلد ونقل معه بطانته . أما ميمونة وسعدون فأبقاهما في قصر المنصور وأمر بالاحتفاظ بهما

وكانت ميمونة قد خرجت من حضرة الامين وهى ترقص فرحاً ودهشة حتى أتت جدتها وكانت تنتظرها على مثل الجمر فقصت عليها ما جرى واثنت

على مهارة رئيس المنجمين فاستغربت عبادة ما سمعته وقالت « جزاه الله خيراً ان الله قد سخره لانقاذنا من هذا الخطر العظيم ولولاه ما رضيت تلك الملكة الظالمة بغير قتلنا »

فقالت ميمونة « قد تخلى سلمان عنا فأرسل الله لنا من يأخذ بيدنا انه سبحانه لا يترك المظلوم حتى ينصره »

ومكثتا في ذلك القصر بعد انتقال الامين الى قصر الخلد لا يعلمان شيئاً مما يجرى من الاحوال السياسية وميمونة قد ذهبت تسليتها بذهاب كتاب بهزاد ولما طال غياب سلمان عنها كادت تنساه لولا ارتباط ذكره بذكر بهزاد . وكيف تنساه وهو خليفة بهزاد عليها وقد حمل اليها كتابه وكانت في شوق كثير لمعرفة مكان حبيبها لتطلعه على حالها لعله يسعى في انقاذها . وأنى لها ذلك وهي محبوسة بين اربعة جدران لا تسمع خبراً ولا ترى رجلا وكانت عبادة تحاول التخفيف عنها جهد طاقتها

وكانتا جالستين ذات يوم فجاءتهما قهرمانة القصر تقول « ان رئيس المنجمين يطلب مشاهدة ميمونة » فبغتت الفتاة وصعد الدم الى وجهها وقالت « ما شأننا معه »

قالت « ان امير المؤمنين اوصى ان لا يؤذن لاحد بمشاهدتك غير رئيس المنجمين متى شاء ولا بأس عليك منه »

فتحولت بغتتها الى سرور وقالت في نفسها « اذا آنست منه لطفاً أسأله عن سلمان أو بهزاد لعله يهديني الى مكانهما » فقالت للقهرمانة « هل هو آت الينا أم نحن نذهب اليه »

قالت « طلب أن يراك على انفراد في غرفته »

فاجفلت وقالت « أنفرد به في غرفته ؟ وهو رجل غريب .. »

فقالت عبادة للقهرمانة « هل تأذنين أن أكون أنا معها في تلك المقابلة

قالت « حسناً »

فنهضتا وتنقبتا وأرسلت معهما غلاما أوصلهما الى غرفة الملفان سعدون في بعض أطراف القصر وقرع باب الحجرة وأنبأ الملفان وصول ميمونة

ورجع . ففتح الملفان البـاب وهو بقيافته المعهودة ورحب بالفتاة وجدتها وأدخلهما الحجرة وأقفل الباب وراءهما . فلما وجدت ميمونة نفسها في ذلك المكان استوحشت وتلفتت فلم تجد حولها الا أدوات وأشياء لا تفهم لها معنى من أنابيب وأقداح مختلفة الاشكال والالوان وألواح عليها رسوم وخطوط بعضها يقرأ وبعضها طلاسم لا يقرأ . وكان قبل دخولهما قد نزع جبته وبقى بالازار (القفطان) العسلى وحوله الزنار وعلى رأسه عمامة صغيرة فأشـار الى ميمونة وجدتها بالقعود على طنفسة بجانب طراحته فقعدتا وهما لاتتكلمان .. فقعد هو بين يديهما وخاطب ميمونة قائلا « هل تعلمين يامیمونة أني أنقذتك من القتل ؟ »

فدهشت لما سمعته يذكر اسمها وقالت « نعم يا سيدى وانى لا أنسى لك هذا الجميل جزاك الله خيراً »

قال « انى لا أكلفك على ذلك اجراً واتقدم اليك أن تصدقيني في سؤال ألقيه عليك . . هل تفعلين ؟ »

قالت « نعم وهل أستطيع غير ذلك وأنت تكشف مكنونات القلوب »

قال « هل تحبين بهزاد كثيراً »

فتوردت وجنتاها فجأة وأطرقت حياء فابتدرها قائلا «لاينبغي أن تستحي مني . . . قولي »

فتنهدت وظلت مطرقة ولم تجب فاجابت عبادة عنها « أظن رئيس المنجمين فهم جوابها بدون أن تنطق به »

فوجه خطابه الى العجوز وقال «وهل أنت لا تزالين تعرفين الحب ودلائله رغم مامر بك من الاهوال ؟ »

فلم تستغرب عبادة اشارته الى حالها بعد مابلغها من اعجازه في كشف الضمائر فسكتت . فالتفت الى ميمونة ويده على لحيته يمشطها بأنامـله وقال « قد علمت انك تحبين بهزاد ولـكن هل هو يحبك ؟ »

فرفعت كتفيها وهي مطرقة كأنها تقول « لا أعلم »

فابتدرها قائلا « لو كان يحبك لم يتركك في هذا القصر ويذهب .. وربما

بقيت فيه الى آخر حياتك . . فغيرة على راحتك قد دبرت لك طريقة للنجاة والسعادة فاذا أطعتني أفلحت »

قالت « وما هي ياسيدي »

قال « انى أعرف شاباً هو خيرة شبان بغداد وأكبر وجيه فيها يحبك حباً مبرحاً وأنت لا تحبينه » وتوقف عن الكلام وتنحنح فأدركت أنه يشير الى ابن الفضل فلم تتمالك عن الاشمئزاز والتفتت الى جدتها كأنها تكلفها أن تجيب عنها فهمت عبادة بالكلام فقطع سعدون كلامها قائلا « انى اعرف الجواب ولكن رفضك لاينفعك لان الرجل صاحب النفوذ الاكبر واذا طلبك من أمير المؤمنين دفعك اليه فالاحسن أن تقبلي من تلقاء نفسك وهذه نصيحتى لك فان بهزاد بعيد ومن يدري هل ترينه بعد »

فضاق صدر ميمونة عند ذلك وانحبست عواطفها ولم تتمالك عن البكاء فنهضت عبادة وانحنت للملفان وقالت بصوت الاستغاثة « أما وقد اطلعت على سرنا وعرفت حقيقة حالنا فأتوسل اليك أن تكون عونا لنا لا علينا » وغصت بريقها

فاشار اليها ان تقعد وقال « ماذا تريدين ؟ »

قالت « ان الغلام الذي تشير اليه لانصيب له عندنا وأنت تعرف السبب والموت أهون علينا من إجابة طلبه . . وإنما أتقدم اليك ان ترشدنا بعلمك الى أمر يهمنا »

قال « وما ذلك ؟ »

قالت « أضعنا عوناً كبيراً خلفه لنا بهزاد عند سفره وهو الذي أوصل كتابه الى ميمونة ثم لم نعد نراه ولا نعرف مكانه فهل تكشف لنا خبره بالمندل ؟ »

فضحك وقال « أظنك تبحثين عن سلمان ؟ »

قالت « نعم »

قال « ان الوزير سألني عنه أيضاً »

فقالت عبادة « هل هو في بغداد ؟ »

قال « نعم انه في هذا القصر »

فبغتت ميمونة وقالت « في هذا القصر ؟ »

قال « وفي هذه الغرفة »

وأحست عبادة عند ذلك كأن غشاوة انكشفت عن عينيها وتذكرت ميمونة صوت سلمان فصاحت سلمان ! سلمان ! »

فقال « لا ترفعي صوتك إني سلمان نعم وانى رئيس المنجمين »

فلم تستطع الامساك عن الضحك وبان البشر في وجهها وخفق قلبها وأحست كأنها لقيت حبيبها بهزاد لا ستبشارها بالاطلاع على أخباره فلم تعد تعرف كيف تسأل سلمان أو تستفهمه وأرادت التكلم فتلجلجت فسبقها الى الكلام قائلا « ستلوميني على اختفائى كل هذه المدة ولكنني لم أختف الا رغبة في مصلحتك فلما رأيت في الظهور منفعة لك ظهرت وأظنني أفدتك »

فقالت عبادة « إنك انقذتنا من الموت جزاك الله خيراً و... »

وقطعت ميمونة كلام جدتها فقالت « وأين بهزاد الآن ؟ »

قال « في بغداد أو حولها »

فصاحت « في بغداد ..؟ ألا يأتى الينا ؟ »

قال « وهل تظنين ظهوره سهلا ؟ انه لا يظهر إلا إذا آن الاوان .

ولكن أحوال بغداد تغيرت منذ وطىء ترابها لأن الاحزاب السرية عادت الى عملها برأيه فكثرت العثرات في طريق هذا الغلام القابض على قضيب الخلافة »

فقالت « بورك فيك يا سلمان . . يالله ما أكرم نفسك .. بهزاد أتى من خراسان هل رأيته ؟ »

قال « نعم رأيته وحادثته »

قالت « أين شاهدته وكيف ؟ »

قال « لنا مكان نلتقي فيه لا يعرفه احد سوانا »

قالت وقد أشرق وجهها « إذن هو هنا وسنراه ؟ أى متى يكون ذلك ؟ »

قال « لكل شيء وقت لا تكوني لجوجة »

قالت « حسناً .. كما تشاء والآن ما الذي تنوى فعله بنا ؟ »

قال « تبقيان كما كنتما وتكتمان ما رأيتما عن كل انسان حتى يأتى الوقت المناسب وأظنكما تثقان بما اقوله »

فقالت عبادة « مضى علينا زمن لم نسمع فيه خبراً عن المأمون ولا عن الامين ولا عن الحال بينهما »

قال « اطمئنك يا سيدتى أن الله سينتقم لك ولنا . إن الامين خلع أخاه المأمون من ولاية العهد فخلعه هذا أيضاً وقام الفرس لنصرة المأمون لأنهم أخواله وجردوا جيشاً بقيادة طاهر بن الحسين وجرد الامين جيشاً بقيادة ابن ماهان الذى كان صاحب الشرطة فالتقى الجيشان في الري فانتصر جيش المأمون وقتل ابن ماهان وتشتت جيشه ولما وصلت هذه الاخبار الى الامين وقع في حيرة وبعث اليه فذهبت اليه في قصر الخلد واستشارني فأشرت عليه ان يرسل الفضل بن الربيع في الحملة الثانية وأنا اعلم ان الفضل لا يذهب وجعلت نجاحه في الحرب مشروطاً بارسال الفضل وابنه فآل ذلك الى اختفاء الفضل ولم تفلح الحملة الثانية فضعف حال الامين فاستخف به رجال دولته حتى هموا بخلعه فلم يستطيعوا لأن سلمان لم يكن معهم . . . ولو شئت لخلعوه ولكنني أردت ضعفه فقط »

فأعجبت ميمونة بدهاء سلمان وسرت بما دبره للفضل وابنه . ثم قال سلمان « فامكثا في قصر المنصور هذا برعاية قهرمانته وربما ذهبت الى الخليفة ومكثت فى قصر الخلد أياما » وصفق فأتى غلامه فقال له « اذهب بهما الى قصر وسلمهما الى القهرمانة فريده وقل لها انى أحب أن أراها »

فمضى بهما . وهم سلمان بلبس ثيابه وأمر الغلام أن يعد له بغلته ليركب الى قصر الخلد ويتحول بطريقه الى القهرمانة ويوصيها بالمرأتين. فركب ومر بالقهرمانة وأوصاها ان تحتفظ بهما فأشارت مطيعة فتحول يطلب قصر الخلد والغلام في ركابه والناس ينظرون اليه ويوسعون له اعجابا بما اشتهر عنه من معجزات التنجيم

الفصل الخامس والستون

مقرطة الامين

وما زال سائراً حتى أتى قصر الخلد فوجد بالباب جماعة من العيارين يخفرونه بدلا من الجند وعرفه أحدهم فنهض وحياه ووسع له فدخل ببغلته الى ردهة القصر واذا هو بالهرش رئيس العيارين خارجاً على فرسه وحالما وقع نظره على الملثمان سعدون أوقف فرسه وسلم عليه . فسأله عما رآه من وجود رجاله بالباب بدلا من الجند فقال « ان الجند غاضبون على أمير المؤمنين »

قال « لماذا ؟ »

قال « ان خبر ذلك يطول ولا استطيع بسطه ونحن راكبان ولا اظنه يخفى عليك ولكنني أقول بالاختصار ان طاهراً وأصحابه لما أفلحوا في واقعة الري وقتل ابن ماهان ضعفت عزائم جنده وهربوا وتقدم طاهر فاستولى على أعمال الجبال فجند الامين حملة أخرى فعادت خائبة وضعفت سطوة الخليفة حتى تجرأ قواده على خلعه ثم عادوا عن ذلك كما تعلم وظل طاهر يتقدم في جنده حتى اتى الاهواز ثم استولى على واسط فالمدائن ونزل أخيراً في صرصر وهي على مقربة منا وكان أمير المؤمنين يخرج الاموال ويفرقها في رجاله . وبلغ ذلك رجال طاهر فطمعوا بالاموال فجاء منهم جماعة الى الامين فاعطاهم وغلف لحام بالغالية واكرمهم كثيراً فغضب جنده لأنه لم يكرمهم مثل هذا الاكرام فتفرقوا عنه غاضبين فبعث الى وكلفني ان آتي برجالي لنصرته . . . »

فضحك سعدون وقطع كلام الهرش قائلا « رب مصيبة على رجل يستفيد منها جاره واظن الامين بذل لكم الاموال فغنمتم . . وانت تعلم انه يسرني ما يسرك وانك أهل للعطاء أكثر من أولئك القواد الخائنين حتى الوزراء فهذا الفضل بن الربيع بلغني انه لما رأى الامر استفحل على مولاه

اختفى مع انه سبب هذا البلاء كله » قال ذلك وودع الهرش وساق بغلته فاستوقفه الهرش قائلا « انك داخل على الخليفة ومتى رأيت حاله زال تعجبك مما بلغ اليه امره »

فلم يفهم سعدون قصده ولكنه ما لبث ان تحول عن بغلته عند الباب الثالث من أبواب القصر ودخل الحديقة حتى ادرك السر ولم يكن غافلا عنه

وذلك أنه سلم البغلة لغلامه ومشى في الحديقة وهو يتوكأ على عكازه وينظر ذات اليمين وذات الشمال فلا يرى الا غلماناً يتراكضون وبعضهم حفاة مكشوفو الرءوس فأوجس سلمان خيفة من هذا المنظر وظل ماشياً في بعض طرق الحديقة حتى أشرف على بركة كبيرة في وسط الحديقة بين يدي القصر وقد تكأكأ حولها الغلمان ونزع بعضهم ثيابه وغطس فيها وآخرون واقفون يتفرسون في مائها ثم رأى الأمين نفسه مقبلا كالواله وعليه ثياب المنادمة وقد ذهبت القلنسوة عن رأسه من لهفته فترجح لسعدون ان دسيسة ظهرت في القصر يراد بها قتل الامين وان الغلمان يفتشون عن صاحبها وتوهموا انه نزل البركة التماساً للفرار الى دجلة — لان البركة متصلة بقناة تمر من تحت السور فاذا اقفلت الابواب على هارب وكان يحسن السباحة استطاع الخروج بالقناة الى دجلة لايعترضه الا شبكة كالمصفاة منصوبة عند مخترق القناة من السور لا يصعب عليه نزعها

ثم ما لبث ان سمع الامين يصيح قائلا « اين مقرطتي اين ذهبت . . من أخذها . . يا سعيد . . يا جوهر . . يا كوثر . . يا . . تعالوا أظنها في البركة . . ابحثوا عنها . . . القوا الشباك . . »

فلما سمع كلامه فهم مراده وتذكر قول الهرش لأنه رأى السبب في تلك الحركة والغوغاء ان الامين أضاع مقرطته وهي سمكة كانت قد صيدت له وهي صغيرة فقرطها حلقتين من ذهب فيهما حبتا در (١) كثيراً ما كان يلهو بها في جملة لهوه فاتفق عند قدوم سعدون انه كان قد أضاعها وشغل أهل

(١) المسعودى ج ٢

القصر بالتفتيش عنها . فلما رأى سعدون ذلك تنحى جانباً ريثما يفرغ الامين من لهوه أو يجد مقرطته وقال في نفسه « كيف تستقيم دولة هذا هم خليفتها فهل يعجب الناس من فوز أخيه الساهر على مصلحته ومعه جند يستهلكون في نصرته ؟ وهذا انما يحيط به المتملقون طمعاً بالمال — تلك عاقبة البغى ولا يمضى زمن طويل حتى تنتهي هذه الدولة ويغلب الحق على الباطل »

وهو يفكر في ذلك رأى الامين ينظر اليه وقد تحول مجونه وتهتكه الى جد واهتمام وأشار اليه ان يتبعه . فمشى سعدون في أثره حتى دخل باب القصر الداخلي واتصل منه الى دهليز ينتهي بقبة يسمونها طارمة مصنوعة من خشب الصندل والعود مساحتها ١٠ اذرع في ١٠ قد اتخذ لها فراشاً مبطناً بأنواع الحرير والديباج المنسوج بالذهب الاحمر وغير ذلك من انواع الابريسم ورأى رجالا وقوفاً بباب الطارمة عليهم سيماء الوجاهة وسعوا للامين عند دخوله لم يعرف منهم الا اثنين احدهما ابراهيم بن المهدى عم الخليفة والآخر سليمان بن ابى جعفر المنصور من شيوخ بني هاشم فلما دخل الامين الطارمة أشار الى سعدون بالدخول وصرف الباقين فترك سعدون عكازه ونعاله بالباب ودخل . فجلس الامين على دكة في صدر القبة وأشار اليه ان يقعد فقعد وهو يتعجب من تغير حاله . ووقع نظره على آثار مجلس شراب وغناء كان منعقداً هناك قبل مجيئه فرأى الفداح مبعثرة والاباريق متفرقة بين فارغ ومملوء وأطباق الفاكهة مصفوفة وفيها الاثمار بأنواعها . ورأى بين يدى الامين قدحاً من بلور يسع شرابا ينذ مقداره خمسة أرطال وقد قلب وانكسر . ورأى قدحين مثله بين يدي وسادتين كان عليهما اثنان من خاصته الجلاس لعلهما سليمان بن المنصور وابراهيم بن المهدي وهما ارفع مقاماً من سائر جلاسه

فادرك سعدون حالا ان الامين كان في مجلس الطرب ثم علم بضياع مقرطته فاسرع للبحث عنها . ولكنه استغرب انقلابه من اللهو الى الاهتمام فلبث ساكتا حتى يبدأ الامين بالكلام . أما هذا فانه أزاح كسر القدح من بين يديه ونظر إلى سعدون وتنهد وقال « لم يبق لى صديق أودعه سري سواك لان رجالى تفرقوا عني ولم أجد بينهم مخلصاً لانهم انما يطلبون مالي

وقد أعجبني علمك واطلاعك على الخفايا فاحببت ان استشيرك فبعثت اليك ويسوءني انك جئتني ورأيت اشتغالي بعبث الغلمان ثم دخلت هـذا المجلس ورأيت ما فيه من آثار الندمان مع ما نحن فيه من أسباب القلق وبواعث الاهتمام . . » ثم تنهد تنهداً عميقاً وقال « ولـكنني أفعل ذلك لاذهب ما بي من اليأس فبعثت الى بعض أعمامي فجاؤا إلى بالمغنيات والشراب فشربنا وسمعنا ولم يذهب شيء مما في نفسي بل زادت يأساً وكدراً لما سمعت الجواري يغنينه من ابيات الشؤم لا أدري فعلن ذلك عمداً أو اتفاقا كقول احداهن :

هم قتلوه كي يكونوا مكانه كما غدرت يوما بكسرى مرازبه (١)

ووالله لأخشى ممن حولي وهم مثل مرازبة كسرى ليس فيهم من يهمه أمري حق الفضل وزيري فانه تخلى عني وتركني واختفى ... وزادني تشاؤماً أن احدى المغنيات قامت لغرض فعثرت بهذا القدح فكسرته وهو قدحي الخاص ما برحت أشرب به منذ أعوام لم يصبه عطب . فهل ألام اذا تطيرت؟»

قال ذلك وصوته يكاد يختنق

فقال سعدون « لا بأس عليك يامولاي . »

فقطع الأمين كلامه قائلا « حتى أنت لم تصدقني هذه المرة أو أن تنجيمك لم يصدق »

قال « وكيف ذلك ؟ »

قال « أتذكر حديثك في قصر المنصور لما سألتك عن نتيجة القتال بيني وبين أخي فبشرتني بالنجاح ؟ »

فأطرق كأنه يفكر ثم قال « لو راجع مولاي ما قلته يومئذ لتحقق صدق قولي . فقد قلت ان العلم يدلني على أن الفئة التي فيها الفضل هي الغالبة فهل ذهب الفضل في تلك الحملة ؟ »

فانتبه الأمين لذلك وقال « لم يذهب وأردت ان ارسله مع الحملة الثانية فتنصل ولما آنس مني الالحاح خاف تحميله التبعة فاختفى ولم اعد أراه ولا اعلم مقره »

(١) المسعودي ج ٢

فهز سلمان رأسه واظهر الاستغراب ثم أطرق هنيهة وهو يحك جبينه بسبابته وقال « بل ارى المندل قد صدقني من وجه آخر . تذكرت الآن ان وزير اخيك في خراسان اسمه الفضل ايضاً وهو اقوم على نصرته من قيام هذا الفضل على نصرة أمير المؤمنين . . اني واثق من صحة ما أعلمه واذا ظهر خطأ فانما يكون الخطأ في فهم مايظهر لنا من النتائج »

فصدق الأمين قوله وزادت ثقته به وقال له « والآن لا أخفي عنك أن يدي فرغت من الرجال وخزانتي فرغت من الاموال حتى ضربت مافي قصوري من آنية الذهب والفضة نقوداً واعطيتها لرجالي وبعت الآنية الثمينة وفرقتها فيهم وجمعت ما استطعت جمعه من أموال التجار (١) لاسترضي جندي فلم استفد شيئاً واصبحت كما ترى » قال ذلك وغص بريقه . ورأى سعدون دمعتين تتلألآن في عينيه فلم تتحرك شفقته او حنوه وان اظهر ذلك فانما يظهر احتيالا للوصول الى غرضه . ومن أقصى رغائبه استفحال الامر بين الاخوين حتى لايبقى للصلح مكان لأنهما إذا تصالحا ذهبت مساعي الفرس عبثاً فأبدى أسفه لما سمعه من حال الأمين وقال « ألم تبحث عن المال في قصر اخيك فقد علمت بمال حفظه نوفل خادم القصر من ايام مولانا الرشيد . . . »

فقطع الأمين كلامه قائلا « كان عند نوفل المذكور ألف ألف درهم أخذناها وقبضنا الضياع والغلات . . »

فأطرق سعدون وقد سره تضعضع الأمين ثم قال « انت تطلب المال لارضاء الجند وفي بغداد جند يحارب بلا عطاء ويأخذ عطاءه مما يغتنمه . . »

قال « أظنك تعني العيارين والشطار »

قال « نعم وهؤلاء يحاربون عراة وسلاحهم المقاليع ومخالي الخوص يحملون بها الحصى يرمون بها الناس فتؤذيهم أكثر مما تؤذيهم السيوف والرماح وفي بغداد اليوم من هؤلاء نحو خمسين الفاً فائمر زعيمهم ان يجندهم » (٢)

قال « أتظنني غافلا عن ذلك ؟ كان الهرش عندي الساعة وقد أمرته باعدادهم

(١) ابن الاثير ٦ سير الملوك (٢) المسعودي وابن الاثير

فوعدني انه فاعل واظنه سيجمع ما تصل اليه يده من باعة الطريق واهل السجون والأوباش والطرارين واهل السوق . . وهؤلاء اذا قاموا خربت المدينة . ولكن . . » وسكت

فادرك سعدون انه يكتم شيئاً يخاف التصريح به فظل ساكتاً ينتظر مايبدو فعاد الامين الى الكلام فقال « أشار عليّ بعض خاصتي الباقين على ولائي ان اخرج من بغداد بمن بقي من رجالي وهم سبعة آلاف فارس من الأبناء فآخذهم وأفر ليلا من احد ابواب المدينة حتى آتي الجزيرة او الشام فيفرضون الفروض ويجبون الخراج ويكون لي مملكة واسعة هناك واترك بغداد لأصحابها حتى يقضي الله بما يشاء فما رأيك ؟ »

فلما سمع سعدون ذلك تحقق انه الرأى الصواب لكنه خاف إذا عمل الامين به ان يعرقل مساعي الفرس لان بقاء الأمين حياً في مملكة اخرى يفسد عليهم سعيهم فقال « هل يرى امير المؤمنين فائدة من الفرار . . ومن أي باب يخرج بسبعة آلاف فارس وبغداد محاطة بالاعداء من كل جانب شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً . فاذا وقع في يد اعدائه — لاسمح الله — وهو هارب استحلوا منه مالا يستحلونه في حال اخرى »

فقال الامين « ألا نجد لنا مخرجاً من بغداد ؟ »

قال « اذا شاء امير المؤمنين صعدنا إلى احدى المنائر العالية وأشرفنا على بغداد وأرباضها فنرى اما كن العدو رأي العين والامر بعد ذلك له »

الفصل السادس والستون

قلبها دليلها

فاستحسن الأمين اشارته ونهض وهو يقول «في هذا القصر منارة عالية هلم بنا اليها بغير ان يعلم بنا احد » فنهض سعدون في اثره حتى صعد المنارة وأطلا منها على بغداد وقصورها (١) فالتفتا اولا نحو الشرق وقال سعدون

(١) في ابن الاثير ان الامين عاد آخر أيام الحصار الى مدينة المنصور

الا ترى ياسيدي مضارب هرثمة بن اعين عند نهر بين وراء دجلة ؟ وهـذه مضارب عبيد الله بن وضاح في الشماسية ومعه جنـد عظيم وقد حفظ الجسر الأعظم . وجند هرثمة يحرسون طريق خراسان فهـل من سبيل للفرار من هذه الجهة ؟ واما من جهة الغرب فهذا طاهر وجنده في البستان قرب باب الأنبار وكأني اراهم يقتربون بأعلامهم . . اراهم دخلوا محلة الـكرخ وحول باب الـكوفة وما يليها وسائر الارباض الغربية الجنوبية وكادوا يحصروننا والعيارون يدفعونهم بالمقاليع الا ترى الحصى تتطاير فوق البيوت ؟ »

وكان الأمين ينظر إلى ذلك وقلبه يختلج وامتقع لونه وتحقق من ضياع امره فلم يجب ولـكنه وجه نظره نحو الحربية في الشمال فرأى النار قد لعبت بها فصاح « ويلاه ما هذا ؟ . . »

فقال سعدون « اظن الأوباش واهل الـسجون اغتنموا اشتغال النـاس بالحرب فألقوا النار في البيوت ليتمكنوا من السرقة والنهب . . انزل ياسيدي الى قصرك فانك آمن فيه وهو حصن منيع »

فنزل الامين وسعدون في اثره حتى اذا بلغا الى الدار رأيا اهلها في هرج ومرج يركضون ذات اليمين وذات الشمال كانهم يفتشون عن ضائع وحالما وقع بصرهم على الأمين أجفلوا وصاحوا « هذا مولانا أمير المؤمنين . . هو هنا » وما عتم ان رأى والدته زبيدة تهدو نحوه حتى ضمته الى صدرها ودموعهـا تتساقط وهي تقول « ولداه أين كـنت . ؟ قد شغلت بالي لغيابك الساعة وقد قيل لي انك كـنت جالساً هنا ثم لم يجدوك وقالوا انك لم تخرج فطار صوابي لتغيبك في مثل هذا الوقت »

فاثرت لهفة أمه به تأثيراً شديداً ولم يتمالك عن البكاء ولـكنه تجلد وأظهر رباطة الجأش وقال « وما الذي يخيفك يا أماه ؟ . . اننا في خير ان شاء الله . وانما كنت في شاغل مع رئيس المنجمين . . ما الذي جاء بك الآن ؟ »

فأمسكت الامين ودخلت به غرفة ودخل في أثرهما سعدون وأقفلوا الباب عليهم وقالت « جئت لأمر هام . . أنت تعلم اني لم أغفل عن التفكير في مصلحتك وقلبي يدلني على خطر يهددنا من يد ذلك الخراساني بهزاد . وما زلت أبث العيون

للبحث عنه حتى قيل لي انه في بغداد ولـكنني لم أقف على مـكنه وبينما أنا اتوقع الوقوف عليه حلمت حلماً مزعجاً لا أقصه على أحد بل أنا اريد نسيانه .. على انني لم أعد استطيع صبراً على بهزاد هذا وإذا استطعنا القبض عليه فـكأننا هزمنا نصف الجيش لانه منذ وطىء هذه الديار تغيرت حالنا وقوي جندطاهر لان بهزاد زعيم كبير وله نفوذ على كبار البغداديين وقد قلت لك مراراً انه رئيس عصابات سرية أعضاؤها من أكبر تجار بغداد وأهل النفوذ فيها . . »
قالت ذلك وقعدت

فقعد الامين وهو يشير إلى سعدون أن يقعد وقال لوالدته « واين هو ؟ »

قالت « لا ادري أين هو . . ولـكنني سأبعث إلى تلك الفتاة أستقدمها إلى لعلها تعترف بمكانه فيهون علينا القبض عليه »

فالتفت الامين إلى سعدون كأنه يستطلع رأيه فأشار برأسه وشفتيه ما مؤداه « قد تكون مولاتنا مصيبة » فقال الأمين « مالنا ولتلك الفتاة وهذا رئيس المنجمين عندنا »

فقالت وهي تعتدل في مجلسها على الوسادة بجانب ابنها « اخبرنا أيها المللفان عما يدلك عليه علمك عن ذلك الخراساني »

فاستخرج كتابه وقرأ فيه على عجل ووضع قطعة من البخور في فيه مضغها قليلا ثم قال « انه في بغداد يا سيدتي »

قالت « هل تعرف مكانه تماما ؟ »

قال يظهر لي انه بين ماءين ولـكن ليس في النهر . على ان تحقيق ذلك يحتاج إلى وقت أوسع وجو أصفى أما تلك الفتـاة فلا تعلم مكانه وكيف يتأتى ذلك وهي محبوسة في قصر امير المؤمنين لا يراها أحد ولا ترى أحداً »

فاطرقت زبيـدة هنيهة وقالت « علمت ان ابن الفضل يهواها وهي لا تريده ولولا اختفاء والده لزوجته بها رغم ارادتها » وسكتت هنيهة ثم قالت « والفضل هـذا خاننا عند الحاجة اليه انه أصل هذه المصائب وهو الذي حرض محمداً على خلع أخيه والتجريد عليه . . . لعنه الله من خائن ... »

قالت ذلك وغصت بريقها كانها شعرت بالخطر المحدق بابنها ثم استأنفت الكلام وبدا على وجهها الاهتمام وقالت «ولكنني حسنة الظن بالفضل وسأرى»

وأحس الامين بما تضمره من الخوف عليه فاحب مغالطتها فقال وهو يظهر التجلد ويتكلف الابتسام « لا تلعني أحداً وسوف يلقى الخائن جزاءه فاذهبي يا أماه الى قصرك الآن واطمئني وادعي لنا بالنصر.. ولا يغرنك ما ترين من كثرة جند الاعداء فاننا غالبون باذن الله ولنا من العيارين أكبر معين »

فعلمت أنه يريد انصرافها فنهضت ولما هممت بالخروج أحست بما يحبب اليها البقاء وقلبها لا يطاوعها على فراق ابنها كأنه أنذرها بالخطر عليه فارادت الرجوع الى مقعدها فخافت أن تكدر ابنها فوقفت هنيهة تتردد وهي تتشاغل باصلاح مطرفها وعصابتها ثم اكبت على الامين وقبلته في عنقه قبلات حارة فاحس بسخونة الدمع فدفعها بلطف وقبل مابين ثدييها وهو يغالب عواطفه ويخاف أن تخونه دموعه . أماهي فاسرعت في الخروج وشعرت ان قلبها خلع من صدرها وانصرفت في موكبها الى قصرها

وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب فاظهر سعدون رغبته في الانصراف فقال « هل يأمر مولاي بانصرافي »

قال « امكث .. لا تفارقني . انى سأحتاج اليك الليلة »

فتوقع سعدون من وراء ذلك نبأ جديداً فتفرس في وجه الأمين فرأى اضطرابا لم يعهده فيه من قبل فهم سعدون بالخروج الى بعض غرف الاضياف فاشار اليه الامين أن يمكث ثم صفق فجاءه غلام فقال « الى بالشراب واثر الشموع » فلما خرج الغلام نزع الامين عمامته عن رأسه وزفر زفرة سمع لها دوي وقال « يلومونني على تعاطي الشراب وماذا يفعل اليائس في مثل هذه الحال ؟ ان الشراب ينفس الكرب ويذهب الغم حتى يقضي الله بما يشاء »

أما سعدون فجلس متأدبا وهو يظهر الاحترام ويتجاهل ثم جاء الغلمان بمائدة الشراب والفاكهة وأناروا الشموع الكبيرة المعروفة باسم الامين فصاح الأمين بالغلام قائلا « هل عمي ابراهيم هنا ؟ » يريد ابراهيم بن المهدي المغني

قال « كلا يا مولاى »

فاشار اليه ان يملأ له قدحاً ففعل فتناول الأمين القدح وأشار اليه ان يملأ قدحاً آخر وقال لسعدون « ألا تشرب يامليفان »

قال « اذا أمرني أمير المؤمنين أطعته ولكنني لم أشرب قبل الآن والشرب لا يوافق صناعتي »

فقال الأمين للساقي « دعه لاتسقه . . انا في حاجة الى علمه وصناعته الليلة . وأوص صاحب بابنا اذا جاءنا رسول أن يوصله الينا حالا ولو في نصف الليل »

فازداد سلمان رغبة في استطلاع ما يضمره الامين ولبث ينتظر ما يبدو منه فلم يشرب الامين بضعة أقداح حتى سري عنه فالتفت الى سعدون وقال « أتدري لماذا استبقيتك هنا دون سواك ؟ »

قال « كلا ياسيدي »

قال « لو أردت كشف هذا السر لكشفته لبعض خاصتي ولكنني أصبحت لا أثق باحد من أهل بطانتي بعد ان تكشفوا لى عن أعداء بثياب الاصدقاء وما منهم الا من يطمع بمالى أو بخيانتي . ويكفيك مثلا منهم وزيري وهو سبب هذا الخصام بيني وبين أخي .. وهو الذي حرضني على ذلك فلما رأى اشتداد الازمة خاف على حياته واختفى ولم يبال بما يهددني وهكذا فعل سائر أهل دولتي فانهم لم يزالوا معي حتى انفقت أموالي وبعت جواهري وآنيتي ودفعتها فلما علموا بفراغ يدى تخلوا عني .. وشدد اولئك الاعداء الحصار علينا فمنعوا الاقوات عنا » وكأنه خاف ان يبدو عليه الاجهاش للبكاء فتناول قدحاً وقطعة فاكهة يتشاغل بهما وناول سعدون قطعة وهو يقول « فمن كان هذا شأنه من رجال بطانته كيف يرجى فلاحه ؟ »

فاستبشر سعدون من تلك الشكوى وتحقق سقوط هذه الدولة ولكنه أظهر استغرابه وقال « لا ييأس أمير المؤمنين ان الله ناصره فليتوكل عليه »

فقال « طالما خدعتني الآمال واستخف بي الغرور وصدقت المتملقين أهل الفساد حتى وقع ماوقع بيني وبين أخي ثم رأيت رجاله أثبت من رجالي وقواده أثبت من قوادي ورجعت الى رشدي فاذا أحببت أن أصالحه لا أجد من

يتوسط بيني وبينه .. اعلم أني أطلعك على سر ضننت به على اهل دولتي . وعلى والدتي »

فأشار سعدون الى أنه موضع ثقته فقال الامين « لا أخفي عنك أني لما تحققت فراغ يدي من الرجال والمال وامتناع الخروج علي بعثت الى هرثمة في البر الشرقي أطلب الأمان وأنا في انتظار الجواب . . فهل فعلت حسناً ؟ »

الفصل السابع والستون

الفرار

فاظهر سعدون الاسف ثم رفع حاجبيه وقال « قد فعلت الصواب وما في الامان عار لا سيما وانك ستكون في أمان أخيك والدم لا يتغير ولا يخون . . ولكن . . » وسكت

وكان الامين يصغي لكلام سعدون وبيده تفاحة يقشرها فلما رآه توقف قال « ولكن ماذا ؟ »

قال « لا أدري الحكمة في مخابرة هرثمة دون طاهر وهو صاحب الجند المحاصر لهذا الشطر من بغداد »

فتنهد الامين ورمى التفاحة من يده وقال « لا . . لا أذهب الى طاهر فاني أتطير منه واكرهه وقد رأيت في منامي كأني قائم على حائط من آجر شاهق في السماء عريض الاساس لم ار مثله في الطول والعرض وعلي سوادي ومنطقتي وسيفي وكان طاهر في اصل ذلك الحائط فما زال يضربه حتى سقط وسقطت قلنسوتي عن رأسي . فتشاءمت منه اما هرثمة فانه من موالينا وهو بمنزلة الوالد وانا اشد ايناساً به وثقة اليه »

فرقص قلب سعدون طربا لهذه البشارة وأظهر تصويب رأي الامين وقال « الرأي لمولانا »

وهما في الحديث جاء الغلام يقول « ان رسول أمير المؤمنين بالباب »

فظهرت البغتة على الامين وقال « يدخل حالا »

فدخل الرجل متنكراً بثياب التجار فوقف له الامين وقال له « قل ما وراءك ؟ »

قال « أقول كل شيء ؟ »

قال « قل لا بأس »

قال « لقيت هرثمة وعرضت عليه ما أمرتني به فقال السمع والطاعة وانه بعد نزول أمير المؤمنين عنده شرفاً كبيراً ولكنه يفضل ان يكون الخروج اليه في الليلة القادمة وليس في هذه الليلة و ... »

وكان الامين مقبلا بكليته يسمع كلام الرسول ونسي للهفته ان يأمره بالجلوس فلما سمع قوله أشار اليه ان يقعد وقال له « وما بعد ذلك قل لا تخف ما الذي بعثه على تأجيل الذهاب ؟ »

فقعد الرجل متأدباً وقال « لانه على ثقة من ان ذهاب امير المؤمنين اليه يسوء طاهر بن الحسين وهو قريب من هذا القصر وانما شدد الحصار على هذه الصورة رجاء ان يختار امير المؤمنين الخروج بأمانه اليه فيفتخر بالفوز على يديه وله عيون مبثوثة في هذه الاطراف وأخبرني أنه شاهد على الشاطىء أمراً رابه فهو حريص على حياة أمير المؤمنين »

ففهم الامين تهديد طاهر فقال « بل أذهب الى هرثمة . . . ولا بد من الذهاب الليلة لاني أصبحت منفرداً وقد تفرق عني الناس والموالي والحرس وغيرهم ولا آمن اذا انتهى الخبر الى طاهر ان يدخل على فيأخذني »

ونهض وقد بان الانقباض في محياه وأمر فجيء اليه بثياب بيض وطيلسان أسود فلبسها وتعمم عمامة خفيفة ثم صاح في الغلام أن يأتيه بولديه . فوقف سعدون وسكت تهيباً واحتراما وقال للامين « يأمر مولاي بخدمة أقضيها فان نفسي فداؤه »

قال « لا تفارقني حتى أخرج إني أرى وحشة » ثم جاءوه بولديه فضمهما اليه وودعهما وبكى وقال « استودعكما الله عز وجل » ومسح عينيه بكمه ومشى إلى بغلة أعدوها له فركبها وسعدون واقف الى جانبه فأشار اليه مودعا فقبل سعدون ركابه وقال « سر بحراسة الله » فأوصاه بأهله خيراً

وخرج راكباً إلى الشاطىء وكانت حراقة هرثمة في انتظاره هناك فنزل فيها فحول ربانها الدفة نحو الشاطىء الآخر وكان في الحراقة هرثمة نفسه وجماعة من رجاله . فلما دخل الامين قاموا له وجثا هرثمة على ركبتيه واعتذر اليه من تقرس به ثم احتضنه وضمه اليه وجعله في حجره ليؤنسه . وكانت ليلة باردة — لانه خرج في مساء الاحد لخمس بقين من المحرم سنة ١٩٨ هـ وهي توافق ٢٨ سبتمبر سنة ٨١٣ (١) وامر هرثمة النوتية أن يسرعوا في التجديف لانه شاهد حركة على الشاطىء . واذ بزوارق لطاهر كانت راسية هناك قد أسرعت الى حراقة هرثمة وثقبوها ورموا فيها بالآجر والنشاب فدخل الماء الى الحراقة فترقت وسقط هرثمة والامين الى الماء فشق الامين ثيابه وخرج إلى الشاطىء ونجا هو وهرثمة . فاركبوا الامين حماراً وساروا به يطلبون مخبأ وهم لا يصدقون أنهم نجوا

أما سلمان فلما ودع الامين أصبح همه أن يقتله لأن بقاءه حياً يجعل سبيلا للمصالحة فلا يستفيد الفرس شيئاً. فنزع ثياب التنجيم وسبق الامين الى الشاطىء واخبر رجال طاهر ان الامين خارج الساعة الى حراقة هرثمة فترقبوا قدومه ولما رأوا الحراقة تتحرك قلبوها كما تقدم . وكان سلمان معهم فنزل في جملة من نزل للبحث عن الامين وعلم أنه بقي حياً فرافق الذين فروا به الى المكان الذي تخبأوه فيه ثم رجع الى بهزاد

وكان بهزاد منذ وصوله الى بغداد يحرض رجال الشيعة على الاخذ بناصر أخواهم وفيهم جماعة الخرمية كما وعدوه قبل سفره ولكنه لم يكن يظهر لطاهر ولا يعلم طاهر بوجوده هناك على أنه كان يغتنم الفرص لمساعدة الجند بمثل ما اتاه في واقعة الرى ولكن نفوذه على الخرمية ببغداد كان عوناً كبيراً لرجال المأمون حتى تضعضعت أحزاب الامين وضعف أمره واضطر للتسليم . ولم يكن بهزاد يرى ان يأخذ الامين اسيراً وانما كان همه ان يلتقي به في معركة ويبارزه ويقتله بخنجره ليتمم وعده لوالدته فيرجع اليها برأسه ظافراً غانماً . وكان في أثناء اقامته ببغداد او ضواحيها يقابل سلمان ويسأله عن

(١) ابن الاثير ٦ التقويم العام

الاحوال وخصوصاً عن ميمونة وهو يطمئنه ويبالغ في طمأنته لئلا يشغله داعي الغرام عن اتمام مشروعه . واتمام هذا المشروع يهم سلمان كما يهم بهزاد ولكن غرضه ومطمح أمله في خراسان وليس في بغداد . وربما حسد بهزاد على اجتماعه بحبيبته فلذلك كان يبذل جهده في ان لا يجتمعا فكان يطمئن بهزاد عن ميمونة ويطمئنها عنه وبهزاد يرضى بالابتعاد ولا يلح باللقاء خوفاً من أن يبعثه داعي الغرام على ما يحول دون الغرض الاصلي من مهمته

الفصل الثامن والستون

القتل

قضي بهزاد في هذه الحال مدة طويلة حتى اشتد الحصار كما علمت وبلغه حديث الناس عن الامين فتوقع قرب تسليمه . وكان ذات ليلة في منزل أحد الحرمية بالكرخ وقد دنا نصف الليل ونزع ثيابه وعلق سلاحه فوق رأسه ونام فجاءه أحد الغلمان ينبئه بقدوم سلمان فعلم انه لا يأتيه في ذلك الحين الا لامر هام فنهض وأمر بادخاله فدخل سلمان وعليه ثياب لا هي لرئيس المنجمين ولا للخادم سلمان ودلائل التعب بادية في وجهه فصاح فيه «ما وراءك ياسلمان»

قال « ابشر بالنصر »

قال « اني مستبشر به وواثق من الحصول عليه ولكن ماذا حدث ؟ »

فقص عليه الحديث كله إلى ان قال « فالامين الآن مختبىء في بيت لبعض الناس على الجانب الشرقي وقد تركته عرياناً وليس عليه من الثياب الا السراويل والعمامة وعلى كتفيه خرقة خلقة ومعه احمد بن سلام صاحب المظالم لانه لقيه في فراره واتفق وجودهما هناك وسمعت الامين يسأله عن اسمه فلما عرفه واستأنس به قال له ضمني اليك فاني أجد وحشة شديدة . فضمه اليه وكانت عنده مبطنة القاها عليه ثم سمعته يقول له : يا احمد ما فعل أخي . فقال له : هو حي ؟ فقال . قبح الله بريدهم كان يقول قد مات . كأنه يعتذر

عن محاربته وأنا واثق أنه عارف ببقائه حيـا — فاجابه ابن سلام : قبح الله وزراءك . وسمعتـه يقول أخيراً ما تراهم يصنعون بي أيقتلونني أم يفون لى بأمانهم . فأجابه : بل يفون لك — وقد كذب فأله . . » وتنحنح سلمان

فادرك بهزاد من ذلك أنه لا ينوي الوفاء له بالامان فقال « وماذا تعنى ياسلمان ... أترى ان ننكث عهد الامان ؟ »

قال « وهل تريد أن يبقى هـذا الرجل حياً . . ؟ فاذا حمل الى أخيه تصالحا فيذهب سعينا عبثـاً . . لماذا حملت هذا الخنجر معك من خراسان ؟ وقد قلت انك نذرت ان تنتقم به لأبى مسـلم وجعفر فكيف تنتقم لهما وقد سنحت لك هذه الفرصة وهذا الرجل في قبضة يدنا وفي قتله ختام فوزنا أنتركه يفلت منا ؟ »

قال بهزاد « انت تعلم أنى أول ناقم على هـذه الدولة وقد كرست حياتى لمقاومتها ونجحت في مسعاى والحمد لله . ومن أقصى رغائبى أن أقتل هذا الخليفة بيدي وبخنجرى لأضيف رأسـه الى الرأسين اللذين تركتهما في مرو.. نعم اريد ان اقتله في ساحة الوغى . . . اقتله وهو مسلح بالمبارزة وليس غدراً وخلسـة وهو أعزل خائف وقد دخل في أماننا . . انتكث ونحن انما نقمنا على هذه الدولة لانها نكثت العهود وغدرت ببعض رجالنـا ؟ . والغادر تعود عاقبة غدره عليه » قال ذلك وبان الحماس في عينيه . فتكدر سلمان لهذه الاريحية لانه لم يكن يفهم مغزاها وانمـا هو رجل ماكر داهية يهمه تنفيذ مآربه لا يبالى بما يعترضه ولا يهمه ما يأتيه فى سبيل ذلك من أساليب الكذب والمكر والغدر . لا يخاف ضميراً ولا يراعي ذماما ولذلك اختـاره صاحب الامر بخراسان للعمل الذى يحتاج إلى هذه الخصال بخلاف بهزاد وهو رئيس شريف وكل اعماله تؤيد ماطبع عليه من الاريحية وصدق اللهجة والنبالة

فلما سمع سلمان اباءه لم يستغربه وندم على تكليفه ذلك وتظاهر أنه اقتنع بقوله وقال « صدقت يا بهزاد بورك في بطن حملك » وأظهر ميله للرقاد من كثرة التعب فنام ونام بهزاد وهو يفكر في ما انتهت اليه هذه المهمة وماعساه ان ينجم عنه . وهو راقد في أواخر الليـل سمع خربشة فاستيقظ حالا وفتح

عينيه فرأى شبحا واقفاً بجانب فراشه وهو يتطاول الى الحائط فنهض والتفت ولم يذعره ذلك وقال « من هذا ؟ »

فرأى شيئا وقع من يد الرجل على الفراش فتوهمه فاذا هو خنجره والرجل سلمان فقال « ماذا تفعل يا سلمان ؟ »

قال « لا أفعل شيئا وقد فعلت ما أريده وهذا خنجرك خذه »

فمد يده الى الخنجر فرأى عليه اثر الدم فقال « ماذا فعلت . . هل قتلت الرجل ؟ »

قال « قتلناه لا اقامه الله . . وأنت تريد ان يبقى عثرة في طريقنا فقد مات واسترحنا منه »

فصاح به « ويلك قتلته ؟ وبخنجري ؟ »

قال « لان خنجرك منذور لهذا الامر كما قلت فاحببت ان أتحمل انا ذنب القتل واترك لك فضل الاباء والنزاهة والاريحية وكبر النفس (وهز رأسه) تريدون انشاء الدول بدون نكث ولا غدر ولم نر صاحب دولة استغنى عن ذلك حتى ابو مسلم الخراساني لو لم يغدر لم يغلب والمنصور لو لم يغدره لم تثبت دولته والرشيد لو لم يغدر بجعفر كان في خطر على خلافته . بل ارجع بذلك الى صدر الاسلام تر علياً وابناءه لم يفشلوا في سياستهم الا لانهم توخوا الحق والوفاء وبالغوا في البعد عن الغدر والدهاء ــ ولو لم يمكر معاوية ويغدر لم ينشىء دولة ولا اقام سلطانا . وتوارث العلويون حب الحق والتدقيق في الوفاء من علي فكان حظهم الفشل مثل حظه . ونحن في حاجة الى الغدر الآن ــ ومع ذلك فلم أكلفك ارتكاب هذه الجريمة فتحملت الذنب وحدي »

فاعجبه اعتذاره ولكنه قال له « ومع ذلك فان الغادر تعود عاقبة غدره عليه والتاريخ أصدق شاهد » وسكت وقد سره التخلص من الأمين على غير يده بدون أن يتحمل دمه فقال « وكيف فعلتم ؟ . . كيف قتلتموه ؟ . . قبحكم الله »

قال « سرقت خنجرك وتزييت بزي جند الفرس وأسرعت الى المكان الذي تركت الأمين فيه وقد مضى نصف الليل والظلام شديد فلقيت بابه

بضعة رجال من العجم معهم السيوف مسلولة فاختلطت بهم ودخلت معهم على الامين فوجدته قاعداً ولما رآنا قام قائما وقد أخذ الرعب منه مأخذاً عظيما وقال « انا لله وانا اليه راجعون ذهبت والله نفسي في سبيل الله . أما من مغيث أما من أحد من الابناء ؟ » أما نحن فظللنا داخلين عليه وكان بيد الامين وسادة يترس بها وهو يقول « ويحكم أنا ابن عم رسول الله أنا ابن هارون أنا أخو المأمون الله الله في دمي » فخفت أن تدرك القوم رأفة له فيفسد علينا أمرنا فالحمت على رجل أمامي سيفه مسلول بيده وقلت عليك به فضربه بالسيف على رأسه فرماه الأمين بالوسادة فتقدمت أنا وطعنته بهذا الخنجر في خاصرته فكانت القاضية فصاح « قتلني قتلني » فدخل سائر القوم فذبحوه من قفاه واخذوا رأسه ومضوا به الى طاهر (١) وجئت أنا بالخنجر اليك ـ فان كنت ترى انى أستوجب القصاص فاحكم على »

قال « يظهر أن الرجل كان مقتولا لامحالة ولكنك جعلت لخنجري دخلا في القتل حتى يصح النذر . . . رحم الله الامين وهنيئاً لنا فقد انتهت مهمتنا »

قال سلمان « فاذا نحن راجعون الى خراسان غداً اذا شئت »

قال « ولماذا هذه العجلة »

فقال وهو ينظر اليه شزراً « قد فرغت أنت من عملك وضمنت مستقبلك وهذه ميمونة تحت أمرك لو مكثتما هنا أو غير هنا فأنت مطمئن اما أنا فلي مآرب في خراسان لم أتوثق منه لذلك أحببت سرعة الرجوع »

قال بهزاد « وميمونة ألا تخرجها من المكان الذي حبستها فيه »

فضحك وقال « صدقت . . هي في قصر المنصور وفي الغد أسلمها اليك مع جدتها . . ألا يكفيك ذلك »

قال « بلى . واني شاكر لك كثيراً وقد آن لنا أن نتعامل كالاخوة فانت أخي وصديق منذ الآن وقد انقضى زمن الخدمة بانتهاء هذه المهمة »

فاثنى سلمان عليه وباتا بقية ذلك الليل ونهضا باكراً فقال سلمان « اني

(١) ابن الاثير ج ٢

ذاهب الساعة بلباس رئيس المنجمين حتى يسهل على الدخول الى قصر المنصور واحضار ميمونة وأنت ماذا تفعل ؟ »

قال « أسير في ظلك او انت تسير في ظلي حتى لا نضيع فرصة »

قال « حسناً »

الفصل التاسع والستون

ابن الفضل

وتزيا سلمان بزي رئيس المنجمين وركب بغلته وركب بهزاد جواده وعليه القباء والقلنسوة والسراويل كانه أحد كبراء الفرس فمرا بأسواق السكرخ وقد لاح الفجر وتحولا من ناحية باب الكوفة فهالهما ما شاهداه من ازدحام الاقدام واستغربا كثرة ما يتساقط عليهما من الحصى التي كان يرميها العيارون من الاسوار ولم يباليا بذلك وقبل وصولهما الى الباب المذكور رأيا جماعات من الناس وفيهم أهل الاسواق فضلا عن الجند الخراساني يتسابقون نحو البستان الذي كان طاهر معسكراً فيه واذا برأس مرفوع على قناة علم سلمان لاول وهلة أنه رأس الامين قد جاء به طاهر وغرسه على برج فوق حائط البستان . ولما رآه الناس أسقط في أيديهم وهلعت قلوبهم أو لعلهم فرحوا بالفراغ من الحرب فاستلفت انتباه بهزاد فلما وقع نظره على الرأس كبر واستعاذ بالله وقال « سبحان الحي الباقي اليوم سقطت دولة وقامت دولة أخرى — اذا عرف الفضل بن سهل الانتفاع من هذا النصر »

فقال سلمان « ما ظنك بطاهر يفعل بهذا الرأس »

قال « أظنه يرسله حالا الى المأمون في خراسان ومعه البردة والخاتم والقضيب لتطمئن القلوب ويتحققوا النصر وينال طاهر عليه جائزة كبيرة ويصبح المأمون الخليفة الوحيد »

أما قصر المنصور فقد غادره سلمان بالامس واهله غافلون عما يجرى

في قصر الخلد وكانت القهرمانة فريدة في مساء الامس مشتغلة بشؤنها فجاءها الحاجب يقول « ان ابن الفضل بن الربيع بالباب يطلب مقابلتك » وكانت تعرف ابن الفضل ومنزلته عند الامين فظنت ابنه قادما بأمر هام فأذنت بدخوله . وكان قد مضى عليه مدة وهو مختف مع أبيه لاسباب تقدم ذكرها لكنهما لم يفارقا بغداد فكانا على بينة مما يجرى فيها فعلم ابن الفضل فى ذلك المساء ان الامر قد استفحل ولا تلبث بغداد أن تسقط في ايدي الخراسانيين . وكان يراقب حركات ميمونة ويعرف امرها وقد سعي جهده في الحصول عليها حتى ذهب الى زبيدة في صباح الامس واقنعها انه يقدر ان يستعلم منها عن محل بهزاد ولمح انه يحبها فقالت « اذا استطعت معرفة مكان الرجل فانى املكك إياها » فطلب منها أمراً للقهرمانة أن تأذن له بمقابلتها . ولما رأى اضطراب الحال في ذلك المساء اتى ببعض العيارين واستأجرهم لاختطاف ميمونة اذا لم تأذن القهرمانة بتسليمها اليه وجاء الى قصر المنصور

فلما دخل على القهرمانة قابلته احسن مقابلة وسألته عما يريده فدفع اليها كتاب زبيدة فتذكرت ان سعدون كان قد أوصاها ان لا تأذن لأحد باخراجها فلم تر بأساً من ان يقابلها ابن الفضل فدخلت عليها واخبرتها ان ابن الفضل يريد مقابلتها وكانت جدتها عبادة معها فصاحت . . « لا شغل لنا معه »

فقالت « ولكنه جاءني بأمر من مولاتنا زبيدة »

فلما سمعت عبادة ذلك الاسم اضطربت جوارحها وتشاءمت وتوسلت الى القهرمانة أن ترد عنها هذا الشاب فلم تفعل

فأقبل ابن الفضل على الغرفة وقد انيرت بها الشموع وجلست ميمونة بثوبها الاسود وقد تغير لونها من توالى المصائب وأصابه شحوب زاده رقة فدخل وهو يبتسم ابتسامة الاستعطاف وفي وجهه أمارات الحب فلما رأته اقشعر بدنها وظلت جالسة مطرقة فتقدم نحوها وحياها وقال « الا تعرفيني يامیمونة ؟ »

قالت بنفرة وجفاء وهي تحول وجهها عنه «كلا»

قال « الا تعرفين شاباً يهواك الى حد التلف ؟ الا تعرفين ابن الفضل ؟ »

قالت « أعرف هذا الاسم بالسمع وذكره يؤلمني لأن أباه البسني هـذا الثوب »

فقال وهو يتلطف بتعبيره « اذا صح فاني أتكفل ان اعوضك منـه ثوباً أبيض وأن ابدل ايامك السوداء بأيام بيضاء كالثلج . . »

قالت وهي تنظر اليه شزراً « قد تعودت السواد ولم أعد اشتهي سواه »

قال « البسي ما تشائين وافعلي ما تشتهين ولـكن تعطفي على فتى يحبك حباً مبرحاً . اني احبك يا ميمونة ولـكني سيء الطالع لانك لا تحبينني . . »

قال ذلك وجثا بين يديها واراد لمس يدها فجذبتها منه كأنه عقرب تريد لدغها

فوقف وقد شق عليه جفاؤها وقال « جئت يا ميمونة اتوسل اليك باسم الحب فاذا لم تشفقي على تذللي جئتك من سبيل آخر »

فقالت « لا اعرف لك سبيلا الى دعني وشـأني وابحث عن سواي فان النساء كثيرات »

قال « لم يقع اختياري على سواك ويدلك على ذلك ثباتي في حبك رغم ما تظهرين من النفار . . ألم يأن ان تتعطفي »

فتحولت عنه وقالت « دعني يا رجل . . »

فنهض وقال مهدداً « قلت لك اذا ظللت على هذا الجفاء عاملتك بالقسوة ولو شق علي ذلك

قالت وهي لا تنظر اليه « لا تستطيع أمراً ونحن في قصر أمير المؤمنين »

قال « اني أستطيع حملك بالقوة فان معي فرقة من الجند وبيدي أمر من أم الخليفة »

وكانت جدتها جالسة تسمع ما يدور بينهما فصاحت فيـه قائلة « كنت أحسبك شهماً يؤثر فيك الكلام . . أما كفاك ماسمعته ؟ . دع الفتاة وشأنها . ولو كنت في مكانك وعلمت انها لا تحبني لتركتها في أي حال »

قال « كنت اتركها ولا أبالي بها ولـكنني يشق علي أن اعود بالفشل بعد

الصبر زمناً طويلا فالآن ولو كنت لا أحبها فاني أريد أن أعلمها من انا وان مثلي لايعامل هـذه المعاملة وفي بغداد مئات من بنات الأمراء والقواد يتمنين رضاي » والتفت الى ميمونة وقال « راجعي نفسك وثقي اني أنصح لك فلا تلجئيني الى القوة أن فرقة من العيارين في انتظار امري خارجاً »

فضاقت نفسها وتململت وصاحت « ويلاه أين الجنـد أين الحرس ؟ » فنهضت جدتها وقالت لابن الفضل « اكفنا أيها الشاب شرك ودعنا وشأننا .. اذا كنت تعرف من نحن فاشفق علينا وكفانا ما قاسيناه من البلاء »

وهم في ذلك سمعوا جلبة في الدار فظنت ميمونة أن العيارين دخلوا للقبض عليها فصاحت « ويلاه ياربي . اذا لم يكن قد انتهى حبل مصائبي خذ روحي » وطفقت تبكي ولم تتمالك لاضطرابها ولهفتها أن صاحت « أين سلمان . أين بهزاد ؟ أواه ما أشقاني » وكانت جدتها في أثناء ذلك واقفة الى جانبها تهون عليها والدموع تتساقط من عينيها

أما ابن الفضل فعـلم ان الضوضاء ليست من العيارين فخرج ليرى سببها فسمع الخدم يقولون « السيدة زبيدة أتت »

فاستغرب الجميع مجيئها في تلك الساعة وقد مضى معظم الليل

والسبب في مجيئها انها بعد ان خرجت من قصر الخلد في ذلك المساء وهي على ما وصفنا من الخوف على ابنها ذهبت الى قصرها وظلت مشتغلة الخاطر وكأن قلبها دلها على الخطر القريب فذهبت الى الفراش ولم تنم . وبعد منتصف الليل أيقظتها قهرمانة قصرها فنهضت مذعورة وسألت عن الخـبر فقالت القهرمانة « ان بعض شاكرية قصر الخلد يسأل عن أمير المؤمنين »

فصاحت يسأل عن ابني ؟ يسأل عنه هنا . . أين هو ؟ اني تركته في قصر الخلد منذ ساعتين . أين الشاكري ؟ »

فادخلوه اليها فقالت « أين أمير المؤمنين ؟ »

قال «لانعلم ياسيدتي وقد بحثنا عنه في كل مظانه بالقصر فلم نجده ولا نعلم أين هو »

فنهضت والتفت بمطرفها وركبت الى قصر الخلد وفتشت عنه هناك فـلم

تجده في مكان فخطر لها أنه ربما ذهب في أمر وسيعود فمكثت على مثل الجمر حتى كاد الفجر يلوح فحدثتها نفسها انه لعله دخل مدينة المنصور للامتناع في قصرها فركبت الى هناك فقابلتها القهرمانة فسألتها عن الخليفة فقالت انها لم تره

فقالت زبيدة « رأيت بالباب بعض العيارين فمن أتى بهم الى هنا ؟ »

قالت « ابن الفضل وقد جاءني بكتاب منك ليكلم الجارية ميمونة »

فلما سمعت اسمها اشتد غضبها وتصورت انها مصدر متاعبها فصاحت « أين هي ؟ »

قالت « هي في هذه الغرفة » ولم تصبر زبيدة لتستدعيها اليها فتوجهت الى الغرفة ودخلت فجأة وقد أخذ الغضب منها مأخذاً عظيماً فلقيها ابن الفضل بالباب فتنحى فدخلت فرأت ميمونة واقفة وجدتها عبادة الى جانبها فلما رأت عبادة هناك لم تتمالك أن صاحت « وأنت هنا أيضاً ؟ تباً لك من عجوز شقية . انك سبب متاعبي وأصل بلائي ما الذي جاء بك الى هذا المكان ؟ »

فاطرقت عبادة وسكتت لانها لم تجد وجهاً للكلام ولا عذراً للمجيء . فوجهت زبيدة خطابها الى ميمونة وقالت « والآن ألم يئن لك أن تقولي لنا عن مكان ذلك الشقي الخائن الذي تسمونه بهزاد . . قد علمت أنه في بغداد وكل بلائنا منه . . أين هو ؟ »

فقالت وصوتها يختنق من الخوف « لا أعلم يا سيدتي لاني سجينة هنا ولا يصل الى خبر ولا أعرف من حوادث الدنيا شيئاً »

قالت « أتكذبين والعلائق بينك وبينه لم تنقطع على يد خادم له اسمه سلمان ؟ »

فقالت « اسألي القهرمانة اني لا أرى خادماً ولا أميراً بالله اشفقي علي يا سيدتي وكفاني ما أقاسيه » وأغرقت في البكاء

قالت « اشفق عليك ؟ لماذا . ؟ . آه لو استطعت خنقك بيدي لم أتأخر » ثم التفتت الى الخارج فرأت ابن الفضل لا يزال واقفاً فصاحت به « خذ هذه الجارية فقد ملكتك إياها افعل بها ما تشاء . وهذه العجوز النحس سوف أذيقها ماتستحقه »

فلما سمعت عبادة قولها جثت بين يديها وقالت « افعلي بي ما تشائين وارفقي بهذه الفتاة فانها بريئة من كل ذنب . قد تضرعت اليك بشأنها قبل الآن فرددتني والآن أتوسل اليك وأنت والدة وتعرفين حنو الأمهات أن تترفقي بهذه الفتاة .. وأما أنا فلا أسف على حياتي »

فلما سمعتها تذكر حنو الوالدات أحست بشيء أوهن عزائمها لعلمها بما يهدد ابنها من الخطر ولا سيما في تلك الساعة إذا أضاعته ولا تعلم حي أم ميت — والانسان لا يشعر بمصائب الناس الا اذا أصيب بمثلها أو تعرض للاصابة بها . فكم يسمع العازبون بثكل الآباء أو الامهات فلا يهمهم ذلك كثيراً فاذا تزوج أحدهم وربي ولدا أصبح اذا سمع صياح طفل من مغص أو جوع تفتت كبده عليه وأسرع الى اعالته ولو سمعه العازب لنقم على أهله وأشار بضربه . حتى الآباء لا يشتد شعورهم بهول الثكل إلا اذا أصيبوا به أو تعرضوا له كما أصاب زبيدة في ذلك اليوم — فقد سمعت عبادة تتوسل اليها قبل الآن بحياة ابنها فلم يؤثر قولها بها أما يومئذ فلما سمعت قولها دبت الشفقة في عروقها وسكتت كأنها أصيبت بالخرس وتساقط من عينيها دمعتان تدحرجتا على خديها وهي تغالب عواطفها وتتجلد لئلا يظهر الضعف عليها فنهضت وتظاهرت بالغضب وقالت « قلت لك انه لا سبيل الى خلاصها الا اذا اعترفت بمكان بهزاد وإلا فهي ملك لابن الفضل » وأشارت اليه ان يأخذها

وكان الصباح قد لاح وهم لا يشعرون فتقدم ابن الفضل الى الفتاة وهو يحسبها لانت فاذا هي تنوح وتبكي وتصيح « لا لا . لا أذهب اقتلوني في مكاني آه يا بهزاد اين أنت أواه هذه عاقبة الصبر ؟ »

الفصل السبعون

قضى الامر

وخرج ابن الفضل في أثناء ذلك لينادي العيارين ليقبضوا عليها ويحملوها قهراً فسمع الخدم يقولون « أتى رئيس المنجمين » فاراد ان يراه ويخاطبه

لعله يقنعها بالحسنى فقيل له « انه عند السيدة زبيدة » وكانت قد انفردت في القاعة الكبرى واخذت تفكر في ما أحاط بها وما يهددها وقلبها خائف على ابنها . فدخلت القهرمانة وأخبرتها بقدوم رئيس المنجمين فقالت « ادعيه إلى »

وكان سلمان وبهزاد قد وصلا القصر منذ هنيهة والمدينة قد سلمت وأهل قصر المنصور لا يعلمون . فلما أتيا ذلك القصر وجدا في ساحته جماعة من العيارين فلم يبال سلمان بذلك فتقدم الى الباب فرآه موصداً وسمع ضوضاء من الداخل فقرعه فلم يجبه أحد فبالغ في القرع فأطل عليه خادم من كوة فوق الباب وقال « من الطارق ؟ »

فرفع سلمان بصره فرأى غلاما عرفه فصاح به « افتح حالا »

فعرف الغلام انه رئيس المنجمين فأسرع وفتح الباب فدخل ببغلته ودخل بهزاد في أثره الى فناء القصر وترجلا وسلما الدابتين الى الغلام فرأيا أهل القصر في هرج والخدم يدخلون ويخرجون من باب القصر الداخلي . فقال رئيس المنجمين للغلام « أين القهرمانة ؟ »

قال « هي بين يدي مولاتنا زبيدة »

فلما سمع ذلك تشاءم من وجودها هناك فقال « ادع لي القهرمانة الساعة. قل لها رئيس المنجمين يحتاج اليك في أمر هام »

فمضى وعاد وهو يقول « ادخل فان السيدة زبيدة تحتاج اليك »

فالتفت الى بهزاد وقال له « لا شك أنها ستسألني عن ابنها وعن مكانه وربما تسألني عنك فهل أذهب اليها وحدي ؟ »

قال « دعني أذهب معك »

فقال سلمان للغلام « قل للقهرمانة ان مع رئيس المنجمين رفيقاً لا يدخل بدونه »

فعاد وقال « ادخلا الى القاعة فدخلا والغلام يمشي أمامهما الى القاعة . فدخل أولا سعدون وحيا ثم دخل بهزاد ولم تنتبه له زبيدة لاشتغالها بهواجسها وكانت قد تربعت ووضعت على حجرها وسادة أسندت اليها كوعيها واستلقت رأسها بين كفيها . فلما دخل سعدون رفعت رأسها وصاحت به « ويلك ؟

أين كنت وكيف أتيت في إبان الحاجة اليك ؟ » ثم أشارت اليه بالقعود فقعد وقعد بهزاد وهي لا تراه

فقال سلمان « كنت مجداً في البحث عن بهزاد حتى وجدته »

فأبرقت أسرتها وصاحت « وجدته ؟ . . . أين هو ؟ »

فأشار الى بهزاد وقال «هذا هو يا سيدتى »

فدهشت وأجفلت وصعد الدم الى وجهها ونظرت الى بهزاد وتفرست فيه فرأت جمالا وإجلالا ووقاراً فلم تتمالك أن صاحت فيه « أنت بهزاد ؟ »

قال « نعم أنا هو »

قالت « كيف تجرأت على المجيء الينا ألم تخف بطش أمير المؤمنين ؟ »

فقال بهدوء ورزانة « لم أخفه حياً فكيف أخافه ميتاً »

فذعرت واقشعر بدنها ولطمت خديها وصاحت « أمير المؤمنين ؟ ابني محمد . . ماذا تقول . . تهزأ بي يا أنذل الرجال ؟ »

قال «كلا ياسيدتى إنى أقول الحق...ويسوءنى أن أقول ذلك في حضرتك لعلمي انه يؤلمك ولكنك سألتني فلم أكذبك»

فالتفتت إلى سلمان وهي تحسب نفسها في منام وقالت «سعدون قل الصحيح قل أين أمير المؤمنين أظن الرجل يهذي .. اين ابني محمد . ولدي حبيبي اين هو ؟ . . قل »

فأجابها ببرود « رأيت رأسه معلقاً على حائط البستان يا سيدتي وقد قضي الامر » قال ذلك ونهض فلطمت زبيدة خديها بكفيهاوصاحت وولولت. وسمع بهزاد في تلك اللحظة صوت ميمونة تستغيث به وتقول « آه اين انت يا بهزاد انجدني انقذني »

فوثب من القاعة ويده على خنجره وهو يقول لبيك ياحبيبة »

فرأى جماعة من العيارين قد امسكوا بشعرها وأخذوا يجرونها وابن الفضل واقف يقول « خذوا هذه الخائنة»

فلم يكذب بهزاد ان استل خنجره وطعن ابن الفضل طعنةقضت عليهوتحول الى العيارين وصاح فيهم « أخسأوا يا أنذال قد جاءكم بهزاد فلما سمعوا صوته

ورأوا ابن الفضل مجندلا فروا هاربين ـ ولم تكن ميمونة تعلم بوجود بهزاد هناك ولكنها لما يئست من النجاة ورأت ابن الفضل يأمر العيارين بجرها استغاثت على غير هدى فلما رأت بهزاد ترامت عليه واغمى عليها وأسرعت جدتها اليه وقالت « من أين اتيت الينا ايها الملاك ؟ . انى أخاف عليك من هؤلاء الانذال »

فقال « لاتخافي ياسيدتي ان بغداد في قبضتنا ورأس الأمين معلق على الحائط يراه الناس »

فلما سمع أهل القصر ذلك ذعروا وفشلوا وتراكضوا الى زبيدة فرأوها في القاعة وقد حلت شعرها وأخذت في النحيب وهي تقول « وا ولداه . قتلك البغاة الظالمون »

فسمعتها عبادة تقول ذلك فاثر قولها في نفسها فدخلت اليها ولما رأتها في تلك الحال غلب عليها الحزن ورقت لحالها فاكبت على يديها تقبلهما وتقول « ارفقي بنفسك ياسيدتي هذه ارادة المولى . . » وتذكرت مصيبتها بابنها فشاركتها في البكاء

وكانت زبيدة تتوقع أن تشمت عبادة بها فلما رأت مجاملتها وسمعت بكاءها خجلت ونظرت اليها نظر الانكسار والذل ـ ولا يذل مثل الموت ـ وقالت « صدقت يا أم الفضل (عبادة) لايعرف قيمة الثكل الا الذي ذاقه . . آواه وا ولداه . . رحم الله جعفراً والرشيد ورحم الله محمداً . . مات ؟ . . مات حقيقة ؟ . . قتلوه ؟ .. علقوا رأسه كما علقوا رأس ابنك ؟ . بالله ارفقوا ببدنه الغض إنه لم يتعود الشقاء . . لاطاقة له بحر الشمس . . كيف علقتموه انه لم يتعود غير الرفاه والنوم في الحرير . حرام عليكم . . انه شاب في مقتبل العمر . . ألم يكن الاولى ان اقتل انا ويبقى هو حياً . . . انزلوه وعلقوني مكانه . . صدقت يا أم الفضل اني لم أصغ لتضرعك لاني لم أكن قد ذقت الثكل . . » وأخذت في البكاء والنحيب وقد حلت شعرها وطفقت تلطم وجهها وهي تخطر في القاعة ذهاباً وايابا على غير هدى حتى لم يبق أحد هناك إلا بكى ثم اشتغل كل بنفسه

أما بهزاد فلم يكن همه الا ميمونة فاحتملها بين الغوغاء وخفف عنها وهي تحسب نفسها في منام . تنظر الى بهزاد ولا تصدق انها تراه وقد جاءها في ابان الحاجة اليه فانقذها من القتل . وبينما هي تمشي بالدار متكئة على ذراعه انتبهت إلى جثة ابن الفضل ملقاة على الارض فقالت لبهزاد « انى آسفة لقتل هـذا الشاب فقد كان حسن الظن بي ولا يريد إلا خيراً ولـكنه كلفني ان أحبه وقلبي لا يحب غير بهزاد حبيبي . . »

فقال بهزاد « ولـكنني رأيته ينتهرك ويهددك فلم أطق صبراً فقتلته . مالنا وللناس قد قضي الامر هلمى بنا . . . سلمان . . هيا بنا »

فجاء سلمان فتناول عبادة وأخذ بهزاد ميمونة وخرجوا فركبوا دوابهم وانصرفوا وتركوا أهل قصر المنصور في مأتمهم

الفصل الحادي والسبعون

الموت الهنيء

وبمقتل الأمين انتهى الخصام بين الاخوين ودخلت بغداد في حوزة المأمون وأصبحت الخلافة له . ولـكنه بقي في خراسان وأناب عنه في بغداد وغيرها مما فتحه طاهر بن الحسين الحسن بن سهل أخا الفضل وكتب الى طاهر بتسليم ذلك اليه

أما بهزاد فلم يبق له شغل في بغداد وأصبح بعد ان أتم مهمته راغباً في الرجوع الى والدته بمرو ليبشرها بالفتح ويخبرها بحبه ميمونة لتباركه وتزوجه بها . وفي اصيل اليوم الذي خرج فيه من القصر ركب هو وميمونة وعبادة وسلمان يريدون خراسان وميمونة لاتصدق انها مع حبيبها ولا ترتوي من النظر اليه وقد تجدد شوقها لمعرفة حقيقة حاله وما هو نسبه وما غرضه وما كان يحمله في ذلك الصندوق من الاسرار . وهمت ان تسأله في أثناء الطريق فمنعها الحياء ووجود جدتها . على انها علمت النفس بمعرفة ذلك عند وصولها الى خراسان

وكانت فاطمة والدة بهزاد وسائر أهل خراسان ينتظرون خاتمة هذه المساعي بفارغ الصبر وقد قضوا في ذلك منذ توفي الرشيد بطوس إلى ان قتل الامين ببغداد نحو خمس سنوات والفضل بن سهل وزير للمأمون في خراسان يشير عليه ويدير شؤونه وقد سماه المأمون ذا الرياستين

فلما جاءهم البريد بمقتل الامين وتسليم بغداد فرحوا واستبشروا ثم أرسل طاهر برأس الامين الى المأمون ومعه البردة والقضيب والخاتم فوصل ذلك الى الفضل فأدخله للمأمون على ترس فلما رآه سجد . وقد تمكن الفضل مما أراده من تمهيد الامور لارجاع سلطة الفرس بظل الشيعة إذ بايع المأمون لعلي الرضا زعيم حزب الشيعة بالخلافة بعده وامر الناس بترك لباس السواد شعار العباسيين والاستعاضة عنه بلباس الخضرة . فكان لذلك وقع سيء لدى العباسيين في بغداد وكاتبوا المأمون يعاتبونه ويهددونه . ولكن كتبهم كان يتناولها الفضل بن سهل ولا يطلع المأمون عليها لفرط دالته ونفوذ كلمته

وصل بهزاد إلى مرو وقد نال مايرجوه من ثمار سعيه ومحبوبته معه . أما سلمان فقد قام بما عليه ولكنه لم ينل جزاءه بعد . فلما وصل بهزاد الى مرو واستأذن سلمان بالذهاب الى بيته مع عروسه فقال سلمان « لاتنس انك فرغت من مهمتك وأنا لا أزال أتوقع النتيجة »

فقال بهزاد « ستكون رئيساً لجماعة الخرمية وقد أوصيت لك بذلك من قبل . ألا يقنعك هذا الجزاء ؟ »

قال « كلا . . . وانما أرجو شيئاً آخر هو أهم عندي من الرياسة فكن ساعدي فيه كما كنت ساعدك في مثله »

قال « لم أفهم مرادك »

قال « ألم أكن نصيرك في الحصول على ميمونة فأنا أطلب الزواج ببوران بنت الحسن بن سهل وإذا شاء عمها الفضل فالامر هين وأظني أهلا لها بعد ما اتيته من المعجزات في نصرة هذه الدعوة »

فاطرق بهزاد واعمل فكرته في هذا الطلب فلم يجده بعيد المنال وتذكر ما دار بينه وبين الفضل بشأن بوران قبل عوده الى بغداد فرأى في تزويجها

لسلمان فضاً للمشكل فقال « غداً ننظر في ذلك ولكنني أطلب منك خدمة هي خاتمة أفضالك علي

قال « وما هي ؟ »

قال إني أحتاج الى رأس الامين .. هل تحتال في استخراجه الى من مدفنه سراً كما استخرجنا رأس جعفر ورأس أبي مسلم ؟

فادرك سلمان غرضه فقال « ذلك هين على فانتظرني الى الغد فآتيك بالرأس الى منزلك وافترقا

وسار بهزاد توا الى بيت والدته فاطمة ومعه عبادة وميمونة وهو يخاف ان تكون والدته قد داهمها الموت في أثناء غيابه فقرع الباب وهو مصيخ بسمعه فلم يجبه احد فخفق قلبه فقرع ثانية فسمع وقع اقدام في الداخل ثم فتح الباب وأطل الخادم الذي فتحه له في المرة الماضية وانس في وجهه تغيراً وانقباضاً فاندره قائلا « كيف ماما ؟ »

فرحب به وقال « هي في خير . . . ولكنها تشكو ضعفاً من شدة شوقها اليك »

فاسرع اليها بعد أن أوصى الخادم ان يدخل الضيفتين الى غرفة ترتاحان فيها ودخل على والدته فوجدها ملقاة على سريرها وقد غارت عيناها وبرزت وجنتاها وبان فيها الهرم المتناهي فوقف بازائها وحياها بصوت ضعيف وهو يخشى ان تكون قد ماتت

فلما سمعت صوته أفاقت وفتحت عينيها وأدارت رأسها ببطء لشدة الضعف وتبسمت تبسما لا رونق فيه . فجثا بجانب سريرها واكب على يدها وقبلها فاشارت اليه ان يدنو منها فقبلت جبينه ونظرت اليه نظرة مستفهم فقال « قد جئتك يا سيدتي بما تريدين فقتلنا القوم الظالمين وقتلنا خليفتهم الغلام الغر وأصبح ابن اختنا المأمون خليفة المسلمين وغداً يكون الخليفة على الرضا صاحب الشيعة ثم تعود الدولة لنا . فها اني انتقمت لجدي بخنجره كما امرت » ومد يده فاستخرج الخنجر واراها أثر الدم على نصاله وقال « وانتقمت لجعفر بن يحيى »

فبان السرور في وجهها وتنهدت تنهد مرتاح وتجلدت وقالت بصوت متقطع « بورك فيك يا بني . لقد نزعت العار عن قومك وجبرت قلب والدتك » ثم تنهدت وتململت وهي تتجلد وتغالب الضعف وقالت « أين الرأس الثالث ؟ »

قال « يكون هنا في صباح الغد وتدفن الرؤوس الثلاثة معاً حسب الوعد »

فرفعت يدها نحو السماء كأنها تدعو له ثم لمست وجهه لتباركه فاحس ببرودتها وجفافها كأن أصابعها من حديد بارد وأومأت اليه فانحنى عليها فقبلته ثانية وهمست في أذنه بصوت لا يكاد يتميز « ادفنها معي غداً »

فنظر الى وجهها الشاحب الضئيل فرأى في عينيها دمعتين تحاولان الانحدار ولا تجدان مخرجاً من المقلتين لشدة غورها وهي مستلقية فتحقق قرب أجلها فابتدرها قائلا « لقد باركتني يا أماه فاتوسل اليك أن تباركى فتاة ستكون شريكة حياتى كما كانت شريكتي في المصائب » والتفت فاشار الى الخادم أن ينادى الامرأتين

فلما سمعت طلبه استفهمته بعينيها لان الضعف ربط لسانها فاستمهلها بالاشارة

وكانت ميمونة لما سمعت بهزاد يسأل الخادم عن امه ساعة وصولهم قد علمت أنها في منزله وأصبحت شديدة الميل الى معرفة نسبه فلما جاءت لمشاهدة امه ذعرت لما رأته فيها من الضعف والشيخوخة وبان ذلك عليها وادرك بهزاد ذعرها فابتدرها قائلا « طالما احببت ان تعرفي نسبى فاعلمى ان هذه الراقدة أمى وهي بنت أبى مسلم صاحب الدعوة مؤسس الدولة العباسية الذى قتل غدراً كما قتل أبوك . وليس في خراسان من يعلم انى حفيد ذلك البطل الا هذا الخادم وأمي والناس يحسبونني ربيبها لاني ولدت بعد وفاة والدى وادعت هي أني ربيبها ووقفتني على الانتقام لأبيها وسمتني كيفر . وقد آن لى ان أخبرك عما في ذلك الصندوق فاعلمى انه يحوي رأسين عزيزين هما رأس جدى ورأس ابيك »

obeikandl.com

فلما سمعت ميمونة ذلك أجفلت وتغير لونها فشغلها عن الدهشة بتمام الحديث فقال « وقد حفظتهما في ذلك الصندوق هنا حتى أتيت برأس الامين وهو ثالثهما وسيؤتى به الينا غداً ويدفن الثلاثة معاً فاكون قد وفيت نذر والدتي وزدت على ذلك اني اتيتها بابنة جعفر حبيبنا . . »

فقالت « انت اذاً حفيد أبي مسلم ؟ »

قال « نعم وانت بنت جعفر وقد قدر لنا الانتقام من أعدائنا »

وكانت فاطمة في أثناء ذلك مستغرقة في النوم لشدة ضعفها فلما فرغ بهزاد من حديثه امسك ميمونة بيدها وادناها من سرير والدته وهو يقول « هذه ميمونة بنت جعفر بن يحيى قتيل الرشيد قد اسعدني الحظ بلقياها واحببتها واحبتني وقاست العذاب معي وقد فرحنا معاً وهي ستكون زوجتي فباركيها »

فرفعت يدها واشارت اليها ان تدنو منها فدنت فقبلتها ومسحت وجهها بكفها وتمتمت واشارت الى ثوبها الاسود وشفعت ذلك باشارة النهى ففهمت انها تأمرها بنزع الحداد فأشارت مطيعة . ثم استقدم عبادة وكانت بجانبه وقال لها « وهذه ام الفضل والدة جعفر الا تعرفينها ؟ »

فتفرست فيها مع شخوص بصرها وجموده وتكلفت الابتسام كأنها تقول « عرفتها » فقالت عبادة « نعم اني اعرفك منذ صباي » وانحنت عليها وقبلتها فلمستها فاطمة بشفتيها كالتقبيل وقد أخذ منها الضعف مأخذاً عظيماً واحست بضيق صدرها وسرعة تنفسها فعلم القوم انها في حالة النزع ولكنها مازالت مبتسمة ابتسام الفوز حتى فاضت روحها وهم ينظرون اليها وهي تفتح عينيها تارة بعد اخرى . فلما ارسلت نفسها الاخير بكوا عليها . وفي اليوم التالى جاء سلمان بالرأس فأضافوه الى الرأسين الآخرين ودفنوها جميعاً مع فاطمة كما اوصت

الفصل الثاني والسبعون

الخائن لا صديق له

وبعد ايام عقد لبهزاد على ميمونة ثم بعث الى سلمان فولاه رياسة الحرمية فذكره سلمان بوعده التوسط لدى الفضل فأشار مطيعاً وفي اليوم التالي ركبا الى بيت الفضل بن سهل . وكان الفضل قد بلغ اوج سعده بما توفق اليه من استقلال المأمون بالخلافة والوصاية بها بعده لعلي الرضا فأصبح الفضل الآمر الناهي تجري ارادته حتى على المأمون . فلما انبأه الحاجب ان بهزاد وسلمان بالباب امر بادخالهما وكان مجلسه غاصاً باصحاب الحاجات وفيهم الوجهاء والقواد إلا اخاه الحسن لانه سار الى بغداد كما تقدم . فلما دخل بهزاد رحب به الفضل ودعاه للجلوس الى جانبه على السرير واشار الى سلمان فجلس على كرسي بين الخاصة فلم يؤذه ذلك فأخذ الفضل يسأل بهزاد عن سفره وما شاهده فأخبره انه قادم من بغداد بعد ان شهد سقوطها فقال له « كنت فيها يوم مقتل الامين ؟ »

قال « نعم كنت مع صديقي سلمان وشاهدنا رأس الامين منصوباً على حائط البستان » فضحك ضحك الظافر وقال « على الباغي تدور الدوائر »

ثم اشتغل في قضاء مصالح الناس وسكت بهزاد ريثما يفرغ المجلس ولم يتم ذلك الا بعد أذان الظهر فانصرف الناس ولم يبق غير بهزاد وسلمان والفضل فنظر بهزاد الى الفضل وقال « يسرني أن اخبرك بما أتاه صديقي سلمان من المعجزات في أثناء هذه الوقائع فانه كان من اكبر العاملين في تتميم رغائب ذي الرياستين بعقله وسيفه » . فابتسم الفضل وقال « سنكافئه بولاية عمل من الاعمال الهامة . . . أم هو مثلك لا يحب المناصب ؟ »

فضحك بهزاد وقال « اذا قلدته عملا فقد أسبغت عليه نعمك ولكني أحب أن ينال حظوة أخرى في عينيك يتشرف بها بين الاقران »

فقال « وما ذلك » ـ قال « أن تزوجه بابنة أخيك »

فوجم الفضل ثم قال « وأي بنات أخي تعني ؟ » ـ قال « بوران »
فتراجع وتغير وجهه وهز رأسه وقال « هو يطلب ذلك ؟ »
قال « بل أنا أطلبه له اذا شئت فانه من خير الرجال »
قال « يعز علي رد طلبك يا بهزاد فان بوران مخطوبة »

فظن بهزاد لاول وهلة أنه يعني خطبتها له فأراد الاستفهام فسبقه سلمان الى الكلام وقال « لمن ؟ »

فنظر الفضل اليه وقد امتعض من اعتراضه وقال « مخطوبة لاعظم رجل في الاسلام اليوم .. » فأدرك سلمان انه يعني المأمون وتحقق ذهاب العروس من يده فانقبضت نفسه وهاج غضبه وقال يظهر ان ذا الرياستين نسي وعده »

قال « أي وعد ؟ » ـ قال « ألم نتواعد على شيء ؟ »
قال وفي صوته جفاء وانتهار « متى تواعدنا ؟ »
قال « هل أقول ذلك الآن ؟ » ـ قال « قل ما تشاء »

قال « تواعدنا عليه لما خلعت المجوسية واعتنقت الاسلام رغبة في المناصب وتواطأنا على السعي في هذا السبيل وأنت يومئذ لا تملك شيئاً وكانت بوران طفلة . أما الآن فقد تغيرت الاحوال وأصبحت ذا الرياستين وصاحب الامر والنهي فاذكر أننا تعاقدنا على ذلك وأني قمت بما علي فهلا قمت بما عليك ؟ » فظهر الغضب في وجه الفضل لما يتخلل كلام سلمان من التعريض والتلميح وقال « لا اذكر شيئاً من ذلك . . ولكن ما رأيك هل نرفض خطبتها الحالي ونزفها اليك وفي كل حال فالامر في ذلك لوالدها وهو غائب »

فوقع قوله في قلب سلمان وقوع السهم وامتقع لونه ورقص شاربا في وجهه وتحفز للنهوض فأدرك بهزاد تغيره فوقع في حيرة وأراد أن يستأنف الكلام فرأى الفضل يتناول مذبته ويتزحزح من مجلسه فعلم أنه يطلب الانصراف فوقف بهزاد وسلمان وانصرفا بعد أن حياهما الفضل تحية باردة . فلما خرجا أراد بهزاد ان يخفف من غضب سلمان فلم يمهله أن يقول كلمة وهم بوداعه فقال بهزاد لا تغضب يا أخي لعل للرجل عذراً مقبولا »

فقال وفي صوته خشة من الغضب لا عذر له ولكنه دنيء الأصل لا يعرف

قيمة الرجال وسأريه عاقبة أمره» ومشى مهرولا . وظل بهزاد واقفاً حتى توارى سلمان عنه وهو يحسب لهذا التهديد ألف حساب لعلمه ان صاحبه ذو كيد ومكر لايثنيه عن الاذى ضمير أو عهد ولا هو يراعي ذمة ولا جواراً

أما سلمان فسار تواً إلى قصر المأمون وطلب الخلوة به فأذن له بها فلما اختليا قال سلمان « إني من موالي أمير المؤمنين ويسرني ان ما بذلناه في سبيل نصرته لم يذهب عبثاً فمن الله علينا ببقائه ونيله الخلافة وهو خليق بها »

فتوقع المأمون من وراء ذلك خبراً جديداً ولم يكن مغفلا فاغتنم هذه الفرصة وقال « إني شاكر لاخوالي الخراسانيين فانهم أصحاب الفضل بما نلته »

فتظاهر سلمان بالتردد حيناً وهو يبلع ريقه ويتنحنح فقال له المأمون « قل ما بدا لك ولا تخف »

قال « أنا اعلم أني معرض حياتي للخطر بما سأقوله ولكنني أقوله رغبة في حفظ حياة أمير المؤمنين ودوام دولته وأرجو ان يبقى قولي سراً عن كل انسان » فاهتم المأمون وقال « أتوصيني بحفظ السر وقد قامت دولتنا به ؟ قل سريعاً . لاتخف »

قال «ان وزيرك الفضل بن سهل يوهمك انه رد السلطة اليك وهو يدبرها لنفسه » . فخاف المأمون أن يكون الرجل آتياً بدسيسة من الفضل فقال « ان مثل الفضل أهل للتمتع بنفوذ الكلمة بعد الذي بذله في سبيلي »

قال « أرى مولاي يحاذر أن يظهر ما يجول في خاطره وهو غير بذلك ولكنني أقول ان الفضل إنما اراد السلطة لنفسه ليس لمجرد النفوذ ولكنه يسعى في نقل الخلافة من العباسيين الى العلويين لترجع الى الفرس ولذلك اشترط البيعة لعلي الرضا بعد أمير المؤمنين

فانتبه المأمون لمساعي الفضل من هذا القبيل ولم يكن غافلا عنها من قبل ولعله اضطر اليها رغبة في التغلب على أخيه فقال « ولكنني بايعت على الرضا باختياري لأني لم أجد في بني العباس من هو أهل للخلافة »

قال « وهل تضمن أن يكون بنو علي أهلا لها . . وهب انك فعلت ذلك مختاراً فهل تضمن أن يصبر الفضل في نقلها حتى يستوفي أمير المؤمنين حظه منها

اعذرني اذا رأيتني أخاطبك بحرية وأنا واثق من بقاء ذلك سراً بيني وبين أمير المؤمنين ولا أطلب اليه الا الحذر من هذا الرجل على حياته ثم على دولته واذا حسب قولي تطفلا فاني أستميح منه العذر »

فاطرق المأمون وقد جال في فكره خواطر كثيرة وحدثته نفسه بامور سكت عنها واكتفى بقوله « وما الحيلة ؟ »

فاستبشر سلمان بهذا السؤال وقال « اذا عهد أمير المؤمنين ذلك الى فاني أنقذه منه بجرعة عسل أو شربة ماء »

فأعظم المأمون جسارة هذا الرجل وقال في نفسه « ان وجود مثل هذا الغادر خطر على أعدائه وأصدقائه . . لأنه بعد ان بذل نفسه في خدمة الفضل أصبح يسعى في قتله فلا بد لذلك من سبب حمله على التغيير ولا يبعد ان يحدث ما يغيره على سواه » لكنه رأى فيه عوناً على التخلص من الفضل فسكت هنيهة ثم قال « سننظر في ذلك » ـ واكتفى سلمان بهذا الجواب لعلمه انه لايجيبه على اقتراحه جواباً صريحاً لأسباب يعرفها مثله »

وابدى المأمون اشارة الصرف فخرج سلمان من عنده ولبث المأمون بعد خروجه يفكر في ماسمعه وهو يخاف ان يكون قد جاء يتجسسه من قبل الفضل . . . فعزم على استطلاع رأي الفضل خلسة

وفي ذلك المساء جاء الفضل إلى المأمون كجاري العادة وقد أنبأ جواسيسه بدخول سلمان على المأمون في ذلك اليوم فظنه جاء ليوسطه في شأن بوران ولم يخطر له انه يجسر على الوشاية به في أصل مشروعه لما في ذلك من الايقاع بالفرس كافة. وتعمد المأمون الخلوة بالفضل وتطرق بالاحاديث المتنوعة حتى ذكر سلمان فقال المأمون « قد بلغني عن هذا الرجل اعمالا اتاها في بغداد يمدح عليها »

فقال الفضل « نعم ياسيدي قد أعان حزبنا بمساعي اساسها المكر والخيانة وقد افادتنا ولكنه كبير المطامع كثيراً » ـ قال « ولا بأس من تقليده منصباً »

فابتسم الفضل وقال « عرضت عليه ذلك فرأيته طامعاً بما يقصر امثاله عن نيله . . . لو علم أمير المؤمنين بمطمعه لاستغربه » ـ قال « وما هو ؟ »

قال « انه طامع ببوران ابنة أخي ولما قلت له انها مخطوبة غضب كأنه

اولى بها من أمير المؤمنين » وكان المأمون قد خطب بوران من ابيها سراً فأدرك المأمون سر الخلاف وعلم ان الرجل لم يبح بسر الجماعة الا انتقاماً لهذا السبب ولم يفت المأمون اطلاع الفضل على مجيء سلمان فأحب ان يذهب خوفه من تلك الزيارة فهز رأسه احتقاراً لسلمان وسكت وترك المسألة لمجاري الطبيعة واظهر الاستغراب لما سمعه وغير الحديث فانصرف الفضل وهو مقتنع انه اوغر قلب المأمون على سلمان

الفصل الثالث والسبعون

عاقبة الغدر على الغادر

ولبث المأمون بعد ذلك يراقب ما يبدو من الفضل ليتحقق ما بلغه حتى جاء على الرضا ذات يوم لزيارته وهو ولي عهده على الخلافة فرحب به ودار الحديث بينهما فقال علي « انما جئتك لأنبئك بما يخفيه وزيرك الفضل عنك »

قال « وما ذاك ؟ » ـ قال « ان اهلك في بغداد لما علموا انك بايعتني بعدك نقموا عليك اشياء وقالوا عنك انك مسحور مجنون وبايعوا ابراهيم ابن عمك المهدي مكانك وخلعوا بيعتك لاعتقادهم أنها ستأول بعدك لي »

فاستغرب المأمون ذلك لأنه لم يكن بلغه فقال « لم يبلغني شيء من ذلك »

قال « لان وزيرك الفضل يتناول اخبار البريد ويخفيها عنك رغبة في مصلحته » فشكر المأمون لعلي حرية ضميره وقال اذكر ان الفضل قال لي ان اهل بغداد أقاموا ابراهيم بن المهدي أميراً عليهم لا خليفة »

قال « ان الفضل قد كذبك والحرب قائمة الآن بين الحسن بن سهل وابراهيم والناس ينقمون عليك مكانه ومكان اخيه الفضل ومكاني ومكان بيعتك لي من بعدك » ـ فقال المأمون « ومن يعلم هذا ؟ »

فسمى له رجالا اطلعوا على ذلك فاستقدمهم المأمون وسألهم بعد ان اعطاهم الامان من الفضل وكتب لهم خطه به فأخبروه بالبيعة لابراهيم بن المهدي وان أهل بغداد قد سموه الخليفة السني وانهم يتهمون المأمون بالرفض لمكان علي

منه (١) فلما سمع المأمون ذلك منه أثنى على علي فانصرف ولما خلا بنفسه اخذ يفكر في أمره فصمم على قتل الفضل ولكنه مازال خائفاً من بقاء على الرضا ولياً للعهد وأنه اذا لم يقتل ظل موقفه حرجا

وبلغ سلمان ماكان من علي وما قصه على المأمون فعلم أن الطبخة قد استوت فدخل على المأمون في خلوة فلمح له المأمون تلميحاً فهم مراده منه وانصرف يعد المكائد ويغتنم الفرص

وسافر المأمون الى بغداد سنة ٢٠٢ هـ فلما وصل الى سرخس وثب قوم على الفضل في الحمام فقتلوه وكان ذلك بمساعي سلمان فحاكم المأمون الذين وثبوا عليه وقتلهم . وبعد ان وصل المأمون الى بغداد بقليل شاع مقتل علي الرضا بأكلة عنب مسموم وتحدث الناس ان المأمون دس له ذلك العنب (٢) وانما دسه سلمان

فنجا المأمون بذلك وظلت الخلافة في أهله ولكنه ظل خائفاً من سلمان فدس اليه من قتله خوفاً من انقلابه على المأمون فمات جزاء غدره فصح فيه قول بهزاد « ان الغادر تعود عليه عاقبة غدره »

أما بهزاد فلم يعد يرى سلمان منذ افترقا يوم خروجهما من عند الفضل ثم بلغه مقتل الفضل بن سهل وعلي الرضا فاسف لضياع مساعيه في نقل السلطة للفرس ولكنه تعزى بما توفق اليه من الانتقام لجده وحميه وعاش مع عروسه في راحة والناس لايعرفون أنه حفيد أبي مسلم وانها ابنة جعفر البرمكي . ثم بحث عن سلمان فعلم ان المأمون قتله خوفاً من غدره فقال في نفسه « ذلك جزاء الخيانة وتلك عاقبة الغدر »

أما المأمون فبعد ان جاء بغداد تزوج ببوران بنت الحسن بن سهل ترضية لأبيها عما لحق باخيه لان سبب قتله لم يخف عليه . ولزفاف بوران احتفال محفوظ في بطون التاريخ (٣) *

دار الكتب ... فرع الرواية ...

---

(١) ابن الاثير ج ٦ (٢) ابن الاثير والفخري و... ني ٩ وابن خلكان
(٣) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٥